# فن البلاغة

دكتور
عبد القادر حسين
استاذ البلاغة والنقد - جامعة القاهرة



الـكـتــــاب : فن البلاغة
المؤلــــــف : د. عبد القادر حسين
رقـم الإيـداع : ٢٤٠٤٤ / ٢٠٠٥
تـاريـخ الـنشـر : ٢٠٠٦
الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 - 881 - 7

الـنـــاشــر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة
الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤
الـتــوزيــع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى الفجالة – القاهرة
ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩
إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣

بسم ا لله الرحمن الرحيم

## وبه نستعين

## مقدمة

أردت من تصنيف هذا الكتاب أن أقدم البلاغة العربية فى ثوب جديد ، وأسلوب سهل حتى يألفها القارىء بعد أن زهد فيها ، ويميل إليها بعد أن رغب عنها، وأن أيسرها له قدر الطاقة بعد أن شقت عليه زمنا ، ولم يجن من ورائها ثمرة ، فطرحها وأهملها.

وآن لدارس البلاغة أن يتناولها وينظر فيها بإمعان ، ثم يعيد صياغتها ، ويقرب معانيها ، ويجلى معالمها ، ويبرز جمالها ، وهو فى كل ذلك عليه أن يطرح عنها ما ينقص من شأنها ، ويضيف إليها ما يزيد من فائدتها.

قلة من البلاغيين القدماء - بعد وضع قواعد البلاغة - كانت لهم لفتاتهم الفنية القيمة الجديرة بالاعتبار ، واستنباطاتهم البلاغية الدقيقة التى تهدى إلى جلاء النص وبيان أثره فى النفوس ، ولكن هذه اللفتات كانت ضئيلة نادرة بجوار هذا الحشد الضخم من العلوم الجافة ، والشطحات الفجّة التى لا تدخل فى صميم فن يعتمد على رقة الشعور ، ورهافة الحس ، وصفاء الطبع ، ويعمل على صقل الموهبة، وتربية الذوق ، ونموّ الملكة.

فأبحاث البلاغة على سعتها ، قصرت عن بلوغ الهدف منها ، وإثراء فنها ، فلم تبرز ماثلة أمام العيون شأن القليل بين الكثير ، وتوارت وراء المنطق والفلسفة كما تتوارى الشمس خلف حجب من السحب الداكنة . فكان هدفى أن أنحّى هذه السحب ، وأكشف عن هذا القليل ، لتسطع شمس البلاغة فتدفىء الإحساس ، وتلهب الشعور ، ففى هذا القليل الخلاصة المثمرة التى نسعى إليها فى المجال

البلاغى ، ونحاول الكشف عنها فى المدار الفنى ، فذلك أنفع وأجدى من الجرى وراء مباحث كبيرة لا تحمل معنى كبيرا ، ومن ثم انحصر عملى فى تحرير البلاغة من الأغلال والقيود التى نرسف تحتها ، ونفض تراب الأزمان الغابرة لتلائم ذوق العصر. ويتفق مع أذواق القدامى الذين لم تفسد أذواقهم ، ولم تضعف ملكاتهم .

فبواسطة الذوق المرهف نستطيع أن نتبين من خلال التعبير ، الأداء الحسن، والتأثير القوى والانفعال الشديد ، والعاطفة الصادقة ، وذلك هو الأهم فى نظرى.

فما فائدة قاعدة تدرس ، وما جدوى مثال يحفظ ، ولا شيء أبعد من ذلك ، لا نصوص ينفذ الدارس إلي أعماقها ، ولا سر بلاغى يضع الباحث عليه يده ، ولا تأثير يشعر به ، ولا انفعال يهتز له ، ولا عاطفة يتبين صدقها أو زيفها ، ومع الزمن تهمل القاعدة ، وينسى المثال ، فيصبح درس البلاغة عبثا ، لا يصقل ذوقا ، ولا ينمى ملكة ، ولا يلهب شعورا ، و لا يثير انفعالا ولا يمنح خيالا ، لأن عمادنا تركز فى الأمثلة المحفوظة ، والعبارات المأثورة ، تلوكها الألسن ، وتتقلها الشفاه عبر الأزمان جيلا بعد جيل ، فتفقد أثرها وتأثيرها ، فكم من قرن تمسك فيه أرباب البلاغة بدراسة مفتاح العلوم للسكاكى ، والسكاكى ينزع إلى الدقة والتحديد ، لا إلى الرونق والتحسين ، والمنطق والفلسفة ، لا إلى السيولة والبساطة ، فكان لذلك أثره فى اللاحقين ، وأصبحت كتبهم تفقد الروح الأدبية ، ويغلب عليها طابع الجدل العقيم ، فكان ذلك جناية على فن القول ، وبلاغة التعبير .

ثم تلخيص لمفتاح السكاكى ، وشروح لهذا التلخيص ، ومع ما فى الشروح من فائدة لا تنكر ، إلا أنها لم تفرز من شوائبها ، ولم يحسن الاختيار منها ، ونبذ ما عداها ، ولكنها تدرس دفعة واحدة ، بخيرها وشرها ، بقضّها وقضيضها ، بما فيها من منطق وفلسفة ، وحشو واستطراد ، وجدال وكلام ، فصارت حواشى وشروحا فى بعض المواضع ، وتلخيصا وغموضا فى بعضها الآخر ، حتى خبا ضؤها ، وذبلت نضرتها ، و عادت هشيما ذرته رياح الزمن ، ولفظته أذواق العصر .

وكان علينا نحن المهتمين بالدراسات البلاغية أن نقوم بعمل ما إزاء هذا الطغيان على فن البلاغة ، والذوق الأدبى ، فكان أضعف الإيمان أن نخلصّها من

الشوائب التى علقت بها ، وننفض عنها كل ما هو دخيل عليها ، وأن نصقل مرآتها حتى يبدو وجهها الحسن أمام العيون ، فتسلل إلى القلوب ، ولا تنفر منها النفوس.

وفى هذا الكتاب الخلاصة الفنية لبعض مباحث البلاغة التى تاهت بين كتب الأقدمين ، فلم ينتفع بها المتعلمون ، لغلبة الأبحاث الأخرى عليها ، فغاضت بين أمواجها ، وجرفها تيار المنطق ، والفلسفة ، والأصول ، والقاعدة النحوية ، والتفريع والتقسيم ، فصارت ركاما هائلا ليس فيه إلا النادر القليل من البلاغة وفنها ، فأردت أن أنقيها من شوائب الخلافات ، وأنحيها عن أساليب الجدل والمنطق ، وأبتعد بها عن التفريع والتقسيم ، مادام الهدف هو إبراز التناسق فى العبارات ، والجمال فى العلاقات. ودقة الألفاظ وبراعة الأنماط.

والنصوص الأدبية الراقية تتمثل فى الشعر والنثر ، فى القديم والحديث على السواء ، ولكن الصورة المثلى التى تتصف بالجمال والجلال ، وتعتبر أرقى هذه النصوص على الإطلاق هو النص القرآنى المعجز ، فكان هو العماد فى هذا الكتاب ، اتخذ منه الدليل - غالبا - لأستشهد به ، بل كنت أختاره دون غيره من النصوص الأخرى فى كثير من الموضوعات ، فوقعه على الأذن جميل ، وتأثيره فى القلب عميق ، فإذا شبّ المتعلم فإنه يشبّ وقد وقف على أروع النصوص جمالا ، وأعمقها معنى ، وأبعدها أثراً.

والله أسأل أن يوفقنا سواء السبيل .

مدينة نصر فى ١٦ ذى القعدة ١٣٩٣ هـ
١٠ ديسمبر ١٩٧٣ م

# تمهـــيد

**ويشـمل:**

**١ - البلاغة والنقد فى العصر الجاهلى.**

**٢ - البلاغة والنقد فى العصر الإسلامى.**

# العصر الجاهلى

## البلاغة فى العصر الجاهلى :

الفنون ألوان شتى : منها التصوير والنحت والعمارة ، ومنها الموسيقى والأدب. والفنون بمختلف ألوانها تتظاهر على إبراز الجمال ، والتعبير عنه بوسائله الخاصة ، والأدب هو فن الكلمة والكلام ، فن اللفظ والمعنى ، فن التركيب والتعبير، وكل ذلك يدخل فى نطاق الفصاحة والبلاغة ، فالبلاغة لون من ألوان الفن ، وصورة من صورة ، تقوم على الطبع الأصيل ، والفطرة السليمة .

والعرب بطبعهم الأصيل ، وفطرتهم السليمة ، اشتهروا منذ العصر الجاهلى بالفصاحة والبلاغة ، والتمتع بسلامة الذوق فى معالجة الكلام من اختيار للألفاظ ، واجتلاب للمعانى ، والملاءمة بين اللفظ والمعنى ، وحسن التركيب ، وإجادة التصوير، ورصف البديع. كما اشتهروا بالبعد عن فضول القول ، والحشو ، والإسهاب. وكل ما يزرى من شأنهم.

ولم تكن العرب تفخر بتلك الفصاحة فحسب ، وإنما كان يترتب على تلك الفصاحة أشياء ترفع من شأن العربى الذى يتسم بها ، فيسود قومه ، ويعلو كعبه ، ويخبرنا الجاحظ فى كتاب شرائع المروءة : «أن العرب كانت تسوَّد على أشياء ... وكان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء ، والنجدة ، والصبر ، والحلم ، والتواضع ، والبيان ، وصار فى الإسلام سبعا» (1). فالبيان شرط من شروط السيادة بين العرب ، وبدونه يستحيل على العربى مهما اتصف بكثير من الصفات الحميدة أن يأمل فى سيادة قومه وعشيرته .

---

(1) خزانة الأدب للبغدادى ٣/٩٥ .

وأبرز ما يلفت أنظارنا فى لغة العرب فى العصر الجاهلى. أنها لغة إيجاز ، وأنهم حريصون على هذا الإيجاز كل الحرص ، فيحذفون الحرف ، والكلمة ، والجملة والجمل إذا كان الكلام مفهوما بدونها ، وظهر الدليل عليها ، فيأنسون إلى طبيعتهم فى الاقتصار ، ويشيرون إلى المعنى إشارة معبرة موحية تغنى عن الكلام الطويل.والسرد المملول.

يقول بعض الحكماء « البلاغة علم كثير فى قول يسير»[1] أو «إجاعة اللفظ وإشباع المعنى » [2] فالإيجاز فضيلة مشهورة فى لغة العرب ، وهم يعتزون بذلك كل الاعتزاز ويفخرون «فاللغة العربية مع السعة والكثرة ، أخصر اللغات فى إيصال المعنى إذا كانت لغة تفصح عن المقصود ، وتظهره مع الاختصار والاقتصار ، فهى أولى بالاستعمال ، وأفضل مما يحتاج فيه إلى الإسهاب والإطالة» [3] .

وينبغى أن ننبه إلى أن الإيجاز لم يكن محمودا فى كل المواطن بل فى الموطن الذى لا يحتاج فيه المعنى إلى سواه ، فالإيجاز فى لغة العرب طبع وسليقة ، وروح وأصل ، ثم صار لأهميته فى تزيين الأسلوب اجتهادا وروية ، وتدريبا حتى يصل البليغ إلى الكمال ، وذلك « لأنه يترك على أطراف المعانى ظلالا خفيفة يشتغل بها الذهن ، ويعمل فيها الخيال ، حتى تبرز ، وتتلون ، وتتسع ، فيزيد بطريق الإيحاء من دلالة الكلام » [4] ومعنى هذا أن حسن الإيجاز يرجع إلى سبب نفسى ، فهو يدعو أن يشارك السامع المتكلم فى تكملة الكلام وبيان المراد .

على أن الجاحظ لم يكن يعنى بالإيجاز قلة عدد الحروف. أو اختصار الألفاظ الذى قد يؤدى إلى الإيهام «فقد يستغرق الكلام صفحات طوالاً ، ولا يخرج عن الإيجاز » [5] وإنما يعنى بالإيجاز اللفظ الموحى بالمعنى فى إجماله.

---

(١) الصناعتين العسكرى ٣٧

(٢) العمدة لابن الرشيق .

(٣) سر الفصاحة

(٤) دفاع عن البلاغة الزيات ١١ ، ١٣

(٥) الحيوان ٩١/١

ولعل السبب فى ميل العرب للإيجاز ، إنهم كانوا يعتمدون على ذاكرتهم فى الحفظ ، والإيجاز أيسر حفظا ، وأقرب تذكرا من غيره من صور الكلام (١) . ولذلك كان الاتجاه عند نقاد العرب إنهم يفضلون الإيجاز ويعتبرونه حد البلاغة منذ أقدم العصور .

والعرب فى الجاهلية لم يكن يعنيهم الإيجاز وحده دون الألوان البلاغية الأخرى. وإنما نلحظ فى قصائدهم الوقوف على اختيار الألفاظ والمعانى ، والصور ومن يتصفح أشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات ، والاستعارات ، والكنايات ، والطباق ، والمقابلة ، والجناس ، وغيرها من الصور والألوان ، حتى يصبح قرض الشعر عملا فنيا متكاملا ، وهذا أوضح برهان على عنايتهم الفائقة بتحسين الكلام، والتفنن فى ألفاظه وأساليبه ومعانيه ، وأنهم قوم يمتازون باللسن ، والفصاحة ، والقدرة على حوك الكلام.

وهل ننسى ما نقرأ عنه فى تاريخ الأدب العربى عن مدرسة الحوليات من أن زهير بن أبى سُلمى صاحب القصائد الحولية كان يكرر نظره فى قصائده حينا بعد حين على وجه التنقيح والتثقيف خوفا من التعقب والنقد ، فيمر عليه الحول قبل أن يشرع فى بناء قصيدة أخرى ، ولا نبعد كثيرا إذا زعمنا أن العرب فى الجاهلية عرفوا الفن البيانى ، ولعل قول زهير :

**ما أرانا نقول إلا معارا ... أو معادا من لفظنا مكرورا**

أوضح دليل على أن العرب فى الجاهلية عرفوا الفن البيانى « الذى يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه(٢)» فقد لاحظ زهير أن ما يقوله هو وغيره لا يتجاوز إعادة المعنى المعروف بألفاظ مختلفة ، وهذا يتفق مع تعريف المتأخرين لعلم البيان.

ومدرسة زهير التى كان أصحابها رواة يتخرج فيها بعضهم على بعض ، فالتلميذ يلزم أستاذا له يأخذ برواية شعره ، ومعرفة طريقته ، وما يزال به حتى

---

(١) علم المعاني د. درويش الجندى ١٦٥

(٢) شروح التلخيص للقزوينى وغيره ٢٥٨/٣

تتفتح مواهبه . ويسيل الشعر على لسانه وحينئذ يورد عليه بعض ملاحظاته على ما ينظم ، وقد يصلح له بعض نظمه(١).

كل هذا يدل على أن الأمر لم يكن متروكا للطبع والسليقة ، أو الاكتفاء بالإحساس الذى لا يصاحبه معاودة النظر . فهذه المدرسة التى قامت على المزاولة والممارسة ، واعتمدت على الفطرة والموهبة، قبل اعتمادها على شئ آخر ، قد أخذت فرصتها الكافية لصقل موهبتها ، والكشف عنها ، وأفسحت الطريق أمامها، لظهورها ، والسير بها نحو الكمال « وليس أدل على ذلك من أن العرب فى جميع عصورهم لم يعنوا بشىء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته ، ورقيق الأسلوب ورصانته ، وقد جعلوا الإعراب ، واصطفاء اللفظ ، والملاءمة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الذى ييسر على اللسان نطقه ، ويزين فى الأذن وقعه ، أساسا لكل هذه الخصال(٢) ».

ومن ثم نستطيع أن نقول فى اطمئنان : إن فصاحة العرب فى الجاهلية لم تكن تعتمد على الموهبة أو الفطرة وحدها ، وإنما كانوا يعملون على صقلها بالممارسة ، والدربة ، والتنقيح ، والتهذيب ، حتى تصل إلى ما وصلت إليه ، وهذا يتفق مع طبيعة أى فن من الفنون ، فالموهبة وحدها فى العمل الفنى لا تجدى إذا لم تساندها الدراسة - مهما كان نوعها - حتى تنضج ويكتب لها البقاء والخلود .

**النقد فى العصر الجاهلى :**

أما النقد فى العصر الجاهلى فقد كان ساذجا لا يقوم على التعليل والتفكير ، بقدر ما يبنى على الذوق والفطرة ، فقد كان منبعثا من العاطفة لا من العقل ، والأحكام فيه صادرة على سبيل الإجمال ، دون التماس العلل والأسباب .

وأسواق العرب ، وأشهرها سوق عكاظ ، كانت تجتمع فيها القبائل المختلفة ، ويتلاقى فيها الشعراء والخطباء ، كانت فى حقيقة أمرها سوقا أدبية يتبارى فيها

(١) البلاغة تطور وتاريخ د . شوقى ضيف ٢٣
(٢) ألوان د . طه حسين ص ١٤ دار المعارف ط٤

ذوو الفصاحة والبلاغة ، لإظهار فصاحتهم وبلاغتهم ، فينقد بعضهم بعضا ، ويفضلون شاعرا على شاعر آخر ، ويبرزون ما فى القول من جمال أو قبح ، وما يتفق ونظرهم إلى الفن ، وما يختلف عنها ، وما فى القصيد من صور بيانية ، ومحاسن بديعية .

ومن أشهر النقاد فى ذلك العصر : النابغة الذبيانى الذى كانت تضرب له قبة حمراء يفد إليها الشعراء للتحكيم [1] ، وتفضيل أحدهم على الآخر ، وقصة النابغة فى تفضيل الأعشى على الخنساء ، والخنساء على حسان بن ثابت مشهورة فى كتب الأدب والنقد .

« فملكة النقد عند الجاهليين هى الذوق الفنى المحض ، أما الفكر وما ينبعث عنه من التحليل والاستنباط فذلك شيء لا نعرفه عندهم ، وبعيد كل البعد عن الروح الجاهلى ، وعن طبيعة العصر الجاهلى»[2].

وربما كان ثمة سبب آخر : فالناقد كان يتوجه فى نقده إلى جمهور يعرف من الفصاحة والبلاغة مثل ما يعرف ، ولا يحب أن يقف منه موقف المعلم الشارح ، باعتبار أن فى ذلك غضًا من شأنه ، أو حطًا من قيمته ، فكان الناقد يلجأ إلى الإيجاز فى نقده كما يلجأ المتكلم إلى الإيجاز فى كلامه .

فالحكم الأول فى بيان القيمة الفنية للقول هو ذوق الصفوة من الجمهور ، والأخذ بهذا الحكم دون انتظار لإبداء الأسباب والعلل ، وهو ما عبر عنه الجاحظ بقوله : « وإذا أردت أن تتكلف صناعة الأدب فعرضت قصيدة ، أو حبرت خطبة ، أو ألّفت رسالة ، فاعرضه على العلماء ، فإن رأيت الأسماع تصغى له ، والعيون تحدج إليه ، ورأيت من يطلبه ويستحسنه ، فانتحله ، وإذا عاودت أمثال ذلك مرارا ، فوجدت الأسماع عنه منصرفة ، والقلوب لاهية ، فخذ فى غير هذه الصناعة ، واجعل رائدك الذى لا يكذبك ، حرصهم عليه أو زهدهم فيه [3].

(١) جمهرة أشعار العرب ٨٣/١ نهضة مصر القرشى

(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب طه إبراهيم ١٨

(٣) البيان والتبيين ٢٠٣/١

ومن ثم أخذ الشاعر والخطيب فى تنميق الخطبة وتزيين القصيدة ، يعيد فيها النظر بين الحين والحين ، لعله يظفر بالقبول والاستحسان ، كما تحدثنا عن مدرسة زهير ، وقصائد الحولية وكان الحطيئة – وهو من أتباع هذه المدرسة – يقول: « خير الشعر الحولى المنقح [1]». والقصد من ذلك معاودة النظر ، وطول اناة، لإخراج القصيدة فى أحسن نظم ، وأجمل صورة ، وليس القصد إلى التكلف السمج ، الذى تمجه الأذواق السليمة ، والفطر المستوية ، فيفسد المعنى ويعاظل فى التركيب .

وربما كان الدافع إلى هذه الإجادة ، والتأنق فى العبارة ، إرضاء الممدوح ، ونوال عطائه كما يعلل الجاحظ « إن من تكسب بشعره ، والتمس به صلات الأشراف والقادة ، لم يجد بدا من صنيع زهير وأمثالهما[2] ».

فليس من شك أن النقد قد وجد منذ العصر الجاهلى. ولكنه كان نقدا هينا سهلا ، منبعثا عن العاطفة والذوق ، وليس نقدا علميا ناشئا عن العقل والفكر ، ولم يكن يقوم على أسس مقررة ، أو قواعد راسخة.

**الكتابة فى العصر الجاهلى :**

الكتابة العربية تولدت من الكتابة النبطية التى كانت منتشرة فى شمال الحجاز وجنوب الشام فى القرن الأول من الميلاد ، والكتابة النبطية بدورها متفرغة من الخط الارامى فى القرن الأول قبل الميلاد على وجه التقريب ، ثم رأينا الكتابة العربية تتطور تطورا سريعا فى الوقت الذى أخذت فيه مسحتها النبطية إلى الزوال ، وتحل محلها الصبغة العربية فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، ثم انمحت الكتابة النبطية ، وزالت تماما فى القرنين الخامس والسادس ، ولكنها بعثت فى صورة أخرى هى الكتابة العربية.

(١) البيان والتبيين ٢٠٤/١

(٢) البيان والتبيين ١٣/٢ وانظر العمدة لابن رشيق ٨٣ – ٨٦ .

وقد كان هناك عدة عوامل لانتشار الكتابة العربية لعل أهمها : التجارة : فقد انتشرت العربية فى المناطق التجارية ، لشدة الحاجة إليها ، وعدم الاستغناء عنها فى معاملاتهم الداخلية والخارجية . فالتاجر يجمع القافلة من أهل المدينة الواحدة ترتحل من مكان إلى مكان ، وهم فى ذلك كله يفتقرون إلى معرفة حصة كل واحد منهم فى البيع أو الشراء ، ولم يكن ذلك ممكنا إلا بمعرفة الكتابة.

ورغم أن التجارة كانت فى المقام الأول لنشر الكتابة ، إلا أن هناك عوامل أخرى سياسية ساعدت على نشرها أيضا مثل المعاهدات والمحالفات ، وأيام العرب ، ووقائعها مما يحتاج إلى التدوين والتثبيت ، وما من شك أننا نذكر حلف الفضول ، وحلف قريش ضد بنى هاشم بعد ظهور النبى ، وكتابتهم الصحيفة المشهورة ، وتعليقها فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم .

بل إن من الأسباب ما يمت إلى الفن بصلة ، فقد نقل بعض الرواة أن العرب كتبوا المعلقات على القباطى بماء الذهب ، وعلقوها على أستار الكعبة ، وكانوا يكتبون على الحجارة ، والعظام ، وعسب النخل ، والجلد ، والأديم.

إذاً فقد عرف العرب الكتابة فى الجاهلية ، وظهرت فى الحواضر والبوادى ، ولعل تشبيه الشعراء الأطلال الدراسة بالكتابة مما يدل على انتشار الكتابة فى العصر الجاهلى .

ولم يكن أمر الكتابة فى العصر الجاهلى مستنبطا من هذه الشواهد وحدها ، فالقرآن الكريم قد ذكرها فى مواضع كثيرة ، وحث عليها خاصة فى المعاملات التجارية ، وتدوين الديون ، وقد ذكر أدوات الكتابة مثل القلم ، والكتاب ، واللوح ، والورق ، ولفظ الكتابة ، وما يشتق منه يدور فى مواضع كثيرة من القرآن مما يوحى بانتشارها وقت نزول القرآن .

ولكن انتشار الكتابة فى المعاملات شىء ، وفن الكتابة بحيث تدخل فى نطاق الأدب شىء آخر .

فهل وجدت كتابة فنية فى العصر الجاهلى ؟ وهل عرف العرب النثر الفنى فى ذلك الوقت ؟

وقبل أن نجيب عن هذا التساؤل نطرح على أنفسنا هذا السؤال .

ما المقصود بالكتابة الفنية ؟ الكتابة الفنية ليست هى الكتابة البسيطة الصريحة التى أريد بها نقل المعنى ومجرد الإفهام ، وليست هى التى تأتى طواعية، وتصدر تلقائيا دن تأنّ ومعاناة فى اختيار الألفاظ ، وترتيب المعانى ، وإنما هى التى تأتى بعد تروّ ، وإعمال فكر ، وتنميق أسلوب ، هى التى تحدث المتعة الفنية ، وتحرك الشعور ، وتثير الإحساس بالجمال .

فهل وجدت كتابة فنية بهذا المعنى الدقيق فى العصر الجاهلى ؟

ربما عرف الاستقرار والتحضر ، ولكنهم لم يصلوا فى ذلك الاستقرار إلى الدرجة التى تستلزم ظهور الفنون التى تنشأ فى الحضارات العريقة ، فلا نجد عندهم الرسم، ولا النحت ولا غيرهما من الفنون إلا بدرجة بدائية يمكن أن نغض عنها النظر . وكذلك كان شأن الكتابة الفنية ، فإن العلماء متفقون على عدم وصول أية كتابة فنية إلينا من العصر الجاهلى .

ووجود الكتابة الفنية فى القرآن الكريم نفسه لا يعنى وجودها فى العصر الجاهلى ، لأننا إذا نظرنا مثلا إلى رسائل الرسول ﷺ وجدناها تتسم بالبساطة والسهولة ، والاختصار ، ولا يراد بها إلا مجرد الأداء دون إثارة لجمال ، أو متعة فنية ، مما يدل عدم وجود تطور قبلها ، فكيف ننظر إلى القرآن وحده دون أن ننظر إلى رسائل الرسول ، فالقرآن وحى من قبل الله ، وله مقامه الخاص ، ولا يصح أن يقاس به شىء آخر. أما الرسائل فلها الاعتبار فى هذا التحليل ، والوصول إلى الحقيقة . ومن ثم فإن الكتابة الفنية لم يكن لها وجود فى العصر الجاهلى ، ولم يصل إلينا من الوثائق ما يمكن الاعتماد عليه فى هذا الشأن (١).

### النثر الفنى فى العصر الجاهلى :

لا نقصد بالنثر ذلك الحديث العادى ، أو المحاورات التى تدور بين الناس فى شتى شئونهم وأحوالهم ، ولا نعنى به لغة التخاطب التى يراد بها الفهم أو الإفهام ، وإنما نقصد شيئا غير ذلك كله ، نقصد النثر الفنى الذى يرتفع عن لغة التخاطب ،

(١) نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى د. حسين نصار ، انظر بالتفصيل ص١١ وما بعدها.

والأحاديث الجارية ، ويشتمل على الصور البيانية ، ويوشى بالزخارف والصبغ البديعى ، ليزيد من حسنه مادام القصد من ورائه الإثارة ، والغرض منه الامتاع .

فهل كان النثر الفنى بخصائصه المعروفة له وجود فى العصر الجاهلى ؟

وهل عرف العرب النثر الفنى كما عرفوا الشعر الحولىّ ؟

حين يتحدث الدكتور طه حسين يقول : « والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال - مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلى وعشاقه - أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فنى .. ومع ذلك فقد كان له نثر خاص لم يصل إلينا لضعف الذاكرة ، وخلوه من الوزن ، هذا النثر هو الخطابة .. وليس من شك فى أن الخطباء كانوا يحرصون على أن يعجبوا السامعين ، لا ليقنعوهم فحسب بل ليثيروا فيهم لذة فنية ، ومتى وجدت هذه الفكرة فقد وجد الجمال الفنى .. ولكن هذه الخطابة لم يرد إلينا منها شىء نثق به »(١) .

فالدكتور طه ينفى صراحة وجود نثر فنى فى العصر الجاهلى غير الخطابة ، والنصوص التى وردت إلينا عن الخطابة يشك فى صحتها ، ولا يطمئن إلى وجودها فى العصر الجاهلى ، فربما وضعها الرواة فى العصور التالية « وذلك لأن النثر الفنى لغة العقل ، وأولئك قوم كانوا يحيون حياة أولية لا تسمح لهم إلا بالشعر لغة العاطفة والخيال »(٢).

والدكتور زكى مبارك يقر بانتحال كثير من الخطب الفصيحة الطويلة كخطب وفود العرب عند كسرى ، وأن هذه الخطب وأمثالها قد وضعها الرواة بعد الإسلام لأغراض سياسية حين أرادوا أن يثبتوا فضل العرب فى الجاهلية ، وأنهم كانوا قادرين على مقاومة الفرس بالسيف واللسان .. وكذلك الأمر فى النثر القصصى ، والمحاورات التى نسبت إلى أهل الجاهلية .. والنتيجة أننا لا نستطيع أن نعطى

---

(١) من حديث النثر والشعر د. طه حسين ص ٢٤ - ٢٦ .

(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع د. زكى مبارك ٣٣/١ ط دار الكتب هذا الرأى نقله الدكتور زكى مبارك عن الدكتور طه حسين .

النثر الفنى فى العصر الجاهلى لونا نطمئن إليه ، لأن أكثر ما نسب إلى الجاهلية غير صحيح ، وضاع معظم النثر، لصعوبة حفظه ، ولأن التدوين كان قليلا جدا فلم يحفظ من النثر إلا اليسير »(١) .

وليس معنى ذلك أن الدكتور زكى مبارك ينفى وجود النثر الفنى فى العصر الجاهلى مثل الدكتور طه ، بل نراه يؤكد وجود هذا اللون رغم ضياع الكثير منه ، وانتحال غيره فيقول : « وخلاصة ما أراه أنه كان للعرب قبل الإسلام نثر فنى يتناسب مع صفاء أذهانهم ، وسلامة طباعهم ، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الأمية ، وقلة التدوين ، وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التى جاء بها الإسلام ودونها القرآن »(٢) .

ويؤيد هذا الرأى بالقرآن ، فهو شاهد لا ريب فيه من شواهد النثر الفنى ، ويقرر أن القرآن لا تصح نسبته إلى العصر الإسلامى ، وإنما ينسب إلى العصر الجاهلى « لأن الإسلام لم يكن موجودا قبل نزول القرآن الذى جاء بأساليب العرب الجاهلية وتعابيرهم .. وفى القرآن نص صريح على أن الرسول لا يرسل (إلا بلسان قومه ليبين لهم) فلا مفر إذن من الاعتراف بأن القرآن يعطى صورة صحيحة من النثر الفنى لعهد الجاهلية ، لأنه نزل لهدايتهم ، وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون»(٣).

وهذا أمر منطقى لا افتعال فيه ، ولا تكلف ، فإذا كان القرآن قد نزل بلغة العرب ، وبالأسلوب الذى ألفوه ، وما يزخر به هذا الأسلوب من التصوير والتأثير ، والفصاحة والبلاغة ، ولو كانت أساليب القرآن غريبة عليهم وبعيدة عنهم ، لما أعجبوا به ، أو وصفوه بالحلاوة ، إذ كيف يعجب المرء بما يجهل ، إذاً فلابد أن تكون لديهم ثقافة أدبية خاصة .

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع د. زكى مبارك ٣٦/١ ، ٣٧
(٢) النثر الفنى ٣٤/١
(٣) النثر الفنى ٣٩/١

وإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيرا من العلماء عللوا الإعجاز فى القرآن بغير السمو الأدبى ، والتفوق البلاغى ، وقالوا بالصرفة ، أو الإخبار بالغيوب ، أو سرد قصص الأنبياء السابقين وغير ذلك مما هو مشهور فى الكتب التى تناولت إعجاز القرآن.

ولا يجرؤ واحد من العلماء أن يزعم هذا الزعم إلا إذا كان واثقا بأن العرب كانت لديهم المقدرة التامة على إنشاء مثل القرآن ، غير أن الله صرفهم عن مثل هذا الفعل .

إذا وضعنا ذلك كله نصب أعيننا أمكننا القول بأن النثر الفنى كان له وجود فى العصر الجاهلى ، وإن لم يصلنا منه إلا النذر اليسير .

# العصر الإسلامى

## البلاغة فى العصر الإسلامى :

كانت الحاجة ماسة إلى ذيوع البلاغة وانتشارها فى العصر الإسلامى . لأسباب سياسية وعقائدية ، فالمسلمون ينافحون عن صدق النبوة ، والدعوة الإسلامية الجديدة ، ولا شك أن هذه الدعوة الإسلامية قامت على النضال بالبيان ، كما قامت على الحرب بالسيف ، فللرسول أنصاره من المسلمين ، وللشرك أتباعه من الكافرين ، ورحى الحرب تدور بين الفريقين ، فالمسلمون يمدحون الرسول ، ويؤيدون الدعوة الجديدة ، ويهجون المشركين ، ويسفهون الشرك والوثنية ، والمشركون أيضا كانوا يقومون بمثل ما كان يقوم به المسلمون من مدح وهجاء ، وكل فريق ينشد البراعة الفنية ، والمقدرة البلاغية .

ثم التنافس الشديد الذى قام به المهاجرون والأنصار للاستئثار بالخلافة بعد وفاة الرسول ، وهذا وذاك يدعو لنفسه بالخطب تارة ، وبالجدل والمحاورة تارة أخرى.

والفتنة التى نشبت بين على ومعاوية ، ولكل منهما أتباعه ينشر الدعوة لمن يناصره هنا وهناك فى الأمصار ، وبين القبائل بما يخلب القلوب ، ويجذب الأسماع ،ويؤثر فى النفوس ، ولا سبيل إلى شىء من ذلك سوى المقدرة البلاغية ، والبراعة الفنية.

وفى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين نسمع بأن المهتمين بسلامة اللغة ، والمحافظة على نقائها يرتحلون البوادى ، أو يستقدمون الأعراب الخلص أصحاب السليقة الفطرية ، والطبع السليم ، ليحفظوا منابع الفصحى ، وسلامة اللسان ، فكانت البلاغة والفصاحة تلتمس فى هذه العصور حفاظا على كيان الأمة القومى ، وعصبيتها الدينية .

وعندما اختلط العرب بغيرهم من الأجانب بعد اتساع الفتوح الإسلامية ، واتصلوا بثقافتهم ، وعرفوا حضارتهم ، أمكنهم التعرف على طرق جديدة فى فن الخطابة والكتابة ، وانتفعوا بها ، وكان لها أثرها فى أساليبهم ومعانيهم .

« وقد تطور الأدب تطورا سريعا بعد ظهور الإسلام بنحو نصف قرن ، حين نشأ الجيل الجديد من العرب ، واتصل بالأمم الأجنبية .

فالشعر تطور فى ألفاظه ، وأوزانه ، وأساليبه ، وفى معانيه وموضوعاته ، ونشأت فنون لم تكن من قبل ، واستحدث النثر خطبا مطولة ، وقصصا مفصلة ، ورسائل موجزة مجملة.

والنثر قد اتخذ لنفسه أصولا تقليدية تقارب أصول الشعر ، فحرص على اللغة المعربة ، وعلى الفصاحة والجزالة ، وعلى الرونق والرصانة ، وحرص على هذه الأصول حرصا شديدا مستمدا أكثرها من الشعر الذى اتخذه إماما له فى أول الأمر، ثم نافسه وغلبه بعد ذلك.

واستعمل الكتاب البديع والزخرف ، وأكثروا من الصنعة ، وأسرفوا فيها إسرافا ربما انتهى بهم إلى السخف فى كثير من الأحيان (1).

هذه صورة موجزة عن الحياة الأدبية فى العصر الإسلامى نثرا وشعرا ، وكتابة وخطابة ، وقد ألحت عليهم الظروف أن يتناولوا هذه الفنون ويمارسوها .

أما البلاغة فى ذلك العصر فينبغى أن نتحدث عنها بشىء من التفصيل . ونلاحظ أن البلاغة فى هذا العصر لا تختلف كثيرا عن البلاغة فى العصر الجاهلى ، فقد كان العرب فى صدر الإسلام يجرون فى أساليبهم على الطبع والسليقة تارة ، وعلى الدربة والتثقيف تارة أخرى ، فيعطون اللفظ والمعنى حقهما ، ويصلون إلى الغرض فى إيجاز أو إطناب أو مساواة على حسب ما يقتضيه المقام .

---

(1) ألوان د. طه حسين ١٦ – ١٨

ونزول القرآن بلسان عربى مبين ، قد توج فصاحة العرب ، وبرهن على بلاغتهم التى لا تبارى ، فكان القرآن متحديا هذه الفصاحة الكاملة ، وتلك البلاغة التامة. وقد كان الرسول ﷺ أفصح العرب ، والصحابة يتعجبون لفصاحته ، ولايرون من هو أفصح منه ، « وابن الأعرابى يحدثنا بأن الرسول كان جالسا مع الصحابة فسألوه عن سحابة فأجابهم ، فقالوا : يا رسول الله ما أفصحك ، ما رأينا الذى هو أفصح منك !! فقال : وما يمنعنى ، وإنما أنزل القرآن بلسانى بلسان عربى مبين »(١) ويروى البلاغيون « أن الرسول سئل : فيم الجمال ؟ فقال : فى اللسان يريد البيان»(٢).

وأخذت عناية العرب بالأساليب والفصاحة والبلاغة تنمو بعد ظهور الإسلام. بدافع المداومة على قراءة القرآن ، والاستماع إلى أحاديث الرسول التى تجرى على كل لسان ، وقد عرف عن النبى ﷺ أنه كان يتخير ألفاظه ، ويعنى بذلك أشد العناية، فقد أثر عنه أنه كان يقول : «لا يقولن أحدكم خبثت نفسى ، ولكن لقست نفسى ؛ كراهة أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه »(٣).

ويروى لنا الجاحظ تلك القولة المشهورة التى جرت على لسان أبى بكر رضي الله عنه ودارت على ألسنة علماء البلاغة حتى جعلوا لها فصلا خاصا فى علم المعانى يسمى (الفصل والوصل) حين عرض لرجل معه ثوب فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه لا عافاك الله ، وظاهر اللفظ يوهم أنه دعاء على أبى بكر وليس دعاء له ، فتأذى أبو بكر لرهافة شعوره ، ودقة حسه ، فقال له : قل لا وعافاك الله »(٤) وعلم الرجل بذلك الأماكن التى يجب فيها وصل الكلام وفصله.

ونرى البلاغة عند علي بن أبى طالب رضي الله عنه فى الكشف عن المعنى ، وإيضاح

---

(١) مجالس ثعلب ٤٥٤
(٢) العمدة ١٦١
(٣) الحيوان ١/٣٣٥
(٤) الصناعتين ٥٢

الغامض ، وسهولة العبارة ، حين يقول « البلاغة إيضاح الملتبسات بأسهل ما يكون من العبارات »(١).

والصحابة أيضا كانوا على علم وافر بأسرار العربية ، ودقة إحساسها ، وروعة نطقها ، ولم تكن هذه الفصاحة مقصورة على الصحابة وحدهم ، بل كانت تشمل أنحاء الجزيرة العربية ، لأن العرب يشتركون فى اللغة واللسان ، وهم سواء فى المنطق والعبارة ، وإن كانت القبيلة تفضل أختها بشىء من الفصاحة ، والعربى يفوق صاحبه من جهة الطبع والذكاء ، وحدة القريحة والفطنة .

وإذا كانت البلاغة فى العصر الجاهلى تميل فى أغلب صورها نحو الإيجاز ، فهل كانت تسير على نفس النمط فى العصر الإسلامى فى تفضيل الإيجاز على غيره من صور الكلام ؟ إننا نصادف نصوصا غزيرة فى كتب السابقين توحى إلينا أن العرب فى صدر الإسلام كانوا يجعلون الإيجاز عماد بلاغتهم ، وركن فصاحتهم ، فالجاحظ يخبرنا بقول الرسول « نصرت بالصبا ، وأعطيت جوامع الكلم .. وهو القليل الجامع للكثير »(٢) ، وابن رشيق يسوق لنا قول الرسول فى بيان منزلة الإيجاز « نضر الله وجه رجل أوجز كلامه ، واقتصر على حاجته »(٣) .

وعمر بن عبد العزيز يكتب إلى عامله فى المدينة : أن دقق القلم ، وأوجز الكتاب ، فأنه أسرع للفهم ، وجرى بعض خلفاء بنى أمية على نهج عمر بن عبد العزيز فى الإيجاز .

ولكن الإيجاز كانت له مواضعه التى يؤثر فيها على غيره ، وأنه لا يستحب فى كل المواضع ، فبعض المواضع لا يحسن فيها إلا الإطناب ، وبعضها يستحب فيها إتيان اللفظ مساويا للمعنى ، وقد شاهدوا النبى ﷺ ، وخطبه الطوال فى المواسم الكبار ، فالمعانى إذا كثرت ، والوجوه إذا افتنّت ، كثر عدد اللفظ ، وإن حذفت فضوله بغاية الحذف(٤) ، فهم يوجزون تارة ، ويطنبون أخرى ، وفقا للظروف ،

(١) البيان والتبيين ١٤/١
(٢) البيان ٢٩/٤
(٣) العمدة ٢٤١/١
(٤) البيان ٢٨/٤

ومقتضيات الأحوال ، وكان من الخطباء من يطيل خطبته ، ومنهم من يوجزها ، ولا يرجعون فى ذلك إلى قاعدة غير المناسبات التى توجب الكلام فتقضى مرة بالإطناب ، وأخرى بالإيجاز .

والقرآن الكريم فى كثير من سوره يميل إلى الإطناب ، كما هو الشأن فى كثير من السور التى يميل فيها إلى الإيجاز ، ولو كان الإطناب مكروها عند العرب فى هذا العصر لما أتى به القرآن الكريم .

« وليس الايجاز بمحمود فى كل موضع ، ولا بمختار فى كل كتاب ، بل لكل مقام مقال ، ولو كان الإيجاز محمودا فى كل الأحوال لجرده الله تعالى فى القرآن الكريم – أى لجعله إيجازا كله – ولم يفعل الله ذلك ، ولكنه أطال تارة للتوكيد ، وحذف تارة للإيجاز ، وكرر تارة للإفهام »[1] .

ويضرب لنا ابن قتيبة بعض الأمثلة للمواقف التى لا يحسن فيها الإيجاز ، مثل التخصيص على حرب ، والصلح بين القبائل[2] .

فالإطناب فى العصر الإسلامى كان يسير جنبا إلى جنب مع الايجاز ، وبصورة أوضح مما كان عليه فى العصر الجاهلى .

وكما عرف العرب فى هذا العصر الايجاز والاطناب ، أحسوا أيضا بحاجتهم إلى أسلوب آخر بين الإيجاز والإطناب ، وهو ما سمى بعد ذلك بالمساواة ، فاستمعوا إلى المساواة فى القرآن ، وأعجبوا بها ، وإن لم يعرفوا اسمها ، ولكنهم لجأوا إلى هذا الأسلوب عملا بالحكمة القائلة : خير الأمور أوساطها .

ويبدو أيضا أن السجع كان اثيراً عند العرب فى هذا العصر ، وغلب على كلامهم ، والرسول ﷺ لم يستهجن السجع على إطلاقه ، فقد كان ينطق به وإنما يستهجن فقط الذى يتشبه فيه قائله بسجع الكهان ، والرسول ﷺ ينهى المتكلم عن هذا النوع ، لأنه يريد به إبطال الحقوق فيتشادق فى الكلام . « أما السجع الذى

(١) أدب الكاتب ١٥
(٢) المصدر السابق والصفحة

يأتى طائعا صفوا لا تكلف فيه ولا قصد ، بل لإقامة الوزن ، فلا عليه من بأس ، والرسول يقبله ويستحسنه ، وإلا فلو كان مذموما لما ورد فى القرآن الكريم ، فإنه قد أتى منه بالكثير حتى أنه ليؤتى بالسورة كلها مسجوعة كسورة الرحمن . وسورة القمر ، وغيرهما ، وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور » (١) .

أما ألوان البلاغة الأخرى التى دخلت فيما بعد ضمن علوم المعانى والبيان والبديع ، فلا شك أنها كانت مستعملة فى هذا العصر استعمالا مبسوطا فى غير إسراف ولا قصور ، ولكن فى مواضعها الجديرة بها ، الملائمة لها .

ومن المؤكد أن العرب فى الجاهلية والإسلام وأوائل العصر العباسى قد عرفوا كثيرا من ألوان البديع ، وضمنوه مواضع عديدة من شعرهم ونثرهم ، واستعملوه بوفرة يلاحظها الجاحظ عند المقارنة بين لغة العرب ولغة العجم ، وينبئنا عن ذلك قوله : « والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان » (٢) ، والدليل على ذلك أن القرآن قد استعمل هذه الألوان البديعية فى غير إفراط ولا تفريط ، ونحن نعلم أن القرآن قد جاء على طريقة العرب في كلامهم ، وما ساروا عليه فى أساليبهم. فهذه حقيقة بلاغية نلمسها فى العصر الإسلامى ، ولا ينبغى إنكارها أو تجاهلها .

وقد كثرت فى العصر الإسلامى الملاحظات البلاغية ، فقد كانوا يكرهون التكلف السمج ، والمتزيد الشنيع ، والإغراب فى اللفظ ، فالرسول ﷺ يقول : (إياى والتشادق) ويقول : « أبغضكم إلىَّ الثرثارون المتفيهقون » ويقول : « من بدا جفا »(٣).

كما كانوا يمقتون الإسهاب والتطويل ، لأنه يفضى إلى الملل والاستثقال ، فللكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، « وفرق بين الاطناب والاسهاب ، فالأول

(١) المثل السائر - ابن الأثير ١/٢٧١
(٢) البيان ٤/٥
(٣) البيان ١/١٣

صفة مدح فى البلاغة ، والآخر صفة قدح ، فالاطناب بلاغة ، والاسهاب عىّ ، لأن الاطناب كثرة العبارة بسبب كثرة المعانى ، والاسهاب كثرة العبارة عن المعنى الواحد أو المعانى القليلة ، والأول بعينه هو حد البلاغة » (١) .

وكانوا يعيبون أيضا الألفاظ التى تؤدى إلى لبس فى المعنى . كأن يكون اللفظ غامضا أو يؤدى إلى معنيين فأكثر ، حتى أن بعضهم عاب الأضداد فى اللغة- اللفظ الذى له معنيان متضادان - مثل كلمة (الجّون) التى تطلق على الاسود والأبيض ، و(الجلل) التى تطلق على الحقير والعظيم .

وهكذا كانوا يبدون ملاحظاتهم على الكلام ، وما فيه من حسن أو قبح يتصل بالبيان ، ويتوخون فى ذلك ما يتفق مع طبعهم وسليقتهم ، ويرومون أن يصلوا بهذه الملاحظات إلى الاستمرار فيما يستحسنون ، والانقطاع عما يستقبحون .

وتطورت هذه الملاحظات البلاغية ، والإشارات الفنية عند المشتغلين بالنقد والبلاغة ، وصبت جداول متعددة فى نهر البلاغة ، وتمثلت فى الطوائف المختلفة التى أسهمت بأوفر نصيب فى نشأة البلاغة وتطورها كطائفة النحويين ، واللغويين ، والمتكلمين ، والمفسرين ، والنقاد والكتاب ، والأصوليين ، والفقهاء ، والمناطقة .

وفى الحق أن نشاط النحويين واللغويين قد انحسر عن دراسات خصبة ، حيث كانوا يلاحظون ظواهر اللغة ، وتركيب الكلام ، وتأليف الجمل ، ويسجلون ملاحظاتهم الدقيقة عن كل ما يصادفونه بالاضافة إلى أنهم كانوا محافظين أشد المحافظة على المقاييس العربية الخالصة ، جاعلين نصب أعينهم شواهد القرآن ، وشعر الفحول من العرب الأقدمين كمثال يحتذى فى وضع القواعد العربية ، وعدم الاكتفاء بصحة العبارة ، أو خطئها ، بل تجاوزوا ذلك إلى ما يطرأ عليها من حسن أو قبح ، فعرضوا من خلال ذلك إلى مسائل دقيقة كان لها شأن فى تاريخ البلاغة العربية .

(١) التحرير والتحبير ابن أبى الأصبع ٤٩٠

وهكذا تطورت البلاغة من قرن إلى قرن ، وكل علم من الأعلام يسهم فى إرساء القواعد ، وإقامة الدعائم ، ورصد الأحجار فى البنيان حتى اكتمل وصار شاهقا على يد عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) ذلك العلم الفذ ، والإمام الأكبر، الذى بلورها وصاغها فى ثوبها الفنى الرائع .

ويمكن القول إن عبد القاهر الجرجانى يعتبر واضعا لعلم المعانى الذى أحاله المتأخرون إلى قوالب جامدة ، وقواعد جافة ، ينفر منها الطبع السليم.

وعلى نحو ما وضع عبد القاهر علم المعانى فى كتابه دلائل الإعجاز ، فإنه أيضا وضع بكتابه أسرار البلاغة علم البيان - رغم أنه قد سبق بكثير من مباحثه - لأنه درس الأسرار والدقائق التى تنطوى عليها الصور البيانية ، فحدد الأقسام والفروع ، وأفاض فى ذكر الأمثلة ، وتحليلها تحليلا نفسيا رائعا ، وهذه الأبواب التى طرقها عبد القاهر هى التى جمعت عند المتأخرين باسم علم البيان .

ويمكن القول أيضا ، إن واحدا من المتأخرين ليس بنجوة من سلطان عبد القاهر ، فكلهم عالة عليه ، يرشفون من نبعه ، ويستلهمون أفكاره دون أن يضيفوا إليها شيئاً ذا قيمة ، بل أنهم عملوا على تجفيف ماء البلاغة ، وتجريدها من ذوق عبد القاهر ، وغزارة شواهده . وأحالوها علما محددا محاطا بسياج من التعريفات، والتقسيمات ، والتأويلات ، حتى أصبحت بعيدة عن روح الفن ، ومتعة الأدب ، ولا نغالى إذا قلنا إن المتأخرين قد أفسدوا البلاغة إفسادا بما أضافوه إليها من تعقيدات فلسفية ، وأحكام أصولية ، وأقيسة منطقية ، ولم يعد للنص عندهم قيمة فى ذاته ، وإنما القيمة فى إثبات القاعدة ، وتعريف المسألة ، وتحديدها تحديدا دقيقا بإخراج المحترزات ، حتى يصبح التعريف - على حد قولهم - جامعا مانعا ، وبذلك انحرفت البلاغة عن مدارها الفنى إلى مدار آخر ، هو مدار المنطق والأصول والفلسفة ، ولو أنها بقيت كما كانت عليه فى عهد عبد القاهر فى سهولتها وعذوبتها وعمقها لأصبنا منها الخير الوفير ، ولكنها صارت أشبه بقواعد العلوم الأخرى ، كالنحو والتصريف فى جفافها وتقعيدها ، فنرى من يصنف فيها تارة متنا

وأخرى شرحا ، وثالثة حاشية ، وفى كل ذلك تقصر الفائدة ، إما لاستغلاق الكلام وإبهامه ، وإما لاستطراده وخروجه عن الهدف الأصيل من دراسة البلاغة .

**النقد فى العصر الإسلامى :**

نقصد بالعصر الإسلامى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين . وهى الفترة منذ بعثة الرسول ﷺ إلى سقوط الدولة الأموية ، وتولى الدولة العباسية الخلافة .

فى هذه الفترة كيف كان حال النقد ؟

سبق أن ذكرنا أن النقد فى العصر الجاهلى كان نقدا فطريا يعتمد على الحس والذوق ، دون إبداء الأسباب ، وما ورد منه معللا جاء فى جزئيات صغيرة لا يعتد بها ، حتى أن بعض المؤرخين للأدب يشك فى صحتها ، ويعتبرها منتحلة ، إذ أن العقلية فى ذلك العصر لم تكن عقلية علمية يمكنها أن تعلل أو تبرهن.

أما فى العصر الإسلامى فلدينا بعض النصوص التى تعبر عن مفهوم الشعر عند الرسول ﷺ ، وما يستحسنه وما يستقبحه من الشعر ، ومن البدهى أن الرسول كان صاحب دعوة دينية أخلاقية يكافح لانتشارها ، والأخذ بمبادئها ، ومن ثم فإن الميزان الذى يرتضيه فى الحكم على الشعر باستحسانه هو ما يتفق وهذه الدعوة الجديدة من الحق والخير ، وسلّ الضغائن بين القبائل ، ويبتعد كلية عن إحياء العصبيات ، وعبادة الأوثان ، فقد آثر عن الرسول أنه قال : « إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه »(1) ، وقوله : « إنما الشعر كلام ، فمن الكلام خبيث وطيب ».

فمقياس الشعر الحسن عند الرسول هو ما وافق الحق ، والشعر القبيح هو مالم يوافق الحق ، لأنه كذب ، ولا خير فيه ، فالصدق والكذب ، وليس الصياغة الفنية ، هو السبب فى جمال الشعر ، وما أراد الرسول بذلك إلا أن يبتعد بالشعر عن طريق الجاهلية ، ويتجه به نحو الروح الإسلامية ، ويفصح عنها ، وقد سئل الرسول ، فيم الجمال ؟ قال فى اللسان يريد البيان.

---

(1) العمدة ١/ ١٤

هذه هى الخطوة الأساسية التى خطاها النقد فى عهد الرسول ، وما عدا ذلك فقد كان النقد مماثلا لما كان عليه فى العصر الجاهلى من اعتماد على الذوق دون الفكر ، والفطرة دون الثقافة .

أما أبو بكر رضي الله عنه فقد كان « يقدم النابغة ويقول هو أحسنهم شعرا وأعذبهم بحرا وأبعدهم قعرا »(١) . فأبو بكر يفاضل بين الشعراء ، ويوازن بين أشعارهم ، ويقدم عليهم النابغة . والأساس الذى اعتمد عليه فى هذا التفاضل ، إن ألفاظ شعره عذبة يستقيها من معين سائغ فتتقلبها النفوس ، ومعانيه بعيدة الأغوار فيعجب بها ، ويتأثر لها من يسمعها .

وعمر رضي الله عنه يضع أمام عينيه مقياس الرسول . والدعوة الإسلامية الجديدة فى التعبير بالصدق والخير والبعد عن الكذب والشر .

فشعر المناقضات والمفاخرات ، والهجاء ، والغزل الاباحى ، وكل ما يذكر المسلمين بروح الجاهلية والحنين إليها كان ينكره عمر . ولكنه كان يضيف إلى ذلك نقدات فنية تبرز ما فى النص من جمال فنى فى التركيب ، وصياغة حسنة فى الأسلوب ، فعمر إذا كان يجمع بين القيم الدينية ، والقيم الفنية فى الحكم على الشعر ، فقد روى عن ابن عباس قوله : « خرجت مع عمر فى أول غزوة غزاها ، فقال لى ذات ليلة : يا ابن عباس ، أنشدنى لشاعر الشعراء ، فقلت : ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال : ابن أبى سلمى ، قلت : وبم صار كذلك ؟ قال : لأنه لا يتتبع حوشى الكلام ، ولا يعاظل فى المنطق ، ولا يقول إلا ما يعرف ، ولا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه »(٢) .

فما هى الاعتبارات الفنية التى جعلت زهيرا فى نظر عمر هو شاعر الشعراء؟

---

(١) العمدة ١/٧٨

(٢) الأغانى للأصفهانى ١٠/٢٩٠ دار الكتب.

لاشك أن بعضها يعود إلى الألفاظ ، وبعضها الآخر يعود إلى المعانى ، فما يعود إلى الألفاظ قوله : لا يتتبع حوشى الكلام. ولا يعاظل فى المنطق ، والكلام الحوشى : هو الكلام الغريب الذى لا يتردد كثيرا على ألسنة العرب ، حتى تقادم عهده ، ولم يفطن السامع لمعناه ، والغريب إذا ورد فى الكلام أخل بفصاحته ، والمعاظلة هى إدخال الكلام بعضه فى بعض وإركاب بعض الألفاظ بعضها الآخر ، مما يسلم إلى التعقيد اللفظى والمعنوى ، وهذا أيضا يخل بفصاحة الكلام .

والغرابة والتعقيد التفت إليهما رجال البلاغة ، وعدوهما مما يخل بفصاحة الكلام ، وبمقدار خلو الكلام من هذين العنصرين تقرب درجته من الفصاحة .

ومعنى ذلك أن عمر كان يعجب بزهير ، ويعتبره شاعر الشعراء ، لأنه يجتهد فى اختيار ألفاظه ، وانتقائها من الألفاظ المستعملة الجارية على الألسن ، فتسيغها الآذان لشدة الصلة بها ، وعدم النفور منها ، كما يعتد عمر بسهولة التراكيب وبساطتها.

هذا من جهة اللفظ ، أما من جهة المعنى فتلمح فى قوله عن زهير « إنه لا يقول إلا ما يعرف ، ولا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه » ، نلمح عنصر الصدق ، واعتباره مقياسا للحكم ، وأصلا من أصول النقد ، إذ لا يصح أن يجنح الشعر إلى الهوى ، أو يميل إلى التملق ، وإنما يجب أن يكون وسيلة من وسائل التهذيب الخلقى، والرقى النفسى ، وفى ذلك يتأسى عمر برأى الرسول عليه ﷺ فى استحسانه الصدق فى الشعر ، وذمه الكذب فيه ، فهذا خبيث ، وذاك طيب ، وما وافق الحق فهو خير ، وما لم يوافق الحق لا خير فيه .

وعثمان بن عفان رضي الله عنه يعجب بشعر زهير عندما استمع إلى قوله :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة    وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فقال أحسن زهير وصدق ، ثم ردد قول الرسول : لا تعمل عملا تكره أن يتحدث عنك به [1] ، فسبب إعجاب عثمان بقول زهير . هو انطباق معناه مع الواقع

(١) الأغانى ٣١٢/٩

فالأمور مهما خفيت ، وطال خفاؤها ، لابد يوما أن تتكشف ، ويظهر أمرها ، هذه الحقيقة . وهذا الصدق ، هو سبب استحسان عثمان لزهير ، لأن الفكرة الراسخة فى أذهان المسلمين والخلفاء وقتئذ ، هى البعد قدر الإمكان عن كل ما يمت إلى القيم الجاهلية بصلة ، والحرص كل الحرص على تعاليم الإسلام التى تدعو إلى الأخلاق الفاضلة. والصدق فى الأقوال والأعمال .

ويحكى عن على بن أبى طالب رضي الله عنه أنه قال : « لو أن الشعراء المتقدمين ضمهم لواء واحد ، ونصبت لهم راية ، فجروا معا ، علمنا من السابق منهم ، وإذا لم يكن ، فالذى لم يقل لرغبة ولا لرهبة ، فقيل : ومن هو ؟ فقال : الكندى ، قيل : ولم؟ قال : لأنى رأيتهم أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة »(1).

فمقياس الحكم هو الموازنة بين الشعراء لمعرفة السابق منهم ، وقد كانت الموازنة فيما بعد أساسا للنقد ، ومنهجا سار عليه بعض النقاد للحكم بين الشعراء، والشاعر الذى لا يقرض الشعر لرغبة ولا رهبة هو الشاعر المفضل عند علىّ ، فإذا كان الدافع إلى قرض الشعر هو الرغبة ، فلا مفر إذا من الانزلاق إلى الكذب والمبالغة ، وإبراز صفات ترفع من شأن الممدوح وإن لم تكن فيه ، لأن الغرض هو الحصول على نواله ، والتكسب بشعره ، دون اعتبار لشىء آخر . كذلك إذا كان الدافع هو الرهبة ، فلا مفر من الجنوح إلى الكذب درءا للخطر ، وإيثارا للعافية . وقوله فى تفضيله امرىء القيس عن سواه من الشعراء « إنه أحسنهم نادرة » أى أحسنهم التقاطا لجواهر المعانى ، « وأحسنهم بادرة » ، يعنى أنه أسرعهم بديهة وابتكارا فى أساليب الشعر .

ويتضح من ذلك أن مقياس الحكم عند على يجمع بين أمرين : الأول : ما يتصل بالناحية الأخلاقية حين اشترط فى الشاعر أن يقول دون رغبة أو رهبة ، متأسيا فى ذلك بالرسول ﷺ . والأمر الثانى ما يتصل بالناحية الفنية التى تتكشف فى ندرة المعنى. وابتكار الخيال في الأسلوب .

---

(1) العمدة ٢٧/١

هذه صورة موجزة لما كان عليه النقد فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، الذين امتازوا بالفصاحة والبلاغة ، وأعطوا الشعر والحياة الأدبية اهتماما خاصا ، فقد كانوا جميعا يتذوقون الشعر ، ويتمتعون به ، ويحثون على قرضه ، مراعين أن يكون متفقا مع الروح الإسلامية ، مخالفا للتقاليد الجاهلية ، فما وافق الحق فهو الشعر الجيد ، وما خالفه فهو الشعر الردىء .

« وليس عجيبا أن كثيرا من الإعجاب ينصرف فى عصر البعثة والخلفاء الراشدين ، إلى الشعر الخلقى ، إلى شعر الفضائل وحواشيه ، وانارت معانيه ، وأعرب عن حاجته» (١).

ولا شك أن النقد فى عهد الخلفاء قد تطور تطورا يسيرا ظهر فى هذه التعليلات النقدية البسيطة ، كما رأينا فى تناولنا لعمر رضي الله عنه ، إذا استثنينا هذه اللفتات اليسيرة ، فإن النقد فى هذا العصر لم يختلف اختلافا كبيرا عما كان عليه فى العصر الجاهلى .

ثم نشط النقد فى العصر الأموى نشاطا ملحوظا لم يكن له نظير فى العصر الجاهلى ، وعصر الخلفاء الراشدين ، وأصبح النقد اتجاها عاما على جميع المستويات رجالا ونساء ، ولعل من لمع اسمه فى ذلك العصر ابن أبى عتيق ، والسيدة سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب ، ومن ثم أخذ النقد يتطور تطورا سريعا، حتى أننا نعد ما سبقه من نقد لم يكن إلا نواة لهذا النقد الذى شاع فى العصر الأموى ، فالشعراء ينقد بعضهم بعضا فى ألفاظهم ومعانيهم ، وفى أساليبهم وأغراضهم ، فى عواطفهم وانفعالاتهم ، فيما سبقوا به ، وفيما أخذ الشعراء بعضهم من بعض وفيما ابتكروه ، حتى أن الاتجاه الدينى الذى كان سائدا فى النقد فى عصر الخلفاء قد تحول إلى حب للاباحية ، وتفضيلا لها كاستحسان شعر ابن أبى ربيعة فى الغزل الاباحى ، فابن أبى عنيق الناقد يذكر « أن لشعر عمر بن أبى ربيعة نوطة فى القلب ، وعلوقا بالنفس ، ودركا للحاجة ، ليست لشعر ، وما

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب طه إبراهيم ٣٣

عصى الله عزوجل بشعر أكثر مما عصى بشعر ابن أبى ربيعة ، ثم يقول : أشعر قريش من دق معناه ولطف مدخله وسهل مخرجه ومتُن حشوه ، وتعطفت حواشيه ، وأنارت معانيه، وأعرب عن حاجته » (١).

ففى هذا النص يتجلى الاتجاه نحو العواطف والمشاعر ، والاباحة التى تغضب الله ، ثم التعرض للألفاظ والمعانى ، فالعاطفة تلعب دورها فى جمال الشعر وقيمته، والاباحة توحى بالتحول عن مقياس النقد الدينى الذى كان متبعا فى عهد الخلفاء إلى مقياس جديد يحب المجون والخلاعة ؛ ويطرب لهما ، لأن حياة الترف قد غلبت على المجتمع الحجازى فى ذلك العصر ، والفسوق يجهر به الشعراء ، ويستحسنه النقاد ، ويكون عاملا للتفاضل بين شاعر وآخر .

والألفاظ الجزلة ، والمعانى الدقيقة ، وإصابتها الغرض ، وسهولة المدخل ، والانتقال من غرض إلى آخر ، والعناية بالبداية والخاتمة ، كل ذلك تناوله النقاد فى هذا العصر ، وتحدثوا عنه ، ومع ما فطن إليه النقاد فى هذا العصر من عناصر الجمال والقبح ، والقوة والضعف ، فقد ظل الذوق العربى الخالص هو المسيطر على نظرتهم فى تناول الشعر ، وإبداء الرأى فيه .

ونحب أن ننبه الأذهان إلى أن الحياة الإسلامية ، والاختلاط بالأجانب فى ذلك الوقت قد ساعد على خلق طائفتين جديدتين فى النقد هما طائفة النحاة واللغويين من أمثال عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، وقد سلكت هاتان الطائفتان سبلا جديدة فى النقد ، وعرفت لهما مقاييس نمت وتشعبت على مر الأزمان.

« فالنقد فى هذا العهد قد اتسع أفقه ، وتنوعت رجاله ، وجنح إلى شىء من الدقة ، وتحديد بعض خصائص الصياغة والمعانى (٢)».

ونستطيع أن نقول إن النقد فى العصر الإسلامى « قد تناول ركنين مهمين من أركان النقد الأدبى هما : المعانى التى اصطبغت بالصبغة الإسلامية ، ثم الألفاظ

(١) الأغانى ١/٨٤
(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب طه ابراهيم ٣٣

والأساليب التى استجيد منها ما كان سمحا مطبوعا ، واستكره ما كان منها متكلفا أو كان غريبا حوشيا» ... وإن النقد فى هذا العصر كان يغلب عليه الرأى الذاتى ، والميل إلى التعميم فى الأحكام ، مع لفتات تمس جوهر الفن الأدبى ، وتتناول أهم أركانه (١) ».

**الكتابة فى العصر الإسلامى :**

لم يكن للكتابة الفنية فى العصر الجاهلى وجود كما ذكرنا من قبل ، وإنما يعتبر العصر الإسلامى هو عصر نشأة الكتابة الفنية ، فالقرآن يذكر الكتابة فى مواضع متعددة بالتعظيم والإجلال ، ويحث العرب على الكتابة ، وتدوين ديونهم ومعاملاتهم ، والرسول ﷺ يشترط لإطلاق سراح أسرى بدر تعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة لكل أسير ، والمراسلات الداخلية والخارجية بين الرسول ورؤساء الدول الأخرى ، أو بينه وبين قواده وأمرائه ، أو بينه وبين كبار المشركين .

وحين نتحدث عن الكتابة فى العصر الإسلامى ، فإننا ننحى جانب القرآن الكريم ، فلا شك أنه كتابة فنية خالصة ذات مستوى رفيع. إلا أن القرآن وحى من عند الله ، فهو نوع من الكتابة فريد لا يتصل بما قبله ، ولا يتصل بما بعده ، حتى قال الوليد بن المغيرة « ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن » فهو لم يتصل بما قبله ، لأننا لم نجد ما يقاربه فنا وجمالا فى العصر الجاهلى ، ولا يتصل بما بعده ، لأنه نوع فريد لم يفكر المسلمون فى تقليده أو محاكاته مما دعا الدكتور طه حسين أن يقول « إن القرآن ليس نثرا ، كما أنه ليس شعرا ، وإنما هو قرآن ، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم ، لأنه مقيد بقيود خاصة لا تتوافر فى غيره » (٢).

وحين نتحدث عن الكتابة فى العصر الإسلامى ، إنما نتحدث عن الرسائل وكتابتها فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين التى كانت تتسم بالبساطة واليسر ،

---

(١) دراسات فى نقد الأدب العربى د. بدوى طبانه ١١٠ - ١١ ط٤

(٢) من حديث الشعر والنثر د. طه حسين ٣١

واللغة السهلة التى لا أثر فيها للتكلف والصنعة ، وليس فيها الأناة وطول النظر ، وإنما يكتبون ما تمليه خواطرهم دون مراجعة أوتنقيح ، وبذلك لم ترتفع الكتابة عن لغة الحديث الجارى ، ولم ترتفع إلى المستوى الفنى الذى نرمى إليه إذ أريد لها مجرد الإفهام والتبليغ ، دون التأثير ، وإن كنا نرى فيها شيئا من الأطناب بدل الإيجاز ، والاقتباس من القرآن ، والاستشهاد بالشعر ، والميل إلى التشخيص ، وما إلى ذلك من التجمل الطبيعى الذى لا يبلغ حدّ الصنعة ، إذاً فالكتابة فى ذلك العصر لم تكن فنية بالمعنى المصطلح عليه ، ولكنها كانت تسير نحو الفن بخطا حثيثة »(١).

أما الكتابة فى العصر الأموى فقد جنحت إلى التحسين والتزيين ، والتشبع بالصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية دون تكلف أو تعمّل ، وإنما مالت إلى هذه الصور ، وتلك الزخارف ، لسلامة طبعهم ، وصفاء أذواقهم ، كما كان لتأثيرهم بالثقافة الأجنبية أثر كبير فى وضع القواعد الفنية للكتابة ، والأخذ بيدها نحو الصورة الفنية الرائعة . وأصبح « الأصل فى الكتابة كالأصل فى الشعر تخير اللفظ الفصيح الرصين الجزل ، للمعنى الصحيح المصيب ، والملاءمة بين اللفظ واللفظ، وبين المعنى والمعنى ، فى كل ما يكوّن هذا الانسجام الخاص الذى يستقيم له الشعر والنثر فى لغتنا العربية الفصحى ، مع الحرص كل الحرص على الإعراب ، والإيثار كل الإيثار للألفاظ الصحيحة التى تقرها معاجم اللغة المعروفة وحدها»(٢).

---

(١) نشأة الكتابة الفنية انظر ٣١ ، ٣٢ ، ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) ألوان د. طه حسين ١٦

# مقدمة لدراسة البلاغة

ويشمل :

١ - النقد والبلاغة .

٢- الأسلوب العلمى والأسلوب الأدبى .

٣- اللفظ والمعنى .

٤ - الفصاحة والبلاغة .

# النقد والبلاغة

الأدب هو الأسلوب الذى يعبر به الكاتب عن المعانى والخلجات التى تتفاعل فى نفسه ، ويدفعه شعوره للتعبير عن هذه المعانى والخلجات فيبرزها فى أجمل عبارة ، وأدق تركيب .

والناقد هو الرجل الذى لديه المقدرة على التمييز بين الجيد والقبيح من الكلام ، معتمدا فى ذلك على موهبته الفنية ، وإحساسه الدقيق ، وخبرته الطويلة فى دراسة النصوص ، والآثار الأدبية ، فهو الرجل الذى يعتمد على ركنين أساسيين: الموهبة والدراسة . فالموهبة فطرية خلقها الله فى الإنسان ، وتصقل بالممارسة ، وطول الإطلاع على آثار الكتاب والشعراء ، فإذا أراد القارئ ممارسة عملية النقد ، عليه أن يتذوق القطعة الأدبية ثم يعقبها بالتفسير والتحليل للعناصر التى أثارت فيه حاسة التذوق فى العمل الفنى ، فتذوق النص الأدبى ، والانفعال به ، والتفاعل معه أولا . ثم التعرف عليه ، والغوص إلى أعماقه ، وبيان أسراره ثانيا .

والنقد هو العمل الذى يقوم به الناقد حين يتناول النص الأدبى متضمنا مشاعره ، ومعارفه ، وتجاربه ، ليبرز جماله ويشيد به ، أو يظهر قبحه ويحذر منه.

والبلاغة هى فن القول ، واشتماله على درجة من التحسين والتجويد .

البلاغة هى التعبير الصادق عن الإحساس الصادق .

البلاغة هى التأثير فى فؤاد السامع أو القارىء ، وإثارة انفعاله ، وإحساسه بالمتعة .

البلاغة ليست فى إفهام المعنى وحده ، فقد يفهمك المعنى من لا يتصف بأنه بليغ ، ولكن البلاغة « إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ»[١].

(١) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن الرمانى ٦٩

والكلام البليغ « هو الواضح المعنى ، الفصيح العبارة ، الملائم للموضع الذى يطلق فيه والأشخاص الذين يخاطبون به [١] ».

والرجل البليغ « هو من لديه الموهبة والمقدرة على صياغة الكلام البليغ [٢]»

البلاغة تهدف إلى إرشاد الأديب إلى كتابة نص جيد خالٍ من العيوب والأخطاء .

البلاغة تعرف بواسطتها « دقائق العربية وأسرارها ، ونكشف بها عن وجوه الإعجاز فى نظم القرآن [٣] ».

فالنقد والبلاغة موضوعهما واحد ، وغايتهما واحدة : موضوعهما النص الأدبى فى أى صورة من الصور نثرا أو شعرا ، وغايتهما إتباع خطوات معينة فى إنشاء النص الأدبى ، حتى يمكن الحكم عليه بالجودة والبراعة .

من أجل ذلك ظل النقد والبلاغة متلازمين ، بل ممتزجين فى العصور الأولى للتاريخ الأدبى [٤] ففى القرن الثانى للهجرة ظهرت محاولات التجديد ، وإدخال الصنعة فى أساليب الشعراء ، وطغى فن البديع على من أسموهم بالمحدثين من أمثال بشار ومسلم وأبى تمام .

وفى القرن الثالث الهجرى ظهر الامتزاج شديدا بين الثقافات الأجنبية والعربية ، مما أكسب العقول خصوبة وعمقا ، وبدا أثره على الأدباء والنقاد فى أساليبهم ونظرتهم إلى الجمال الفنى ، والإصابة فى التعبير ، وزاد نشاط العلماء فى هذه الفترة ، وأدلى كل من اللغويين والنحويين والمتكلمين بدلوهم فى بيان أسرار الجمال. ووجوه الحسن فى الكلام ، فتشعبت مذاهبهم فى النقد ، واختلفت اتجاهاتهم وآراؤهم وأمزجتهم ، فنرى المبرد (ت ٢٨٥ هـ) يتجه اتجاها عربيا خالصا فى كتابه الكامل ، ويتناول فى نقده كثيرا من الموضوعات البلاغية ، وأبدى

(١) شرح التلخيص فى علوم البلاغة للقزوينى شرح محمد هاشم دويدرى ص١٤ ط دمشق.
(٢) شرح التلخيص فى علوم البلاغة للقزوينى شرح محمد هاشم دويدرى ص١٥ ط دمشق .
(٣) شرح المختصر التفتازانى ٨/١ ط المحمودية التجارية .
(٤) البلاغة العربية فى دور نشأتها د. سيد نوفل ١٣ النهضة المصرية .

عناية خاصة بالتشبيهات على اختلاف ألوانها. كما نرى ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) يؤلف كتابا يجمع فيه ألوانا من البديع ليدلل على أن العرب عرفوا هذا الفن منذ القدم .

والجاحظ (٢٥٥ هـ) كان يمزج بين الثقافة العربية الخالصة . والثقافات الأجنبية الأخرى ، ويتأثر بذلك فكره وأسلوبه ، ونراه يستعين بآراء الأمم الأخرى فيما يتناول من موضوعات ، ويوضح فى كتبه ، وخاصة (البيان والتبيين) فصاحة الكلمة ، وعيوبها ، وعلاقة اللفظ بالمعنى ، وأساليب البيان ، وما يجب أن يكون عليه الخطيب فى الهيئة والقول ، حتى يؤثر فى السامعين ، وما يعرض للكلام من إيجاز وإطناب على حسب الظروف ، ومقتضيات الأحوال ، نرى كل ذلك فى ثنايا كتبه دون أن يفرد أبوابا للبلاغة ، وإنما يعرضها فى ثنايا حديثه حين يتناول الموضوعات المختلفة .

وقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) يعالج موضوعات الأدب على أسس فلسفية متأثرا بأرسطو ويجعل الشعر صناعة تشمل ألوانا من البديع ، وضمن كتابه نقد الشعر بعض الموضوعات البلاغية مثل التشبيه والتمثيل والارداف ، والالتفات والمبالغة .

ففى القرن الثالث إذا ظلت البلاغة داخلة فى نطاق النقد دون إبداء محاولة لفصل أحدهما عن الآخر .

وفى القرن الرابع وصل النقد الأدبى إلى ذروته. وظهرت مؤلفات مزجت بين النقد والبلاغة ، وتناولت المعارك التى دارت حول الشعراء ، ووازنت بين أشعارهم لتبرز خصائص كل شاعر ، وما يتميز فيه عن غيره ، وأشهر هذه الكتب الموازنة للآمدى (ت ٣٧٠ هـ) والوساطة للقاضى الجرجانى (ت ٣٦٦ هـ) واستعانتهم بالمقاييس البلاغية من تشبيهات واستعارات لبيان الجودة والنقص. فالتشبيه منه المصيب والمخطئ ، والاستعارة منها القريب والبعيد . منها ما هو صادق فى دلالته على الإيحاء ، ومنها ما هو متكلف لم يرد به سوى الصنعة السمجة وغير ذلك من الأساليب البيانية التى تعين الناقد على تأييد فكرته ، وإحساسه فى تفضيل الشاعر على غيره .

ثم الدراسات القرآنية التى ظهرت لإبراز إعجاز القرآن . وأسباب هذا الإعجاز ، من حيث اللفظ والمعنى ، وتضمن الحديث الصور البيانية ، والألوان البديعية ، مما نهض بالنقد ، وفتح الباب لعدد من العلماء لوضع كثير من المصطلحات البلاغية ، ومقاييس للنقد الأدبى ، ومن أشهر العلماء الباقلاّنى (ت ٤٠٣ هـ) الذى وضع كتابه (إعجاز القرآن) والرمانى (ت ٣٨٦ هـ) الذى ألف كتابه (النكت في إعجاز القرآن) . وقد تحدث الأول عن كثير من ألوان البديع ، بينما أخذ الثانى فى إبراز الحالة النفسية للصورة الأدبية ؛ وهكذا عاش النقد والبلاغة مختلطين من أقدم عصورهما ، ويسيران جنبا إلى جنب ، إلى أن جاء أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ) ففصل بين البلاغة والنقد ، وجعل البلاغة علْما مستقلا ، وفنا آخر لا يتصل بالنقد « فأبو هلال العسكرى هو فيما نحسب نقطة البدء فى فساد الذوق ، كما هو بدء تحول النقد إلى بلاغة ، حتى لنراه يعدّد خمسة وثلاثين نوعا منْ أنواع البديع ، ويفخر بأنه أضاف ستة أنواع جديدة إلى ما كان معروفا من تلك الأنواع. وأبو هلال وإن يكن قد أخذ عن النقاد بعض آرائهم ، فإن روحه ومنهجه هما روح البلاغيين ومنهجهم ... إذن فكتاب الصناعتين هو نقطة تحول النقد إلى بلاغة ، وفى طريقة تأليف هذا الكتاب وموضوعاته ، فضلا عن روحه ومنهجه ، أوضح دليل على ذلك[1] » والعسكرى نفسه يقرر ذلك ويعترف صراحة بأنه وضع كتابه الصناعتين ليبين حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفصاحة ، لأنها لم تكن قد اتضحت عند غيره من العلماء السابقين . يقول فى مقدمة الكتاب « فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام ... ووجدت الحاجة إلى هذا العلم ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان أكبرها وأشهرها كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ وهو لعمرى كثير الفوائد ، جم المنافع ، ... إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه، ومنتشرة فى أثنائه ، فهى ضالةٌ بين الأمثلة ، لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير ، فرأيت أعمل كتابى هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه فى صنعة الكلام : نثره ونظمه [2] ».

---

(١) النقد المنهجى د. مندور ص ٢٢٣ ، ٣٢٤

(٢) الصناعتين : العسكرى ص ٤ ، ٥ من المقدمة .

ومن كلامه يتأكد لدينا أنه أراد بوضع كتابه الصناعتين أن نعرف البلاغة وحدودها ، والفصاحة وأقسامها ، والبيان وألوانه ، وهى تلك الطريقة التقريرية التى افتقدها عند الجاحظ وغيره ، ولم نلمسها نحن عند النقاد السابقين الذين يعالجون صناعة الكلام ، إلا إذا استثنينا قدامة بن جعفر الذى يعتبر العسكرى امتداداً لطريقته التقريرية .

غير أن كثيرا من الباحثين لم يروا هذا الرأى ، وينزهون العسكرى عن الفصل بين النقد والبلاغة ، ويرون أنه قد مزج بينهما ، فالأستاذ الشايب « يجد العلمين مختلطين ولا سيما عند الجاحظ والعسكرى ، فإن هذا الأخير يجعلهما شيئا واحدا»[1] .

ويردد هذا القول أيضا الأستاذ خلف الله « ويتمثل فى القرن الرابع امتزاج البحوث البلاغية التى بدأها قدامة ، وابن المعتز ، والبحوث القائمة على الذوق الأدبى فى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى [2] » . وهو أيضا ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور الخولى « والفصل الذى عقده أبو هلال فى قبح التشبيه بدا فيه أبو هلال الناقد وأدنى البلاغة من النقد ، وخلط البلاغة بالنقد ، مما عاد على البلاغة بالنمو والحياة [3] ».

وأخذت البلاغة في نمو وإطراد ، والعلماء ينسجون على هذا المنوال ، حتى رأينا عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) فى كتابيه الخطرين : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة يقيم أسس البلاغة واضحة ، متميزة المعالم ، محدودة الصفات ، وقد عالجها معالجة أدبية صرفة ، لم تخل من خصائص النقد ، وفضائل الذوق ، وأقام نظريته العظيمة فى النظم على أسس من تركيب الكلام وتأليف النحو ، إلى أن جاء السكاكى (ت ٢٢٦ هـ) فصارت البلاغة على يديه قواعد صرفة ، وتعريفات

(١) أصول النقد الأدبى الشايب ٥١ ، تاريخ النقد العربى د. سلام ١٥/١

(٢) الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده . محمد خلف الله ١٤٥ ، ١٤٦ ط٢

(٣) صور من تطور البيان العربى د. كامل الخولى ٨٩.

محددة ، وأقساما متباينة ، وتعريفات كثيرة ، واتسمت بالجفاف العلمى الذى خلا من أية لمسة فنية .

وبعد هذا العرض السريع الذى رأينا فيه كيف اختلطت البلاغة بالنقد ، وأفادت الملاحظات النقدية فى وضع كثير من القواعد البلاغية ، ثم انفصلت عنه بعد جهد كبير على يد العسكرى ، أخذ الباحثون يحددون الفروق بين النقد والبلاغة، وحاولوا أن يفصلوا بينهما بتعريفات متكلفة لا تعنى شيئا عن مزج أحدهما بالآخر فى الحقيقة.

قالوا « إن البلاغة تعنى بالشكل وصورة الكلام ، وما فيه من نظم العبارة ، وتأليف اللفظ ، وتركيب الجمل ، ومظاهر الأسلوب ، ولا علاقة لها بالمعنى.

أما النقد فيتعلق بما وراء الشكل ، ويعنى بمنابع الأسلوب من فكر وعاطفة وخيال ولا يتعلق بالشكل (١).

أو « أن البلاغة تعنى بالأسلوب ، والنقد يعنى بالمعانى والأساليب ، أى من حيث صحة المعنى ، وأثره فى النفس ، والأسلوب حيث الوضوح والجمال » (٢).

أو « أن البلاغة علم تعليمى فيه التأثير والتعليم ، والنقد علم وصفى يتمكن به من التمييز بين الحسن والقبيح » (٣).

وهذه التعريفات التى وضعها العلماء كحد فاصل بين النقد والبلاغة تؤكد لنا شدة اتصال العلمين ، وليس انفصالهما ، وما هى إلا حدود مصطنعة، بدليل أن النقاد والعلماء كانوا يستخدمون النقد والبلاغة خير استخدام ، ويمزجون بينهما كل المزج حتى أوشك القرن الرابع على الانتهاء - أى قبل أن يعرف انفصال العلمين - وكانوا لا ينظرون فى شعر أو نثر إلا باستخدام النقد والبلاغة كشىء واحد ، وليس كشيئين منفصلين ، وحبذا لو طرحنا هذا الفصل الممقوت وراء الظهور ، وعدنا

(١) النقد الأدبى أحمد أمين ١١

(٢) الأسلوب الشايب ١٥

(٣) تاريخ النقد العربى د. سلام ١٥/١

إلى هذا المزج بين البلاغة والنقد ، كما كان عليه الحال فى عهود البلاغة الزاهرة.

وليس هذا زعما انفرد به ، فهناك من الباحثين المحدثين من يؤيد هذا الزعم فى تداخل البلاغة والنقد بقوله : « ولم يقف النقد خارج البلاغة ، بل ربما ذهب بعض المؤلفين إلى أن الأدباء لم يفرقوا بين علوم البلاغة وبين النقد ، ويتضح هذا فى كتبهم التى سميت باسم النقد ، وبحثت فى أبواب البيان كنقد الشعر والعمدة ، ذلك أن أبواب البيان هذه هى بعينها عناصر الصنعة كالتشبيه والاستعارة وغيرهما ، فإذا كان الأدب صناعة ، فإن البيان تفصيل لعناصر هذه الصناعة ، والنقد كشف لهذه العناصر فى العمل الأدبى والحكم عليه بحسبها.

هذا الاختلاط فى الواقع هو ما يحير الباحث فى النقد الأدبى، فلا يستطيع أن يفصل بين ميدان النقد وميدان البلاغة لشدة تداخلهما ، بل أكثر من هذا فإن ما سمى البديع لم يكن أكثر من عناصر أدبية تتحلى بها صناعة الأدب فهى قائمة منذ وجدت تلك الصناعة ، أى منذ وجدت مدرسة زهير فى العصر الجاهلى [1].

---

(١) الأسس الجمالية فى النقد العربى ١٥١ د. عز الدين اسماعيل دار الفكر العربى.

## الأسلوب العلمى والأدبى

الأدب فن من الفنون يقصد به الإمتاع اللذيذ ، والتأثير العميق ، وهو يعبر عن تجربة خاصة وقعت للأديب ، وشعر بها شعورا معينا ، وأراد أن ينقلها إلى الآخرين ، فيعرض معانيه بطريقة خاصة ، ويعبر عنها باختيار الألفاظ ، ومختلف الصور ، وشتى الخيالات ، ومن يلجأ إلى هذا الأسلوب يسمى أديبا ، فالأدب فن وتعبير ، ولكل أديب طريقته الخاصة فى إخراج المعانى التى تتفاعل فى صدره.

والأدب بهذا المعنى ، وبهذه الكيفية فى التعبير يختلف عن غيره من الأشياء التى يعبر عنها بطريقة مجردة لم تأت فيها الألفاظ إلا لأداء المعنى ، والوصول إلى الغرض ، وليس بنفسية الكاتب علاقة بالموضوع ، فمشاعره الخاصة ، وانفعالاته الحادة لا يضمنها التعبير عن معانيه ، وإنما يجب أن ينحيها جانبا . فلا يستعين بالألفاظ الموحية ، ولا بالصور البيانية ، ولا بالخيالات الواسعة ، ومن يسلك هذا السبيل يسمى عالما أو صحفيا ، ولا يمكن أن نسميه أديبا بحال من الأحوال .

فإذا نظر اثنان ، أى اثنين إلى موضوع معين ، ترى كلا منهما يتحدث عنه بطريقة تختلف ، ووجهة نظر لا تتفق ، وكأنهما يتحدثان عن شيئين مختلفين ، لأن كلا منهما قد تأثر بالموضوع تأثرا خاصا ، وتلون بنفسه ، واصطبغ بشخصه ، فصارت له مسحة معينة ، فعبر عنه بطريقة مباينة لطريقة الآخر.

وإذا تناول رجلان أحدهما أديب والآخر صحفى ، حادثا وقع ، يرى الصحفى فى هذه الواقعة مجرد حادث وقع ، فيصفه كما حدث : أسبابه ، وتطوراته ، ونتائجه.

وكذلك العالم لا يرى فيما يرى إلى الأسباب ، والتطورات ، والنتائج.

أما الأديب فيفصح عن أثر الحادث فى نفسه ، وشعوره نحو المصاب ، فإذا الحادث قد اتخذ صورة أخرى ، وأصبح له وجه آخر ، لم يكن باديا لعين الصحفى ، أو العالم ، فالأديب هنا لا يكتب تقريرا يرفعه للمسئولين أو يبصر به الرأى العام ، وإنما هو ينقل العواطف والمشاعر ، الأديب لا يكتب الحوادث أو الوقائع ، وإنما يعبر عن مشاعره الصادقة ، وأحاسيسه الدقيقة ، فالأديب لا تهمه الوقائع ولا الحقائق ، ولا القوانين ، وإنما تهمه ذات نفسه ، ومشاعره ، وخيالاته ، وانفعالاته.

الأديب ينساق وراء الخيال ، ولا يعتد بالواقع ، ولا يعرف الدليل أو البرهان.

والعالم لا يعرف الخيال ، وإنما يتمسك بالواقع ، ويجرى وراء الدليل والبرهان.

الأدب يضعف فيه العقل والمنطق ، والعلم يحكمه العقل والمنطق .

وإذا كانت الفروق واضحة بين الأدب والعلم ، فبالتالى لابد أن يكون ثمة فرق بين الأسلوب الأدبى والعلمى ، والعبارة التى تؤدى معنى ادبيا ، والعبارة التى تؤدى معنى علميا .

الأسلوب العلمى عباراته واضحة محددة دقيقة.

والأسلوب الأدبى عباراته غامضة موحية فضفاضة.

الكلمة فى الأسلوب العلمى وظيفتها تأدية المعنى ، وتوضيح الفكرة.

والكلمة فى الأسلوب الأدبى وظيفتها التأثير فى النفس ، والإيقاع فى النغم.

العالم لا يعنى بألفاظه ، ولا يحفل بعباراته ، ولا يحتفى بأسلوبه.

والأديب على العكس من ذلك ينتخب ألفاظه ، ويختار عباراته ، وينمق أسلوبه.

فمثلا حين يتحدث العالم « عن تركيب الهواء ، أو زوايا المثلث ، أو تحليل الشعاع ، أو تشريح الزهرة ، وما إلى ذلك من حقائق ، الناس كلهم إزاءها سواء ، فإذا ما تحدث فيها العالم ، فإنه يتحدث بعقله ليخاطب سائر الناس ، ولا يدخل

جانبه الشخصى في كلامه ، ذلك الجانب الذى يتميز به الأفراد بعضهم من بعض ، وإنما غايته أن يوضح الفكرة توضيحا محددا جليا .. يريد بكل لفظة غرضا معلوما، ومعنى محدودا ، ولا يجيز لنفسه أن يضع كلمة تزيد عن حاجته ، ويبنى جمله وعباراته بناء منطقيا لا هوادة فيه ، تتابع فيه المقدمات والنتائج » (١).

أما الأديب فإنه يستجيب لهذه الأشياء بكل كيانه ، واستجابته الخاصة تختلف عن استجابة أى إنسان آخر ، وذاتيته تتسلل إلى الموضوع فيتلون بنفسيته ، ويتأثر بطبعه ، فيعبر عنها بصورة موحية ، مجازية ، لا أثر فيها للتحديد أو الدقة. فالأديب وإن كان ينشد التأثير إلا أن ذلك يكون عن طريق العاطفة التى تسرى فى ألفاظه فتشعل المشاعر الخامدة ، وليس عن طريق المنطق أو البرهان.

العالم يبحث فى القمر ، فيتناول حقائقه الفلكية والجيولوجية ، وإنه جرم مظلم مشوه بالبراكين .

والأديب ينظر إلى القمر فيتحدث عن أشعته الفضية ، وغلالته الرقيقة التى تلف الكون ، فيترك نوره الشاحب أصداء حالمة فى نفوس المشاهدين .

العالم يرى السيف فيتناول مواده الأولية من صلب أو نحاس ويفرق بين أنواعه الصلبة واللينة .

والأديب ينظر إلى السيف فيرى أشعته التى تنساب من حده ، وأسنانه الزرقاء كأنياب الأغوال ، وأنه رمز للقوة والشجاعة والسلطان.

فالعالم يفكر بعقله فيذكر لنا الحقيقة الخالصة.

والأديب يشعر بقلبه فيترك فى نفوسنا المتعة اللذيذة.

وحازم القرطاجنى (ت ٦٨٤ هـ) يوضح الفرق بين الأسلوب الأدبى والعلمى ، فيصف العبارة الشعرية بالحسن والجمال ، لأنها لا تعطى المعنى عاريا مجردا ، بل تعطى معه لواحقه وأغراضه التى تتصل بميول النفس وأهوائها ، فيكون لذلك من

---

(١) فنون الأدب هـ ب تشارلتن تعريف د . زكى نجيب محمود ٤٩

التمكن فى النفس ما لا يكون للعبارة العلمية الجافة ، ويعرض للعبارة العلمية فيبين « أن الأقاويل العلمية ليس لها من حسن الموقع فى النفس ما للأقاويل الشعرية ، لأن هذه تصور الشيء بصفاته المطيفة به التى تتعلق بالأغراض الإنسانية ، أما تلك فغايتها الوصول إلى تعريف أو تصديق .. ويمثل حازم لفعل الأقاويل العلمية والأقاويل الشعرية بأن الأولى تحصل لك علما بامتلاء إناء أو خلوه إذا أبصر يرشح أو وجد ثقيلا ، أو أبصر مكفئا أو وجد خفيفا ، أما الثانية فتريك إناء من الزجاج يشف عما يحتويه »[1].

فحازم القرطاجنى يفرق بين الأسلوب العلمى والأدبى ، ويرى الجمال والحسن فى الأقاويل الشعرية : أو الأساليب الأدبية ، لاتصالها بالنفس وأهوائها ، فتعلق بنفس السامع أو القارىء ، على خلاف الأقاويل العلمية: أو الأساليب العلمية التى يصفها بجفاف العبارة ، وليس لها من غاية إلا الوصول إلى التعريف والتصديق.

« فالرأى عندى هو أن العلم والأدب صنفان من الكلام مختلفان اختلافا يستحيل معه أن يتطور أحدهما إلى الآخر ، كما يستحيل أن تتطور الأغنام فتصبح أبقارا ، لا لأن الأدب متميز عن العلم بجمال أسلوبه مع جواز اتخذهما فى مادة القول بل الاختلاف أعمق من ذلك وأبعد ، فالعبارة العلمية من طراز ، والعبارة الأدبية من طراز آخر ، ولن يستطيع جمال الأسلوب أن يعبر ما بينهما من فجوة واسعة. فالعلم تعميم ، والفن تخصيص .. العلم يلاحظ الأشباه والنظائر ، ليستخلص منها أوجه الشبه فيصوغها فى قانون واحد ينظمها ، والفن يلاحظ جزئية واحدة يقف عندها ويحلل خصائصها ، فالعلم يستبعد نفس الخصائص التى يستبقيها الفن ..

قف إلى جوار الجبل الذى يبهرك شموخه ، واجعل زميلك الجغرافى يقف إلى جوارك إزاء الجبل نفسه ، فإن أردت أن تطالعنا بالأصداء النفسية التى ترددت فى فؤادك ، إذ أنت تنظر إلي الجبل ، بلغت من الجودة الفنية بمقدار ما تبعد عن

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء حازم القرطاجنى ١١٨

الحقيقة الخارجية كما يصفها زميلك الجغرافى .. الجغرافى مطالب بوصف الحق والواقع ، مطالب بنقل الواقع الخارجى بعيدا عن تأثرات نفسه - وأنت على نقيض ذلك - مطالب بنقل تأثراتك النفسية بغض النظر عن الواقع الخارجى »(1) .

وبين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبى ، أسلوب ثالث ، ليس كله واقعا ، وليس كله خيالا ، وإنما هو أسلوب يجمع بين الواقع والخيال ، أسلوب يجمع بين الحجة القوية والدليل القاطع وبين المتعة الفنية والتأثير العميق ، فيوضح الفكرة ، ويؤيد المعنى ، ولكنه يأخذ بالمشاعر ويستولى على الألباب ، أسلوب يخاطب العقل والشعور جميعا ، يتحدث فى ضرورات الحياة، ومنافعها الوقتية فى عبارات أنيقة فتبدو سهلة رشيقة مساغة.

هذا الأسلوب يسمى الأسلوب العلمى المتأدب ، الذى يظهره صاحبه ، وكأنه يتحدث فى موضوع منطقى عقلى ، ولكنه يود أن يؤثر فيهم بقوة عبارته ، وينفذ إلى قلوبهم بحسن بيانه ، وليس بقوة حجته ، أو نصاعة برهانه .

فالأسلوب العلمى إذًا يتميز بالدقة ، والوضوح ، والتنسيق ، والبعد عن الصور والخيالات ، وتجنب الزخرف ، وألوان البديع ، ويرمى إلى التحديد والتعريف .

والأسلوب الأدبى يتميز بالأخيلة الواسعة ، والصور البيانية ، والزخارف البديعية ، ولا يعنى بالواقع ، ولا يحفل بالحقائق ، وإنما يرمى إلى إثارة العواطف ، وإيقاظ المشاعر .

والأسلوب العلمى المتأدب : هو الذى يجمع بين خصائص الأسلوب العلمى والأدبى ، فيحرص على إزالة الجفاف العلمى ، فيضيف إلى توضيح العبارة ، وتأييد الفكرة ، جمال اللفظ ، وقوة التأثير .

---

(1) قشور ولباب د. زكى نجيب محمود ١٠٧ ، ١١٣

# اللفظ والمعنى

قضية اللفظ والمعنى شغلت كثيرا من النقاد والبلاغيين العرب ، القدامى والمحدثين ، لما لها من أهمية قصوى فى تقدير النص. وبيان منزلته ، وسر استحسانه ، ولا نكاد نجد علما من أعلام النقاد ، أو الأدباء ، إلا وقد تعرض لهذه المشكلة ، وأبدى فيها رأيه : فتارة يرجع بعضهم الحسن إلى جمال اللفظ ، وأحيانا إلى عمق المعنى ، وبين أولئك وهؤلاء نرى فريقا يرجع الحسن إلى اللفظ والمعنى جميعا.

فكيف نشأت هذه المشكلة ؟ وما أسبابها ؟

عندما نزل القرآن ، واستمع إليه العرب ، سحرهم ببيانه وجماله ، وبفصاحته وبلاغته ، حتى سمعنا الوليد بن المغيرة يقول عنه « والله ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه .. ثم قال : إن هذا إلا سحر يؤثر » والقساوسة والرهبان ﴿إِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة : ٨٣) (١) فالقرآن من شأنه إذا استمع إليه إنسان أن تتحرك مشاعره ، ويهتز قلبه طربا ، أو يقشعر بدنه خوفا ، أو ينعصر فؤاده رجاء.

فهل كان سحره ، وحسن وقعه علي الآذان ، وشدة تأثيره على النفوس ، وإفاضة الدموع عند سماعه لما فيه من جمال فى العرض. وقوة فى الأداء ، وإيقاع في العبارة على نحو فريد، أو كان سحره وشدة تأثيره لما فيه من معان سامية تدعو إلى الحق والخير ، وتنفر من الانحراف والشر ، وتبصرهم أمور دينهم ودنياهم ، وتهديهم طريق العدل والصواب ، وتبعدهم عن سبيل الجور والخطأ ؟

---

(١) المائدة ٨٣

هل كان سحر القرآن وعظمته ترجع إلى ألفاظه ، أو ترجع إلى معانيه ؟

فى هذا الجو الدينى نشأ الكلام عن اللفظ والمعنى ، وتشعبت فروعه ، حتى صارت قضية اللفظ والمعنى من أهم القضايا التى يهتم بها النقاد ، ولم تعد مشكلة اللفظ والمعنى قاصرة على الحديث عن القرآن ، وإنما انتقلت إلى الأدب بوجه عام ، والشعر بوجه خاص : فحين استهلك الشعراء معانى الأقدمين فى قصائدهم ، وعز عليهم العثور على معان جديدة ، لم يبق أمامهم إلا التجديد في الصياغة والأساليب والخيال ، وقد كان لهذا التجديد فى الصياغة والأسلوب هو الذى يرضى بعض النقاد ، وينال إعجابهم .

ومن الأسباب التى ساعدت على إبراز مشكلة اللفظ والمعنى ، ظهور مذهب أبى تمام فى البديع ، وكثرته كثرة فاحشة ، وتبعه فى ذلك كثير من الشعراء ، وقد كان هذا المذهب يقوم على الصنعة والزخرف من جهة ، وعلى الدقة في المعانى والغوص وراء الأساليب من جهة أخرى ، مما جعله يخرج عن مألوف الشعر فى تشبيهاته وألفاظه ، ويؤدى إلى التعقيد فى أسلوبه ومعانيه ، فنرى النقاد عندئذ ينقسمون فريقين ، ويتخذ كل فريق منهما مذهبا فى تقويم الشعر ، فبعضهم يرجع القيمة إلى المعنى ، وبعضهم يرجع القيمة إلى اللفظ ، وأمامنا ناقدان يعاصر أحدهما الآخر ، ويعتبر كل منهما قدوة وإماما لنقاد العرب ممن أتى بعدهم ، هذان الناقدان تبنى كل واحد منهما وجهة نظر مخالفة لوجهة نظر الآخر .

فالآمدى (ت ٣٧٠ هـ) ينحاز إلى جانب من يرجح القيمة للمعنى فى شعر أبى تمام ، ويؤيد وجهة نظرهم حين يقولون « إن اهتمام أبى تمام بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه على كثرة غرامه بالطباق والتجنيس والمماثلة ، وأنه إذا لاح له المعنى اخرجه بأى لفظ استوى من ضعيف أو قوى. فيعقب على هذا القول : وإذا كان هذا هكذا فقد سلموا له الشيء الذى هو ضالة الشعراء وطلبتهم . وهو لطيف المعانى وبهذه الخلة دون سواها فضل امرؤ القيس ولولا لطيف المعانى ، واجتهاد امرىء القيس فيها ، وإقباله عليها لما تقدم غيره .. وكذلك من فضائل أبى تمام أن معانيه لو ترجمت إلى لغة أخرى كالفارسية والهندية لما فقدت قيمتها»[1].

(١) الموازنة - الآمدى ٣٨٩ - ٣٩١

وفى الطرف المقابل نرى القاضى الجرجانى (ت ٣٦٦ هـ) يميل إلى جانب اللفظ ، ويعتبره الأساس الأول فى تفضيل الشعر وقيمة الشاعر ، وليس للمعنى عنده أهمية تذكر ، فهو يفضل « الشعر العذب اللفظ ، الحلو الصياغة ، ولو كان معناه عاديا مألوفا »(١) .

ويرى بعض الباحثين أن مشكلة اللفظ والمعنى ترجع فى أساسها إلى خلاف عنصرى ، فأكثر الذين تشيعوا للفظ كانوا من العنصر العربى ، وأكثر الذين تشيعوا للمعنى من غيرهم من الأمم الذين زالت دولتهم ، وضعفت شوكتهم ، وبقى فى نفوسهم شعور مكبوت ، وحنين خفى إلى مجدهم الغابر .. فاتخذ هذا الصراع الخفى مظاهر شتى لعل منها الخلاف بين اللفظ والمعنى(٢)، إلا أن غيره من الباحثين قد أنكر عليه هذا الرأى ، واتهمه بضيق النظرة « والواقع أن هذه نظرة ضيقة إلى حد بعيد ، تؤكد أن صاحبها لم يتعمق فى بحث هذه المسألة قط ، وإنه لم يخرج إلى دائرة النقد العام ليربط بينها وبين مثيلاتها فى نقد الأمم الأخرى»(٣).

ومهما يكن من شىء فمشكلة اللفظ والمعنى ظهرت أولا بسبب دينى بحت يتعلق بالقرآن الكريم وما فيه من لفظ حلو ، ومعنى عظيم . ونظم رائع ، والتساؤل عن سر هذا الإعجاز الذى اتسم به القرآن دون غيره من نصوص العرب ، ثم تحول الاتجاه إلى دراسة الجانب الأدبى فى النصوص الشعرية والنثرية ، وبأى شىء يفضل الشاعر أخاه ، أو الكاتب نظيره ، فى لفظه أم فى معناه ؟

واستمرت هذه القضية حتى عصرنا الحديث ينقسم حولها النقاد إلى طوائف بعضهم يرى قيمة العمل الأدبى فى المعنى ، ولا يعطى للفظ أهمية ، وبعضهم يعطى القيمة للفظ ، مغفلا شأن المعنى ، وبعضهم يسوى بين اللفظ والمعنى ، وبعضهم يرى الأهمية فى الألفاظ من جهة دلالتها على معناها فى نظم الكلام جملة كما سنرى عند عبد القاهر الجرجانى ، ولعل هذا الرأى هو أهم الآراء وأرجحها على السواء .

---

(١) الوساطة القاضى الجرجانى ٢٠ - ٣٥

(٢) أبو هلال العسكرى د. طبانة ١٣٢ ، فى النقد الأدبى د. شوقى ضيف ١٦١ ط٢ ، القزوينى وشروح التلخيص د. مطلوب ٢٥٠.

(٣) انظر مشكلة السرقات فى النقد العربى د. هدارة ١٩٦ ط ١٩٥٨.

على أننا نحب أن ننبه الأذهان إلى شيء له أهمية « ذلك أن من ينصر اللفظ أو يسوى بين اللفظ والمعنى ، لا يقف عند حدود اللفظ وحده ، دون مراعاة للمعنى الذى يدل عليه اللفظ ، بل هؤلاء يشيدون بقيمة المعنى أيضا ، ويرون البلاغة فى اللفظ المختار والمعنى المنتخب ، ومتى اجتمعا فقد اجتمع الحسن من أطرافه ، واكتمل الكلام » (١).

وإذا أردنا أن نتحدث بإيجاز عن قضية اللفظ والمعنى ، وبيان أطوارها نرى أولا : « أن أبا عمرو الشيبانى قد استحسن بيتين من الشعر ، لما اشتملا عليه من معنى وحكمة ، وأولع بهما ولوعا شديدا حتى أنه أمر بتدوينهما وهما قول الشاعر :

لا تحسبن الموت موت البلى ... فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا ... أفظع من ذاك لذل السؤال

**يقول الجاحظ :**

وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى ، والمعانى مطروحة فى الطريق . يعرفها العجمى والعربى ، والبدوى والقروى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسج . وجنس من التصوير (٢).

فأبو عمرو الشيبانى يرى الحسن فى المعنى ، ولا عبرة باللفظ. وقد نحى هذا المنحى الآمدى كما ذكرنا من قبل ، وكذلك ابن الأثير لا يرى للفظ قيمة، بل القيمة كلها فى المعنى « وقد رأيت جماعة من متخلفى هذه الصناعة يجعلون هممهم مقصورا على الألفاظ التى لا حاصل وراءها ، ولا كبير معنى تحتها ، وإذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع - على أى وجه كان من الغثاثة والبرد - يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم »(٣).

---

(١) النقد الأدبى د. غنيمى ٢٧٠

(٢) الحيوان - الجاحظ ٣/١٣١ ، ١٣٢

(٣) المثل السائر ابن الأثير ٢١١

أما الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) فقد رأينا فى رده على أبى عمرو الشيبانى أنه يشيد باللفظ ، فالأدب عبارة جميلة تتمثل فى اختيار اللفظ ، وجودة النظم ، والشاعر الحق هو من يجعل الشعر صناعة ولونا من التصوير ، وإن كان الجاحظ لا يغفل قيمة المعنى أيضا ، لأن الصياغة لا تكون بالألفاظ و حدها ، وإنما بالألفاظ وما تحمله من معنى .

وقد تبع الجاحظ فى الإشادة باللفظ قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) فى كتابه نقد الشعر[١] ، وابن خلدون فى مقدمته [٢].

ولكن كثيرا من نقاد العرب لم يميلوا إلى الرأى الذى يرجح اللفظ وحده ، أو المعنى وحده ، وإنما وقفوا موقفا وسطا ، فيعتبرون القيمة الأدبية فى التسوية بين اللفظ والمعنى ، فاللفظ والمعنى وحدة لا تتجزأ ، ولا يقوم أحدهما دون الآخر ، فالعمل الأدبى كائن حى ، ولا يكون عملا فنيا إذا فصلنا المعنى عن اللفظ ، لأن ذلك بمثابة فصل الروح عن الجسد ، أو الشعاع عن الشمس.

ومن هؤلاء بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ) الذى يذكر فى صحيفته الخالدة «أن من أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن يصانا عما يفسدوهما ويهجنهما » [٣].

وتبعه فى ذلك ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فإنه يسوى بين اللفظ والمعنى « فخير الشعر عنده ما حسن لفظه ، وجاد معناه ، فإذا قصر اللفظ عن المعنى ، أو خلا اللفظ ولم يكن وراءه طائل ، كان الكلام معيبا » [٤].

وابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ) يسير على منهج ابن قتيبة فى التسوية بين اللفظ والمعنى ، ويجعلهما بمنزلة الروح والجسد فأحدهما ضرورى للآخر « فللكلام جسد وروح ، فجسده النطق – أى اللفظ – وروحه معناه »[٥] .

---

(١) نقد الشعر ١٠١

(٢) المقدمة ٥٢٨ ط القاهرة وانظر القزوينى وشروح التلخيص ٢٥٨

(٣) البيان ١٣٦/١ ، وانظر تاريخ النقد العربى د. زغلول سلام ٦٧/١.

(٤) الشعر والشعراء ٦٤/١

(٥) عيار الشعر ١١

وأبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ) ينادى بهذا الرأى ، وإن اختلف التعبير عنه ، فعنده « المعانى تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجرى منها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداهما من الأخرى معروفة »(١).

ويردد ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) كلام ابن طباطبا والعسكرى فى التسوية بين اللفظ والمعنى ، واعتبار المعنى بمثابة الروح ، واللفظ بمثابة الجسد ، واختلال إحداهما يضعف الآخر « إن اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته .. فإن اختل المعنى كله وفسد ، بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة فى السمع .. وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى ، لم يصبح له معنى ، لأننا لا نجد روحا فى غير جسم البتة»(٢) .

كل هذه الآراء المتفقة أو المتباينة فى مشكلة اللفظ والمعنى وصلت إلى عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) واعمل فيها فكره الثاقب ، وإحساسه النافذ ، فرفض أن يكون مدار البلاغة ، أو الجمال الفنى على اللفظ أو على المعنى ، ورأى أن البلاغة في العلاقة بين الألفاظ فى العبارات من جهة ، وبينهما وبين المعانى من جهة أخرى ، وتسمى هذه العلاقات (النظم) وقال : « ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها مع بعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض » فالنظم هو مدار الجمال فى العمل الأدبى ، وفسر النظم بأنه علم النحو ، ليس النحو الضيق المعروف بأنه ملاحظة أواخر الكلم من حيث الإعراب والبناء فقط ، بل أيضا من حيث تركيب الألفاظ بعضها مع بعض فى صورة خاصة لتؤدى معنى معينا ، وأدنى تغيير في تركيب الألفاظ يؤدى بدوره إلى اختلاف المعنى.

وهذا هو الخطيب القزوينى (ت ٧٣٩ هـ) يلخص ماذهب إليه عبد القاهر ، ويعتبره القول الفصل فى هذه القضية بقوله : « فالبلاغة صنعة راجعة إلى اللفظ

(١) الصناعتين ٦٩
(٢) العمدة ١٢٤/١

باعتبار إفادته المعنى عند التركيب ، وكثيرا ما يسمى ذلك فصاحة»[1]، فالألفاظ لا مزية لها من غير علاقاتها وتركيبها مع غيرها لتفيد المعنى المراد ، أى أن النظم هو كل شىء فى هذه القضية .

وإثارة هذه القضية والحوار الذى يدور فيها بين آونة وأخرى ، لم يخمد حتى العصر الحديث ، بل اشتد الجدل حولها ، واعتبرها النقاد من أهم القضايا التى تتعلق بفلسفة الجمال فى العمل الفنى ، ونحب أن نذكر رأى توفيق الحكيم فى هذه القضية ، لحسن عرضه وقوة حجته إتماما للفائدة ، يقول الحكيم « ما المقصود بالتعبير ؟ أهو الشكل ؟ لا ، إنه شىء أكثر من ذلك .. إنه ليس فقط طريقة الإبراز والإظهار ، لأن هذه لا تقوم وحدها بغير الحادثة التى فى جوفها ، فالتعبير إذا ليس مجرد الشكل ، بل هو الشكل والموضوع معا .

وقوة التعبير هى أيضا توازن وتعادل بين قوة الأسلوب ، وقوة الموضوع ، فإذا طغى أحدهما على الآخر فإنك تشعر فى الحال أن الوضع غير طبيعى ، فالأسلوب البارع ، والموضوع التافه ، يثيران فى النفس إحساسا بالتكلف ، فإن الأديب أو الفنان الذى يحتفل احتفالا بالغا بإبراز موضوع هزيل ، إنما يتكلف فعلا أمرا لا لزوم له ، كمن يرتدى ثياب السهرة ليجلس بمفرده فى حجرة يتعشى بكسرة خبز . فعدم مراعاة مقتضى الحال تكلف ، والتكلف فى الأسلوب قبح كما هو فى الحياة.

كذلك الحال إذا طغى الموضوع على الأسلوب ، فالموضوع العظيم فى الشكل السقيم يثير فى النفس إحساسا بالتحسر ، كمن يصوغ اللؤلؤة في خاتم من الصفيح اختلال التعادل إذا فى الحالتين بين قوة الأسلوب ، وقوة الموضوع يحدث الشعور كذلك بأن الوضع غير طبيعى .

قد تسأل ما هو الأسلوب فى الأدب والفن ؟

الأسلوب هو طريقتك الخاصة فى الظفر بإعجاب غيرك وشعوره وتفكيره ،

---

(١) الايضاح ١١ ط محيى الدين

ليرى ما ترى ، ويحس ما تحس ، ويفهم ما تفهم .. والمقصود بالأسلوب هنا ليس بالطبع اللغة وحدها ، بل ما تحمله اللغة فى جوفها من ألوان الصور والأفكار .

أما الموضوع فى الأدب والفن ، فهو كل ما تستطيع أن تثير به اهتمام الناس على نحو غير مسفّ ولا فارغ ولا مبتذل ، وليس للموضوع العظيم أو التافه شروط معينة ، أو معالم محددة . فتقديره متروك لعبقرية الأديب أو الفنان ، فقد يتناول بمواهبه السحرية موضوعا تحسبه تافها ، فإذا هو يخلق منه بقلمه شيئا يثير اهتمام الناس فى جيله وفى جميع الأجيال ، فالموضوع لا تتحدد صنعته العظيمة أو التافهة إلا بعد أن يصب فعلا فى الأثر الأدبى (١) .

وهذا التعبير الذى يحتوى على اللفظ والمعنى ، أو الشكل والمضمون ، أو الصورة والمادة ، ينبغى أن يتحقق فيه التعادل بين هذين الطرفين ، ولا يصح أن يطغى أحدهما على الآخر ، وتحقق هذا التعادل فى التعبير هو كل شىء فى نظر الفن ، ويعتبر عماد العمل الأدبى .

---

(١) انظر التعادلية ، لتوفيق الحكيم ، التعادلية فى الأدب والفن ص ٧٠ ط النموذجية وانظر أيضا توفيق الحكيم الفنان ٢٠٢ - ٢٠٨ ط دار الكتاب الجديد .

# الفصاحة والبلاغة

الفصاحة هى قوة العبارة ، ونصاعة البيان ، وحسن التعبير.

وتوصف بها الكلمة ، والكلام ، والمتكلم .

تقول كلمة فصيحة ، وكلام فصيح ، ومتكلم فصيح ، وتقول فصح الرجل إذا جادت لغته ، وأفصح تكلم بالعربية ، وفى التنزيل : ﴿وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ (القصص :٣٤).

والبلاغة : أن تبلغ القصد بالعبارة ، أن تهدى المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ ، هى القوة على البيان مع حسن النظام (١).

ويوصف بها الكلام والمتكلم ، ولا توصف بها الكلمة.

تقول كلام بليغ ، ومتكلم بليغ ، ولا تقول كلمة بليغة .

فكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا ، وكل من بالبلاغة يوصف بالفصاحة ، لأن شرط البليغ أن يكون فصيحا .

والفرق بين الفصاحة والبلاغة :

**أن الفصاحة مقصورة على اللفظ. والبلاغة مقصورة على المعنى (٢).**

**واعتبر بعض العلماء . البلاغة وصفا للألفاظ مع المعانى (٣).**

---

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ١/١٢٧ ، ١٢٩

(٢) الصناعتين ٨

(٣) سر الفصاحة ٦٠ ، والمثل السائر ١/٦٩

ويشترط فى فصاحة الكلمة :

أن تكون خالية من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس .

**١- مثال التنافر قول امرىء القيس :**

**غدائره مستشزرات إلى العلا      تَضِلّ العقاص فى مثنّى ومرسَل**

يريد أن يصف ذوائبها بالارتفاع إلى أعلى ، وأن خصل الشعر مفتولة ومسدولة : أي شعرها غزير ، وقد أحسن تصفيفه .

فكلمة مستشزرات هنا متنافرة الأحرف ، ثقيلة الوقع على الأذن .

وإنما كان الثقل فى مستشزرات لتوسط الشين - وهى مهموسة رخوة - بين التاء ، وهى مهموسة شديدة ، والزاى وهى مجهورة .

ومن التنافر ما هو أشد من ذلك قبحا ، لتناهيه فى الثقل .

وعسر النطق به ، فقد روى عن الخليل أنه قال سمعت كلمة شنعاء وهى (الهعخع) ضرب من الشجر يتداوى بورقة ، و سبب الثقل أن الهاء والعين لا يكاد واحد منهما يأتلف مع الآخر من غير فصل [١].

قالوا : التنافر يكون إما لتباعد الحروف جدا ، فهذا بمنزلة الطفرة ، أو لتقارب الحروف جدا فيكون بمنزلة مشى المقيد ، والحق أن هذا السبب ليس قاعدة فى جلب التنافر ، بل هو أمر غالب ، وليس لازما ، فقد تكون الكلمة فصيحة مع قرب مخارج حروفها مثل كلمة (فم).

وقد تكون الكلمة فصيحة مع بعد مخارج حروفها مثل كلمة (بعد) فإن الباء من الشفتين والعين من الخلق ، وهو حسن لا تنافر فيه ، وكذلك علم ، وأو ، وألم.

والمرجع الحقيقى فى اعتبار الكلمة فصيحة ، أو متنافرة هو الذوق وحده ، ومدى تقبلك لها عند سماعها.

---

(١) عروس الأفراح ٧٨/١

## ٢ - الغـــرابة :

أن تكون الكلمة غريبة بالنسبة إلى العرب ، لا بالإضافة إلى استعمال الناس ، حتى لا تحكم علي كل كلمة تقادم العهد بها ، أو ذكرت فى كتب الغريب بأنها غير فصيحة ، وإنما المراد قلة استعمالها بالنسبة إلى العرب العرباء.

مثال الغرابة قول رؤبة بن العجاج :

**أيام أبدت واضــحــا مــفلّجــاً ... اغــر برّاقــا وطرفــا أبلجــا**
**ومــقلة وحــاجــبــا مــزجّــجــا ... وفــاحــمــا ومــرْسِنا مــســرّجــا**

فقد أراد بالمرسن هنا الأنف ، أراد أن يصف الأنف بالسيف السريجى فى الدقة والاستواء ، أو بالسراج فى البريق واللمعان ، وهذا الوصف غريب فى اللفظ والاستعمال .

فأفصح الألفاظ ما كان مألوفا متداولا ، وأقبحها ما كان وحشيا متوعرا.

فما استعمله العرب والمحدثون دون عامتهم ، فهو حسن جدا ، لأنه خلص من حوشيه العرب وابتذال العامة.

وما استعمله العرب كثيرا دون المحدثين ، فهو حسن فصيح.

وما استعمله العرب قليلا فهو غير حسن .

وما كثر على ألسنة العامة ، وأمكن للخاصة الاستعاضة عنه بألفاظ أخرى ، فهذا قبيح ، لابتذاله.

وما لم يكثر على ألسنة العامة فلا بأس به (١).

فالابتذال كالغرابة عيب يلحق بالكلمة ، ينال من قدرها ، وينقص من جمالها ، وقد عيب على أبى نواس كلمة الشطار ، لابتذالها حين يقول :

**وملحّــة بالعــذل تحــسَب إننى ... بالجــهل اترك صــحــبــةَ الشطار**

---

(١) عروس الأفراح ٩٣/١

**٣ - مخالفة المقياس :**

أن تكون غير جارية على العرف العربى الصّحيح ، بأن تكون الكلمة مستعملة فى غير ما وضعت له فى عرف اللغة ، ولم يقصد المجاز كاستعمال كلمة الأيّم بمعنى الثّيب ، فى قول البحترى :

**يشق عليه الريحُ كلَّ عشية ... جيوبَ الغمام بين بِكْر وايّم**

فوضع الأيم فى مقابل البكر ، والأيم فى اللغة تطلق على المرأة التى لا زوج لها، بكرا كانت أو ثيبا .

أو تكون الكلمة مخالفة للقياس الصرفى كقول ابن النجم :

**الحمد لله العلى الأجلل ... الواحدِ الفردِ القديم الأول**

فالأجلل هنا مخالفة للقواعد الصرفية ، لأنه فك الإدغام ، والأصل الإدغام فكان ينبغى أن يقول الحمد لله العلى (الأجلّ) .

وأنشد سيبويه :

**مهلا أعاذل قد جربتِ من خلقُى ... إنى أجود لأقوامٍ وإن ضننوا**

وكان ينبغى أن يقول وإن ضنّوا . وهذا كثير جدا فى أشعار العرب .

فهل معنى ذلك أن كل ضرورة ارتكبها شاعر تخرج الكلمة عن الفصاحة ؟

كلا : الضرورات الشعرية ، منها السائغ ، ومنها المستقبح ، كما يقول حازم القرطاجنى (١).

فالسائغ : ما لا تشعر النفس معه بوحشة كقصر الممدود ، ومد المقصور.

والمستقبح : ما تشعر النفس معه بوحشة كصرف ما لا ينصرف ، وتذكير المؤنث وعكسه .

« وهذه وتلك ، إن لم تؤثر فى فصاحة الكلمة كبير تأثير ، فإنه يؤثر صيانتها عنها ، لأن الفصاحة تنبىء عن اختيار الكلمة ، وحسنها ، وطلاوتها (٢)».

---

(١) عروس الأفراح ٨٨/١

(٢) سر الفصاحة ٩١

ومن شروط فصاحة الكلمة ، أن تكون حسنة الوقع فى السمع، فلا تكرهها الأذن، ولا تمجها النفس ، فمثال ما تكره النفس سماعه لفظة (الجرشّى) فى قول المتنبى :

**مبـاركُ الاسم أغـرُّ اللقب          كـريمُ الجـرشّى شـريفُ النسب**

فإن السمع يمج كلمة الجرشى ، وربما تبرأ منها السامع ، كما يتبرأ من سماع الصوت المنكر ، فالكراهة فى السمع راجعة إلى النغم لتتابع الكسرات ، وتماثل الحروف ، وكونها وحشية ، مما ينفر معه الطبع القويم ، والذوق السليم.

**فصاحة الكلام :**

والكلام الفصيح هو المنسجم المتآلف فى تركيبه حتى يأخذ بعضه برقاب بعض ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت مفرداته أيضا فصيحة .

ولكى يكون الكلام فصيحا لابد أن تتوافر فيه صفات .

أن يكون خاليا من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد .

**١ - ضعف التأليف :**

أن يكون الكلام جاريا على غير القواعد النحوية المشهورة كعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة. « نحو : ضرب غلامُه زيدا » فإن الضمير متصل بالفاعل ، وهو يعود على المفعول به ، والمفعول هنا متأخر فى اللفظ عن الفاعل ، كما هو أيضا متأخر عنه فى الرتبة كما نعرف . وجمهور النحاة يمنع ذلك ، لأنه ربما يؤدى إلى لبس وغموض فى المعنى ، فيظن السامع أن الضمير فى غلامه يعود على شخص تقدم ذكره .

**من ذلك قول حسان بن ثابت :**

**ولو أن مـجـداً أخلد الدهرَ واحـدا**
**من الناس أبقى مجدُه الدهرَ مُطعما**

**وقول النابغة الذبيانى :**

**جـزى ربُّه عنى عـدىَّ بن حـاتم          جـزاء الكلاب العـاويات وقد فعل**

**وقول الشاعر :**

**جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر     وحسن فعل كما يجزى سنّمار**

ومما يخالف القواعد النحوية المشهورة ، وضع الضمير المتصل موضع المنفصل كوضعه بعد إلاّ كقول الشاعر :

**ليس إلاّك يا علىُّ همام     سيفه دون عرضه مسلول**

**وكقوله :**

**وما علينا إذا ما كنت جارتنا     ألاّ يجاورنا إلاّك ديّارُ**

أو نصب الفعل المضارع دون أن تسبقه أداة نصب كقول طرفة بن العبد :

**ألا أيهذا الزاجرى احضرَ الوغى**

**وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى**

فنصب الفعل (احضر) دون أن يتقدم عليه حرف النصب.

ومثله قول الشاعر :

**بيضاء يمنعها التكلم ، دلُّها     تيهاً ، ويمنعها الحياء تميسا**

فنصب الفعل (تميس) ولم يسبقه ناصب.

وهكذا كل ما يخالف المشهور من قواعد النحو يخل بفصاحة الكلام ، ويسلب منه الجمال ، ويؤدى إلى الفهاهة والقبح ، وهذا لا يخل بفصاحة الكلمة وحدها ، ولكنه يخل بفصاحة مجموع الكلام.

**٢ - تنافر الكلمات :**

وهذا التنافر يؤدى إلى ثقل الكلمات على اللسان ، وعسر النطق بها فى تتابعها ، وإن كانت كل كلمة فصيحة على انفراد.

« ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر ، وإن كانت مجموعة فى بيت شعر لم يستطع المنشد إنشاده إلا ببعض الاستكراه كقول الشاعر :

وقــــبــــرُ حـــرب بمكان قـــفـــرُ وليس قـــربَ قـبـــرِ حـــربٍ قـبـــرُ

وقد ذكروا أنه من أشعار الجن ، وأنه لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات فلا يتتعتع [1].

فكل كلمة وهى منفردة لا قبح فيها ولا تنافر ، ولكن تكرار الحروف والكلمات، أدى إلى هذا التنافر الكلّى ، وأسلم إلى هذا الثقل على اللسان بحيث يتعذر عليه النطق به فى سلاسة وانسياب ، وإن نطق به اكتنفه التعثر والاضطراب .

ومن ذلك أيضا :

وازوَرّ مَـن كـــــــــــان لـه زائـرا وعـــافَ عـافِى العُــرفِ عِــرفـانَه

ومن هذا القبيل ايضا قول ابن يسير :

لم يضـــرْها والحـــمـــد لله شىء وانثنت نحـــو عـــزفِ نفسٍ ذهولِ

فتفقد النصف الأخير من هذا البيت ، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض [2] .

وثمة نوع آخر فى التنافر وإن كان أخف حدة من سابقه كقول أبى تمام :

كريمٌ متى أمدحْه أمدحْه والورى معى وإذا مـا لمْتُه لمتُـه وحدى

فمنشأ الثقل هنا تكرار كلمة أمدحه ، وفى كلمة لمته ، وليس ناشئا عن اجتماع الحاء والهاء فى كلمة أمدحه ، فإن اجتماعهما فصيح لوروده فى القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ (الطور : ٤٩) [3] .

**٣ - التعقيـــد :**

وهو أن يكون الكلام مشتملا على خلل بحيث لا يفهم المراد منه ، أو يفهم ولكن بعد مشقة وعسر ، فالتعقيد إذاً أثر من آثار الإخلال بقواعد النحو بمعناه

---

(١) البيان ٦٥/١
(٢) البيان ٦٦/١
(٣) الطور ٤٩

الواسع ، وعدم تطبيقها ، فعلى الشاعر أو الناثر لكى يستقيم كلامه ، ويتضح معناه أن يلتزم بمراعاة قواعد النحو، وملاحظة تطبيقها ، فإذا أخل بذلك فقد ضيع حلاوة النظم. وأجهد السامع فى فهم المراد.

**والتعقيد نوعان :**

١ - تعقيد فى نظم الكلام ، مثل قول الفرزدق فى مدح إبراهيم بن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك بن مروان :

**وما مثلُه فى الناس إلا مُملّكاً     أبو أمه حىّ أبوه يقاربه**

أى ليس مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه ، يريد أنه ليس مثله فى الناس أحد يشبهه فى المكرمات إلا ابن أخته هشاما ، ولا شك أن هذا تعسف فى القول ، وتكلف فى التركيب أخرج الكلام عن الفصاحة .

قال المبرد عن هذا البيت « إنه أقبح الضرورة ، وأهجن الألفاظ ، وأبعد المعانى . وقد هجنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير . كان هذا الشعر لم يجتمع فى صدر رجل واحد (١) » ، ويقرر ابن جنى أن هذا النوع من التعقيد لا يجيزه للعربى أصلا ، فضلا عن أن يتخذه للمولدين رسما .

ومن ذلك أيضا ما أنشده ابن الأعرابى :

**فأصبحتْ بعد خطَّ بهجتِها     كأن قفرا رسومها قلما**

وهو يريد : فأصبحت بعد بهجتها قفرا ، كأن قلما خط رسومها ، فقدم وآخر ، وفصل بين الكلمة وما يتصل بها، ونحو ذلك مما لا يجوز لأحد القياس عليه.

وهذا التعقيد ونحوه ربما لجأ إليه الشاعر ، لا لضعف منه باللغة ، ولا جهلا منه بتوخى أسباب الفصاحة عند العرب ، بل يلجأ إلى ذلك إظهارا لقوة طبعه ، وشدة أسره ، وسمو نفسه ، وتعجرفه ، كل ذلك قد يدفع الشاعر إلى ارتكاب هذه الضرورات على قبحها ، ولكن ابن جنى لا ينصح باللجوء إلى هذا التعقيد بل يأمرنا أن نعرفه ونجتنبه (٢) ».

(١) الكامل ١/١٨

(٢) الخصائص ٢/٣٩٢

ومن أمثلة التعقيد بسبب إخلال النظم قول الفرزدق أيضا :

**إلى ملك ما أمه من محارب ... أبوه ولا كانت كليب تصاهره**

معناه : إلى ملك أبوه من محارب ، ومحارب قبيلة .

ومن ذلك أيضا :

**صان اللئيم وصنت وجهى ماله ... وونى فلم يبذل ولم يبذل**

وأصل الكلام : صان اللئيم ما له ، وصنت وجهى عنه ، فالفصل بين الفعل والمفعول قد أحدث هذا التعقيد .

والنوع الثانى من التعقيد : يكون فى الانتقال من المعنى الظاهر للفظ إلى المعنى المقصود من اللفظ ، وهذا الانتقال الذهنى من المعنى الأول للثانى يكون غامضا ، وليس واضحا ، ولاشك أن هذا يؤدى إلى خلل فى المعنى كقول العباس بن الأحنف :

**سأطلبُ بعدَ الدار عنكم لتقرُبوا ... وتسكبُ عيناى الدموعَ لتجمَدا**

فسكب الدموع دليل على الحزن والألم الذى يصيب المرء ساعة الفراق ، وهذا صواب من الشاعر ، ولكنه أخطأ حين جعل الجمود - وهو خلو العين من الدمع والبكاء وقت الحاجة إليه - كناية عن السرور ، وهو فى الظاهر كناية عن البخل ، فالشاعر إذاً قد انتقل من المعنى الظاهر القريب لجمود العين وهو البخل إلى المعنى البعيد المقصود وهو السرور ، فالجمود وهو كناية عن البخل جعله الشاعر كناية عن السرور ، وهذا ظاهر التكلف مما أسلم الكلام إلى التعقيد ، وأبعده عن الفصاحة والتأثير .

قيل : ومما يخل بفصاحة الكلام أيضا كثرة التكرار كقول المتنبى :

**وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة ... سبوح لها منها عليها شواهد**

« ونقل عن قدامة أنه أنكر قبح التكرار فى الضمائر كما فى البيت السابق(١) »

(١) عروس الأفراح ١/١١٧

وهذا رأى وجيه ، ففى القرآن والسنة ما لا يكاد يحصى من تتابع التكرار كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وآتنا ما وعدتَّنا ﴾ وقوله : ﴿ واعْفُ عنَّا واغفرْ لنَا وارْحَمْنا ﴾ ، ونقل حازم القرطاجنى عن جماعة « إن التكرار يحسن فى مواضع الشوق والمدح والهجاء[1] ».

ويقال أيضا إن تتابع الإضافات يبعد الكلام عن الفصاحة كقول ابن بابل .

**حمامة جرعى حومةِ الجندلِ اسجعى     فـأنت بمـرأى من سعـاد ومسمعِ**

والرأى الصواب أن تتابع الإضافات لا يخرج الكلام عن الفصاحة ، فالقرآن وهو أفصح الكلام كثرت فيه الإضافات المتتابعة كقوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ ﴾ [3] ، وقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ [4] ، وقوله : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [5] ، و ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾[6] ، وغير ذلك كثير . ومن الحديث قول الرسول (موضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها) وفى الحديث القدسى (أنا عند ظن عبدى بى) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث القدسية والنبوية التى تتمثل فيها الإضافات.

**والفصاحة فى المتكلم :**

ملكة يقتدر بواسطتها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح : بمعنى أن تكون الفصاحة صفة راسخة فى المتكلم تصاحبه فى جميع المواقف ، فإذا تخلت عنه ، فليست لديه ملكة الفصاحة ، ولا يوصف المتكلم بها .

* * *

(١) عروس الأفراح ١١٧/١
(٢) مريم ٢
(٣) الاسراء ١٠٠
(٤) الأنعام ١٥٨
(٥) غافر ٣١
(٦) آل عمران ١١

أما البلاغة : فكما قلت من قبل ، تكون فى الكلام والمتكلم ، ولا تكون فى الكلمة . فلا يصح أن تقول « كلمة بليغة » بل تقول كلام بليغ أو متكلم بليغ .

والبلاغة : إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع.

وقيل : أن تفهم المخاطب بقدر فهمه من غير تعب عليك.

أو هى : القوة على البيان مع حسن النظام .

وقيل : إهداء المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ .

والظاهر أن أكثر هذه العبارات ، إنما قصدوا بها ذكر أوصاف للبلاغة ، ولم يقصدوا بها التعريف أو التحديد .

وإن شئت تحديد البلاغة وتعريفها فهى : أن يكون الكلام بعد فصاحته مناسبا للموضوع الذى يؤلف فيه ، ملائما للحال التى دعت إليه ، موافقاً فيهم ، وينال القائل منهم ما يريد ، فيصل إلى غرضه ، وينتهى إلى غايته .

أو كما يقول الأقدمون :

« البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته »(١).

بمعنى أن يكون الكلام مطابقا لأحوال السامعين ، فيترتب على ذلك أن تكون مقامات الكلام متفاوتة ، مادامت أحوال السامعين متغايرة ، فالحال التى يناسبها الإطناب تخالف الحال التى يناسبها الإيجاز ، وطريقة خطاب الذكى تغاير طريقة الغبى ، ومقام الفصل يباين خطاب الوصل ، وموضوع التقديم لا يتناسب حيث ينبغى التأخير ، وهكذا لكل مقام مقال ، فارتفاع شأن الكلام فى القبول متوقف على مدى مطابقته لهذه الاعتبارات المختلفة ، وانحطاطه إذا اختلت هذه المطابقة وانعدمت.

فإذا راعينا هذه المطابقة بين حال المخاطب وقول القائل ، لزم أن نلاحظ شيئا آخر حتى يوصف الكلام بالبلاغة ، وهو أن تكون مفردات كلماته فصيحة، لا تنافر بين حروفها ، ولا غرابة فى ألفاظها ، ولا خروج عن القياس الصرفى ، كما

---

(١) شروح التخليص ١٢٢/١

تكون مجموع كلماته متآلفة بعضها مع بعض ، وأجزاؤه متناسبة يرتبط بعضها ببعض ويشد بعضها بعضا ، فيصير الكلام حلوا ، ويصبح بليغا .

فإذا قلت هذا « كلام بليغ » لم نصفه بالبلاغة من حيث إنه لفظ وصوت ، بل باعتبار إفادته المعنى ، والوصول إلي الغرض المصوغ له الكلام ، أو كما يقول عبد القاهر الجرجانى «البلاغة ليست من صفات المفردات من غير اعتبار التركيب(١)» أى لا تقتصر على اللفظة المفردة وحدها ، وإنما تشملها مع غيرها من حيث التركيب، وإفادة المعنى.

إذاً فالبلاغة تقوم على دعامتين :

الأولي : تقويم الألفاظ مفردة ومركبة ، فربما كان اللفظ متنافرا ، أو غريبا أو مستكرها ، وربما كان التركيب فى ذاته عسرا معقدا ، والتأليف ضعيفا مستقبحا .

والثانية : فى تركيب الألفاظ بكيفية معينة لتؤدى معنى خاصا مناسبا للمقام الذى اجتلبت من أجله ، ولا يكفى أن تكون الألفاظ فصيحة منسجمة عند النطق بها بل ينبغى أن نراعى فيها أحوال السامعين ، ولذلك كانت مراتب تأليف الكلام ثلاثاً:

المرتبة العليا التى تبلغ حد الإعجاز ، وتتمثل فى القرآن الكريم ، من حيث الألفاظ ، والمعانى ، والنظم ، ومطابقة الأحوال المختلفة ، وحسن التعبير ، وقوة التأثير.

والمرتبة السفلى : إذا خلا الكلام من صفات البلاغة والفصاحة ، وهبط إلى مرتبة معينة ، بحيث إذا هبط درجة عن هذه المرتبة التحق بأصوات البهائم.

والمرتبة الوسطى : ما بين هاتين المرتبتين ، وهى متفاوتة فى قيمتها ، فتبلغ مراتب كثيرة ، يعلو بعضها بعضا بحسب تفاوت المقامات ، ورعاية الاعتبارات ، والبعد عن أسباب الإخلال بالفصاحة (٢) .

---

(١) عروس الأفراح ١/١٢٢

(٢) النكت فى اعجاز القرآن الرمانى ٨٧ - ٨٨ ، وشرح المختصر للتفتازانى ١/٢١ وشروح التلخيص ١/١٤١ .

ويتبع بلاغة الكلام محسنات لفظية ومعنوية ، تورثه حسنا وجمالا ، وتزيده جودة ومكانة .

**بلاغة المتكلم :**

ملكة ومقدرة يستطيع بواسطتها تأليف كلام فصيح بليغ .

فالبلاغة تشمل الفصاحة سواء فى الكلام أو فى المتكلم ، فإذا كان الكلام أو المتكلم بليغا فهو فصيح ضمنا ، إذ لابد فى البلاغة من فصاحة الكلام والمتكلم. فالبلاغة أخص من الفصاحة ، كما أن الإنسان أخص من الحيوان ، وكما لا نستطيع أن نقول كل حيوان إنسان ، كذلك لا نستطيع أن نصف كل كلام أو متكلم فصيح بأنه بليغ .

ومعرفة البلاغة تؤدى إلى تجنب الخطأ فى تأدية المعنى المقصود ، فلا يكفى أن تكون الألفاظ فصيحة ، بل ينبغى أن تكون أيضا مطابقة لمقتضى الحال.

ومعرفة البلاغة ترشدنا إلى تمييز الكلام الفصيح من غيره ، فلا يكفى أن يكون الكلام مطابقا للحال ، بل ينبغى أيضا أن تكون مفرداته ، وطريقة تركيبها فصيحة متآلفة.

وتتميز الكلام الفصيح من غير الفصيح ينكشف بعضه عن طريق اللغة كالغرابة فى الألفاظ.

وبعضه عن طريق علم التصريف كمخالفة القياس ، إذ به يعرف أن لفظ (الأجلّ) مثلا هو القياس ، وأن (الأجلل) مخالف للقياس . وبعضه ينكشف عن طريق علم النحو : كضعف التأليف فى : ضرب غلامُه زيدا ، والتعقيد اللفظى كقول الشاعر :

**صان اللئيمُ وصنت وجهىَ ماله ... ونى فلم يبـــذل ولم اتبـــذّل**

والكلام المخل بالفصاحة ، بعضه يدرك بالذوق والشعور كالتنافر فى الكلمة أو الكلمات . فالإحساس والذوق والشعور هو الذى يحكم بأن (مستشزرات) بمعنى مرتفعات نابية ، متنافرة ، بخلاف الكلمة الأخرى التى تدل على معناها .

وأن قول الشاعر :

**وقـــبـــر حـــرب بمكان قـــفـــر          وليس قـــرب قـــبـــر حـــرب قـــبـــر**

بأنها متنافرة ، ثقيلة علي اللسان ، عسرة النطق .

والتعقيد المعنوى ينكشف عن طريق علم البيان.

أمـا الفن الذى يحـتـرز بـه عن الخطـأ في تأدية المـعنى المـراد ، فـقـد وضع البلاغيون له (علم المعانى) .

# الفصـل الأول

ويشمل :

١ -علم المعانى .

٢- المجاز العقلى .

٣- التقـــديم .

٤- الخبر والإنشـــاء .

# مباحث من علم المعانى

علم المعانى : هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال .

فأحوال اللفظ هى الأمور التى تعرض له من التقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير ، والذكر والحذف ، إلى غير ذلك.

ومعنى مطابقة الحال : أن يكون اللفظ مطابقا لأحوال المخاطب ، فقد يكون خالى الذهن عن الموضوع كلية ، وقد يكون شاكا فى هذا الموضوع ، وقد يكون منكرا له تماما ، وكل حالة من هذه الأحوال تقتضى طريقة معينة من التعبير تنطبق على حالة المخاطب .

وعلم المعانى ينحصر فى ثمانية أبواب :

١ - أحوال الإسناد الخبرى .

٢ - أحوال المسند إليه .

٣ - أحوال المسند .

٤ - أحوال متعلقات الفعل .

٥ - القصر .

٦ - الإنشاء .

٧ - الفصل والوصل .

٨ - الإيجاز والإطناب والمساواة .

وسبب انحصار علم المعانى فى هذه الأبواب الثمانية : أن الكلام قسمان : خبر وإنشاء ، فالخبر : ما يحتمل الصدق والكذب لذاته ، أى بقطع النظر عن الذى ينطق بالخبر سواء أكان مقطوعا بصدقه أو كذبه ، وبقطع النظر عن الواقع : كالسماء فوقنا والأرض تحتنا ، فهذه بديهات لا يشك أحد فى صدقها ، ولكننا نعتبرها خبرا بالنظر إلى ذات الكلام نفسه ، دون اعتبار لشىء آخر ، فالعبرة بالكلام نفسه ، إذا احتمل الصدق والكذب ، أمكن أن يقال لقائله إنه صادق فيه أو كاذب ، وسمى خبرا ، مثل : المال نعمة ، والسفر مفيد ، فهذا كلام يمثل الصدق والكذب ، لأن المال ربما كان نعمة ، وربما كان نقمة ، والسفر ربما كان مفيداً ، وربما كان ضارا ، فالقطع بصدق هذا القول ، أو كذبه أمر غير محقق .

والإنشاء : ما لا يحتمل الصدق والكذب لذاته ، ولا يصح أن يقال لقائله إنه صادق فى قوله أو كاذب كقولك : أنصت إلى الدرس ، ولا تتدخل فيما لا يعنيك ، فالأمر بالإنصات ، والنهى عن التدخل فى غير ما يعنيك ، لا يحتمل صدقا ولا كذبا، لأنه لا يفيدنا حصول شىء أو عدم حصول هذا الشىء ، وإنما هو يأمر فقط ، أو ينهى فحسب .

والخبر لابد له من مسند إليه ، ومسند ، وإسناد ، مثل : محمد مسافر ، فمحمد مسند إليه ، ومسافر مسند ، ونسبة السفر إلى محمد هى الإسناد ، فهذه ثلاثة أبواب .

والمسند قد يكون فعلا ، فتأتى له بمتعلقات له بمتعلقات مثل محمد يأكل ، فإذا وضعنا معه ما يتعلق به كالمفعول قلنا محمد يأكل طعامه ، أو يشرب دواءه ، فأحوال متعلقات الفعل هى الباب الرابع .

والإسناد قد يأتى بقصر ، وأحيانا بغير قصر ، مثل ما المريض إلا نائم ، والمريض نائم ، وهذا هو الباب الخامس . والإنشاء هو الباب السادس وقد مرت أمثلته .

والجملة إذا اقترنت بجملة أخرى ، فالثانية إما أن تكون معطوفة على الجملة الأولى ، أو غير معطوفة ، فهذا هو الفصل والوصل ، مثال الفصل قوله تعالى :

﴿ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾ (الشعراء : ١٣٢-١٣٣) (١) . ومثال الوصل كقول اعرابى للرسول ﷺ « أعطنى يا محمد » فقال : « لا وأستغفر الله ». والفصل والوصل هو الباب السابع .

وإما أن يكون الكلام زائدا لفائدة ، أو ناقصا لفائدة ، أو غير زائد ولا ناقص ، وهو الإطناب والإيجاز والمساواة ، وهذا هو الباب الثامن والأخير .

## أغراض الخبر

يقصد المتكلم من إلقاء الخبر إما :

إلى إفادة المخاطب كأن تقول لزميلك الذى يترقب ظهور النتيجة ، ظهرت النتيجة ، وللنائم طلعت الشمس . وكقول الرسول ﷺ « الدين المعاملة » ، «البر حسن الخلق» فلا شك أن هذه الأمثلة توضح أن المتكلم أراد إخبار المخاطب بهذه الأمور ، لأنه يجهلها . وهذا يسمى فائدة الخبر .

وإما أن يكون المخاطب عالما بالخبر محيطا به ، وليست لديه حاجة إلى معرفته ، ولكن المتكلم يلقى عليه الخبر ، ليحيطه علما بأنه هو نفسه يعرف هذا الخبر ، فالمخاطب فى هذه الحالة لم يعرف خبرا كان يجهله من قبل ، وإنما عرف فقط أن المتكلم يعرف مثله هذا الخبر أيضا ، وهذا هو قصد المتكلم وغايته ، فالسيدة خديجة رضي الله عنها تقول للرسول «إنك لتصدق فى الحديث ، وتصل الرحم ، وتؤدى الأمانة » ، وهى فى ذلك لم تخبر الرسول ﷺ شيئا لا يعرفه فهو يعلم عن نفسه أنه صادق فى حديثه ، موصل لرحمه ، مؤد للأمانة ، ولكن الشىء الجديد فى هذا الخبر أن السيدة خديجة أعلمته أنها تعرف عنه هذا الخلق.

ومثله ما يقوله المتنبى يمدح سيف الدولة :

**طلبتَهُمُ على الأمواه حتى ... تخوفَ أن تفتشَه السحابُ**

فالمتنبى لا يخبر سيف الدولة حكما جديدا كان يجهله من قبل . وكيف ذلك ،

---

(١) الشعراء ١٣٢ ، ١٣٣

وهو الذى تعقب العدو بنفسه ، واستأصل شأفته ، ولكن المتنبى أراد أن يخبره أنه عالم بهذا الحكم ، وكقولك لمن يحفظ القرآن : قد حفظت القرآن .

وهذا يسمى لازم الفائدة.

فإلقاء الخبر إذن يكون لغرضين :

الأول : إفادة الخبر .

الثانى : لازم فائدة الخبر.

وقد يخرج الخبر عن هذين الغرضين الأساسيين :

فيأتى لإظهار التحسر مثل قوله تعالى : ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ (١).

والضعف مثل قوله تعالى : ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ (٢) .

والمدح كقول النابغة :

**فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهم كوكب**

والذم كقول المتنبى يهجو كافور :

**وتعجبنى رجلاك فى النعل إننى ... رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا**

والفخر كقول عمرو بن كلثوم :

**إذا بلغ الفطام لنا صبى ... تخر له الجبابر ساجدينا**

إلى غير ذلك من هذه الأغراض التى تتضح من سياق الكلام.

## أضرب الخبر

يلقى الخبر بحسب حالات المخاطب :

١ - فإن كان المخاطب خالى الذهن عن الحكم ، وليس مترددا فيه ، ولا منكرا له ، ألقى إليه الكلام دون تأكيد ، لأن الكلام يتمكن بسهولة إذا صادف ذهنا خاليا ، ويسمى هذا الضرب : ابتدائيا .

---

(١) آل عمران ٣٦

(٢) مريم ٤

كقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٢).

وقول الرسول : « شر الناس الذين يكرمون اتقاء ألسنتهم ».

ومثل ذلك أيضا : الغنى مكرم ، والعفيف محترم.

هذه الأمثلة وما شابهها ليس فيها تأكيد ، لأنها ليست في حاجة إلى التأكيد ، والمخاطب لا يشك ، ولا ينكر حكم هذه الأمثلة ، فهو لا يتردد ولا ينكر أن الله له ما فى السموات وما فى الأرض ، وأن المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، وأن سليط اللسان من شرار الناس ، وهكذا .

٢ - وأحيانا يكون الخاطب شاكا فى الحكم مترددا فى قبوله ، فيحسن عندئذ أن نؤكد له الكلام بمؤكد واحد لنزيل منه الشك ، ونمحو التردد ، ويتمكن الخبر من نفسه ، ويسمى هذا الضرب : طلبيا .

مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (٣) .

ومثل : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾(٤).

ومثل قوله تعالى فى شأن ذى القرنين : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ (٥).

وكقولهم فى المثل : « إن البلاء موكل بالمنطق » أو كقولهم : « إن مع السفاهة الندامة ».

٣ - وأحيانا يكون المخاطب منكرا للخبر الذى سيلقى إليه ، بل ربما كان معتقدا عكسه ، عندئذ ينبغى أن يكون إلقاء الخبر إليه مصحوبا بتأكيدين أو أكثر حسب حالته فى الإنكار قوة وضعفا ، ويسمى هذا الضرب : إنكاريا .

---

(١) النجم ٣١
(٢) الكهف ٤٦
(٣) النحل ٩٠
(٤) المائدة ٩٠
(٥) الكهف ٨٤

كقول الرسول عليه السلام : « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكمة».

وتقول للمنكر قدوم أخيه المسافر : إن أخاك لقادم ، أو والله إن أخاك لقادم، ففى المثال الأول أتى بمؤكدين وهما : إن واللام ، وفى المثال الثانى أتى بثلاثة مؤكدات : وهى القسم وأن واللام ، لأنه فى الحالة الثانية كان أشد إنكارا من الحالة الأولى ولذلك يقول الله تعالى حكاية عن رسل عيسى عليه السلام حين كذبوا ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ (١) ، وفى المرة الثانية ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (٢) ، فالتأكيد فى الأولى بأن واسمية الجملة ، وفى الثانية أضاف إلى هذين المؤكدين القسم واللام لمبالغة المخاطبين فى الإنكار.

وأدوات التوكيد كثيرة منها : إن ، وأن ، وقد ، والقسم ، ولام الابتداء ، وأحرف التنبيه وهى (ألا - أما - ها - يا) ونونا التوكيد ، والحروف الزائدة مثل : (من والباء) وأما الشرطية ، والتكرار ، وضمير الفصل ، واسمية الجملة .

فأضرب الخبر إذن ثلاثة : ابتدائى - طلبى - انكارى.

ويسمى إخراج الكلام على هذه الأضرب الثلاثة : إخراج الكلام على مقتضى الظاهر.

وقد يكون الكلام جاريا على خلاف مقتضى الظاهر ، لاعتبارات يلحظها المتكلم :

أ - كأن ينزل خالى الذهن الذى لا يحتاج الخطاب معه إلى توكيد منزلة السائل المتردد الذى يحسن توكيد الكلام له ، وذلك إذا قدم للمخاطب ما يلوح له بالخبر ، عندئذ يتطلع المخاطب تطلع السائل المتردد .

ففى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (٣). فالمخاطبون فى هذه الآية لا ينكرون غفران الله للذنوب. ولا يشكون فى ذلك ، فكان حق الكلام أن يكون خلوا من التأكيد. ولكنه قال مؤكدا : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ، لأنه نزل خالى الذهن منزلة المتردد نظرا

(١) يس ١٤
(٢) يس ١٦
(٣) الزمر ٥٣

لأنهم أسرفوا على أنفسهم ، فشملهم اليأس من المغفرة ، فصاوروا كالمترددين فى أن الله يغفر ذنوبهم على كثرتها وبشاعتها ، فأكد القرآن الخطاب لهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (١) ، فالمخاطب لا ينكر ولا يتردد فى القول بأن النفس تغرى بارتكاب الاثم ، وتأمر بالسوء ، فكان حق الكلام أن يأتى بدون توكيد ، ولكن تقدم فى الكلام ما يدعو للتساؤل ، فلماذا لا يبرئ ، نفسه ؟ فنزله منزلة السائل المتردد ، فحسن عندئذ تأكيد الكلام له .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ (٢)، فمطلع الآية يدعو إلى التساؤل : لماذا لا يخاطب ربه فى شأن الظالمين ؟ ولماذا ينهاه عن التماس الشفاعة لهم ؟ فنزله منزلة السائل المتردد ، فأكد الكلام وقال : « إنهم مغرقون »، ولولا هذا الاعتبار لقال : « هم مغرقون » بدون تأكيد .

وهكذا الشأن فى قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (٤) .

وغير ذلك مما ترى فيه الكلام قد أكد بمؤكد واحد بسبب ما لاحظه المتكلم فى المخاطب ، وما يدور داخل نفسه من تساؤل ، على الرغم من أنه لم يلفظ بالسؤال .

٢ - وقد ينزل غير المنكر منزلة المنكر : إذا لاح على المخاطب شىء من علامات الانكار فينبغى الانكار فينبغى حينئذ أن يؤكد له الكلام حتى يقتنع بما يلقيه عليه المتكلم من مقال ، فالله يقول فى شأن الكافرين ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾(٥)، فكل إنسان على يقين من موته ، وأن أحدا لن يخلد على هذه الأرض ،

---

(١) يوسف ٥٣
(٢) هود ٣٧
(٣) الذاريات ٥٥
(٤) هود ٩٠
(٥) المؤمنون ١٥

ولكنهم لما ظلوا سادرين فى كفرهم وضلالهم غير متعظين بالموت الذى ينال كل حى ، فكانهم ينكرون الموت إنكارا ، فلزم عندئذ أن ينزل المخاطبين منزلة المنكرين فأكد الكلام بأكثر من مؤكد : أى بأن واللام ، وكقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١) ، فالمؤمنون لا ينكرون غفران الله ورحمته ، ولكنهم لما أهملوا فى دينهم تخوفوا من عقاب الله ، وصاروا كأنهم ينكرون غفران الله لذنوبهم ، فنزلوا منزلة المنكرين فأكد لهم الكلام بان واللام .

ومن هذا القبيل قول حجل بن نضلة القيسى :

جاء شقيق عارضاً رمحه إبنى عمك فيهم رماح

فشقيق ابن عم الشاعر لا ينكر قوة بنى عمه ، وما لديهم من رماح ، ولكنه حين جاء مزهوا بنفسه ، مستعرضا رمحه ، فكأنه ينكر أن بنى عمه فيهم رماح ، ولديهم سلاح ، فوجب أن يؤكد الكلام ليوقظ فيه الشعور بقوة شكيمتهم ، وقدرتهم على النزال والعراك.

٣ - وقد ينزل المنكر منزلة غير المنكر : إذا توافرت القرائن والعلامات التى لو تأملها لرجع عن إنكاره ، وارتد عن جحوده ، كقول الله عز وجل فى خطابه للكافرين الملحدين بالقرآن ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٢)، فقد جاءت الآية خالية من التأكيد، مع أن الكافرين منكرون للكتاب وصحته ، ولكنه نزلهم منزلة غير المنكرين ، لأنهم لو تأملوا القرآن ، واستعملوا عقولهم وبرئوا عن التحيز ، لاعتقدوا صدق الكتاب وآمنوا به .

ومنه قوله : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ (٣)، يقول ذلك الكافرون الذين ينكرون وحدانية الله ، ويعتقدون تعدد الآلهة ، فكان ينبغى أن يأتى الكلام مؤكدا ، ولكنه

---

(١) النحل ١١٠

(٢) البقرة ٢

(٣) البقرة ١٦٣

جاء بدون تأكيد ، ونزلهم منزله غير المنكرين ، لأن البراهين كلها تثبت وحدانية الله ولو تفحصوها لرجعوا عن هذا الزعم ، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .

ولاشك أن إخـراج الكلام على خـلاف مـقـتـضى الظاهـر لهـذه الاعـتـبـارات المناسبـة التى ذكرناها يعتبر شعبة من شعب البلاغة ، وسبيلا إلى توفية الكلام حقه، باستبطان دخيلة المخاطب ، والتغلغل إلى أعماق نفسه ، وكشف الستر عنها ، وتعريتها واضحة أمام العيون .

# المجـــاز العقـــلى

**ينقسم الإسناد إلى قسمين :**

١ - أن يسند الفعل أو ما فى معناه - كالمصدر واسم الفاعل واسم المفعول إلى غير ذلك مما هو فى معنى الفعل - إلى ما هو له فى الحقيقة ، كقولك: نصر الله الجند . فاسناد النصر إلى الله عز وجل هو إسناد حقيقى ، لأن النصر قد جاء من قبل الله حقيقة ، وهذا يسمى حقيقة عقلية ، وقس على ذلك : أنزل الله الغيث .

٢ - وأحياناً يسند الفعل أو ما فى معناه إلى غير ما هو له فى الحقيقة ، كقولك : « أنبت الربيع العشب » ، فإسناد الإنبات للربيع إسناد لغير ما هو له فى الحقيقة ، أى إسناد مجازى ، ويسمى هذا الضرب من التعبير « مجازا عقليا » ، وقس على ذلك قوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم » ، فأسند الربح للتجارة ، والتجارة لا تربح ، وإنما الذى يربح هو التاجر ، فإسناد الربح إلى التجارة مجاز ، ويسمى كالمثال السابق مجازا عقليا ، وإن شئت فسمه (مجازا حكميا) وسمى مجازا عقليا ، لأن العقل هو الذى يتصرف فى هذا الإسناد (١) ، أو مجازا حكميا ، لأن المجاز ليس فى ذات الكلمة ، ولا فى نفس اللفظ ، انظر إلى قوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم » ، ترى المجاز ليس فى لفظة ربح نفسها ، ولكن فى الحكم الذى جرى عليها وإسنادها للتجارة (٢)، هذا اللون من التعبير تحدث عنه سيبويه فى الكتاب (٣)، والمبرد فى الكامل (٤)، دون أن يضعا له هذا الاسم ، وإنما اكتفى كل منهما بالإشارة إليه ، والتنويه بشأنه.

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٢٣١/١

(٢) الدلائل ٢٢٨ ، والأسرار ٤٥٠

(٣) الكتاب ١٦٩/١

(٤) الكامل ١١٨/١

غير أن عبدالقاهر الجرجانى ذكر له أسماء متعددة [1]، وتحدث عنه تفصيلا، وأظهر ما فيه من روعة ، بل اعتبره كنزا من كنوز البلاغة ، ومادة الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ فى الابداع والإحسان والاتساع فى طريق البيان ، «وتابعه على ذلك الجهابذة من أهل هذه الصناعة » [2] .

ولكننا نرى السكاكى ينكر المجاز العقلى ، وينظمه فى سلك الاستعارة المكنية، وبذلك يخرجه من علم المعانى ، ويدخله فى علم البيان ولتوضيح ذلك انظر إلى المثال : « أنبت الربيع البقل » ، قلنا إن الإسناد هنا ليس حقيقيا ، لأن الفاعل الحقيقى هو الله القادر ، فكأن الربيع هنا فاعل مجازاً أو حاصل كلامه « إنه يشبه الفاعل المجازى وهو الربيع ، بالفاعل الحقيقى وهو القادر المختار فى تعلق الفعل بهما ، ثم يحذف المشبه به ، ويرمز إليه بشىء من لوازمه وهو الإنبات على سبيل الاستعارة بالكناية » [3].

ولكن الخطيب القزوينى فى نهاية حديثه عن المجاز العقلى يستنكر ما ذهب إليه السكاكى من اعتبار مثل هذا التعبير استعارة بالكناية ، وإدخاله فى علم البيان ، فنراه يخرجه من علم البيان ويدخله مرة أخرى فى علم المعانى » [4].

**وللمجاز العقلى علاقات مختلفة نذكر أشهرها :**

**١ - الإسناد إلى السبب :**

مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [5] ، أسند الذبح إلى فرعون .

**٢ - الاسناد إلى الزمان :**

مثل قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ، فأضاف أو أسند المكر إلى الليل

(١) الدلائل ٢٢٧ ، والأسرار ٤٤١
(٢) الطراز العلوى ٢٥٧/٣
(٣) شرح المختصر للتفتازانى ٥٩/١
(٤) الايضاح ٢٧٢/١
(٥) القصص ٤

والنهار ، وكلاهما لا يصح أن يقع منه المكر ، ولكن المكر يقع فى الليل والنهار ، فهو مجاز عقلى علاقته الزمانية .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ (١) والنهار لا يبصر ، وإنما يبصر القوم فى النهار ، فالعلاقة الزمانية .

وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ (٢) واليوم لا يوصف بأنه عاصف ، وإنما الريح هى التى تعصف خلال اليوم .

ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣) ، فوصف اليوم بأنه عظيم ، وذلك لوقوع الشدة العظيمة فيه ، فهو مجاز عقلى علاقته الزمانية .

كما وصف اليوم بالعبوس فى قوله تعالى : « إنا نخلف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » (٤) ، فوصفه بصفة أهله من الأشقياء .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ (٥) ، فأسند فعل المشيب إلى اليوم إسنادا مجازيا ، لأن المشيب يقع فى ذلك اليوم.

ومثله : فلان نهاره صائم وليله قائم ، لأنه يصوم فى النهار ، ويقوم فى الليل.

ومنه قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾(٦) ، أسند الربح للتجارة ، والتجارة لا تربح ، وإنما هى سبب الربح ، فهذا مجاز عقلى علاقته السببية .

---

(١) يونس ٦٧
(٢) ابراهيم ١٨
(٣) الأعراف ٥٩
(٤) الكشاف ١٩٦/٤ ، الدهر ١٠
وأنظر النظم القرآنى ١٨٨
(٥) المزمل ١٧
(٦) البقرة ١٦

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً ﴾(١)، أسند زيادة النفور إلى النذير ، وهو إسناد مجازى علاقته السببية .

ومثله قوله : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ (٢) .

ومنه قوله : ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾(٣) ، فموسى عليه السلام يريد من قوله أن يصدقوه ، ويكون أخوه سببا فى هذا التصديق فإسناد يصدقنى إلى هارون إسناد مجازى ، أو مجاز عقلى علاقته السببية .

ومن هذا النوع قول الرسول ﷺ : « وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » ، فحصائد الألسن ليست هى الفاعل الحقيقى في كبهم فى النار ، وإنما هى سبب هذا العقاب .

وقول المتنبى :

**وتحيى له المالَ الصوارم والقنا**
**ويقتل ما تحيى التبسم والجدا**

فالصوارم والقنا لا تحيى المال ، وإنما هى سبب فى الأحياء.

والتبسم والجدا لا يقتل المال ، وإنما هى سبب فى القتل .

ويمكن أن نقول منك ذلك في نحو بنى سليمان الهيكل ، وأقام المهندس الصرح ، واقتلعت الريح الشجر .

ومثله : قضى ليلة ساهرة ، وأمضى ليلة مقمرة ، لأن الليلة زمان السهر ، وزمان أقمار القمر .

وكقول أبى البقاء الرندى :

**هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان**

(١) فاطر ٤٢
(٢) الأنفال ٢
(٣) القصص ٣٤

فالأزمان لا تقدم مسرة ولا إساءة ، وإنما الحوادث التى تجرى فى الزمن هى التى تفعل ذلك.

**٣ - الإســـناد إلى المكان :**

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ ﴾ (١) ، فالنهر اسم للوادى الذى تجرى فيه الأمواه ، وهى لا تجرى ، وإنما الذى يجرى هو الماء ، والأنهار مكان له ، فالإسناد هنا مجاز عقلى ، علاقته المكانية .

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾(٢) فالأرحام لا تغيض ولا تزداد ، وإنما الذى يطلق عليه هذا الوصف هو الجنين الذى بداخل الرحم . وجعل الرحم مكانا له .

قال تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ (٣) ، أسند الاخراج إلى الأرض مجازا، لأن المخرج هو الله سبحانه وتعالى ، والأرض مكان الاخراج.

ومثل ذلك : سال الوادى – وازدحم الطريق – وأذل المشركين موقعة بدر .

**٤ - الإســـناد إلى المصـــدر :**

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ (٤)، فاسند الفعل إلى المصدر إسنادا مجازيا ، ولم يسنده إلى الفاعل الحقيقى . وهو النافخ ، فهو مجاز عقلى علاقته المصدرية .

ومنه قوله أبى فراس الحمدانى :

**سيذكرنى قومى إذا جَدَّ جَدُّهم ... وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر**

فاسند الفعل إلى المصدر ، وجدهم ليس هو الفاعل الحقيقى ، وإنما الفاعل هو الجاد – أى الرجل الذى يجد – فالإسناد هنا مجاز عقلى ، والعلاقة المصدرية.

---

(١) الأنعام ٦

(٢) الرعد ٨

(٣) الزلزلة ٢

(٤) الحاقة ١٣

وقال الشاعر :

تكاد عطاياه يجن جنونها    إذا لم يعوذها برقية طالب

فأسند هنا الفعل إلى المصدر ، إسنادا مجازيا، لأن الفاعل هنا ليس حقيقيا، والعلاقة المصدرية .

ومثل ذلك : عظمت عظمته – وثارت ثورته – وضل ضلاله ، فكل مثال أسند فيه الفعل إلى مصدره إسنادا مجازيا من إسناد الفعل إلى المصدر ، وهو ليس الفاعل الحقيقى ، بل الفاعل الحقيقى هو الرجل الذى يتعاظم ، ويثور ، ويضل ، والعلاقة المصدرية .

**٥ - الإسناد إلى المفعول :**

(أى إسناد ما بنى للفاعل إلى المفعول) :

قال تعالى : ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ (١) ، فعاصم بمعنى معصوم ، فاسم الفاعل بمعنى اسم المفعول ، فكأنه أسند اسم الفاعل المذكور إلى ضمير اسم المفعول ، وهو المعنى المقصود ، وما كان كذلك فهو مجاز عقلى علاقته المفعولية .

قال تعالى : « أو لم نمكن لهم حرما آمنا » ، فهذا إسناد مجازى ، لأنه أسند الأمن إلى الحرم ، وكان حقه أن يسند إلى أهل الحرم ، فأمن هنا بمعنى مأمون ، واسم الفاعل بمعنى اسم المفعول ، فكأنه أسند اسم الفاعل إلى ضمير اسم المفعول، فهو مجاز عقلى ، وعلاقته المفعولية .

ومن الإسناد العقلى قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾(٢) ، أى فى عيشة مرضية ، لأن الذى يرضى هو صاحب العيشة ، وليست العيشة نفسها ، فاسم الفاعل بمعنى اسم المفعول ، فهو مجاز عقلى علاقته المفعولية.

---

(١) هود ٤٣

(٢) القارعة ٦ ، ٧

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [1] ، فالناصية لا توصف بأنها كاذبه ولا خاطئة ، وإنما الذى يوصف بالكذب والخطأ فى الواقع هو صاحب الناصية ، فهو مجاز عقلى علاقته المفعولية.

ومثل ذلك . منزل عامر - وأمر يائس - وطريق مضىء .

فالمنزل يكون معمورا ، والأمر ميئوس منه ، والطريق مضاء .

**٦ - الإسناد إلى الفاعل :**

هو أن يسند الفعل المبنى للمفعول إلى الفاعل نحو قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ (الاسراء :٥٤) فمستور هنا بمعنى ساترا ، لأن الحجاب ساتر ، وليس مستورا ، فاسم المفعول هنا مسند إلى ضمير اسم الفاعل الذى هو بمعناه ، وهذا من المجاز العقلى ، وعلاقته الفاعلية .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾ (مريم :٦١) ، أى آتيا ، فاسند اسم المفعول وهو « مأتيا » إلى ضمير اسم الذى جاء بمعناه وهو آت ، وعلاقته الفاعلية.

ومن ذلك : ماء مغمور ، وسيل مفعم ، فالماء لا يكون مغمورا ، بل غامرا ، والسيل مفعِما ، فاسم المفعول هنا بمعنى اسم الفاعل ، فهو مجاز عقلى علاقته الفاعلية.

وربما أتى المجاز العقلى وقصد به التهكم والسخرية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (هود:٧٨) ، فالصلاة لم تأمر شعيبا بترك عبادة الأوثان ، وإنما الذى أمره هو الله سبحانه وتعالي ، ولكنهم جعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته التى يداوم عليها ليله ونهاره .

ومن ذلك قوله تعالى : « بئسما يأمركم به إيمانكم » ، فأسند الأمر إلى الإيمان متهكما كما فعل فى الآية السابقة » [2] .

---

(١) العلق ١٦

(٢) الكشاف ٢/٢٨٦ ، ١/٢٩٧

ومما يدخل فى المجاز العقلى ، وإن لم يقصد به الهزء والسخرية قوله تعالى: « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، وقولهم : إن الصلاة تأمر بالجميل ، وتدعو إليه وتبعث عليه .

والمجاز العقلى ليس مختصا بالخبر ، وإنما يجرى فى الإنشاء أيضا كقوله تعالى : « يا هامان ابن لى صرحا » حكاية عن فرعون ، فهامان لا يبنى بنفسه ، وإنما العمال هم الذين يقومون بالبناء ، ومن هذا القبيل « لعل العيشة ترضى ، والنهار يصوم ، والنهر يجرى ، والجد يجد ، وكذا فى التمنى فنقول : ليت النهر جار وليت الليل قائم » (١).

ومن الأمثلة التى ذكرناها فى المجاز العقلى تبين أنه يجرى بكثرة فى القرآن الكريم ، الذى يتبع فى تعبيره أساليب العرب المألوفة ، ولاشك أن التعبير به حسن مألوف، وضرب من البلاغة ، وما به من قرينة تمنع توهم الكذب « وفى هذا رد على الظاهرية الذين ينكرون وجود المجاز فى القرآن لما فيه من توهم الكذب » (٢).

**وللمجاز العقلى أثره وبلاغته فى التعبير :**

فيه الإيجاز : فإذا قلت : كسا الأمير الكعبة ، فلاشك أن هذا التعبير أوجز من قولك كسا العمال الكعبة بإذن من الأمير .

وفيه المهارة والتركيز فى اختيار العلاقة (٣) أيا كان نوعها ، فإذا قلت : يجرى النهر ، فإنك تصور جريان الماء داخل النهر وفى حيزه ، وليس فى كان آخر ، وإذا أنعمت النظر ألفيت فيه لونا من المبالغة ، فقد جعلت النهر بضفافه ومائه ، وكل ما يحتويه يجرى ، وليس الماء وحده ، أى أنه جعل الماء بجملته نهرا ، حتى كأنه قد تجسد فيه .

وقد يكون من مقاصد المجاز العقلى دفع التهمة عن الفاعل الحقيقى ، فيسند الفعل إلى سببه كما قالوا « فلان قتله جهله » كأنما يريدون أن يبرئوا قاتله

(١) شروح التلخيص ٢٥٥/١

(٢) القزوينى وشروح التلخيص ٢٦٧

(٣) البلاغة الواضحة ١٢٢ ط١٥ ، جواهر البلاغة ٣٠١ ط١٢ بيروت .

من جريرة قتله ، وشبيه بهذا ما روى فى قصة عمار بن ياسر عندما قتل ، فرددوا ما قاله الرسول : « قتلته الفئة الباغية » ، فقال لهم معاوية « إنما قتله من أخرجه » فوجد فى المجاز دفعا للتهمة عن جماعات (١).

وهكذا إذا تقصيت علاقات المجاز العقلى ألفيت فى كل علاقة سببا يتصل بالبلاغة مؤكدا ما قاله عبد القاهر الجرجانى إمام البلاغة « إن هذا الضرب من المجاز على جدته كنز من كنوز البلاغة ، ومادة الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ فى الإبداع والإحسان ، والاتساع فى طريق البيان ، وإنه يجىء بالكلام مطبوعا ومصنوعا ، وأن يضعه بعيد المرام ، قريبا من الإفهام .. وإنه يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ »(٢) .

ولكن الدكتور طبانة حين أراد أن يحكم على هذا النوع من المجاز ، لم ينظر إليه من خلال الكتب الفنية التى لم تفسدها التقسيمات المنطقية ، والعلل الكلامية، لم ينظر إليه فى كتب ابن جنى ، ولا فى كتب الجرجانى ، وإنما نظر إليه من خلال الشروح ، فقال : « ليت لهذا البحث شيئا من الأثر فى صناعة الأدب أو فى النقد .. وهذا البحث أولى به أن يضم إلى مباحث علم الكلام » (٣) ، فحكم عليه هذا الحكم الجائر الذى لا يدل على شيء إلا على أنه قد حبس نفسه فى إطار المتأخرين الذين جففوا ينابيع البلاغة ، ولم يأخذ عنهم إلا تقسيماتهم وتفريعاتهم ، وتحديداتهم ومحترزاتهم ، دون أن يرنو ببصره إلى مدى أوسع من ذلك فيلتمس فى المجاز العقلى فنا وبلاغة كما رأيناه عند ابن جنى وكما حكم عليه عبد القاهر. ولو أن الباحث حكم الذوق الفطرى ، والإحساس الفنى ، لكان له رأى آخر أقرب إلى الصدق والواقع .

ومن المفيد أن نذكر شيئا عن الطريقة التى عالج بها ابن جنى المجاز العقلى والنظرة الفاحصة التى كشف بها عن قيمة هذا الفن وبلاغته ، نقول :

(١) كتاب البلاغة (علم البيان) ١٣٦ ط السعودية

(٢) الدلائل ٢٢٨ ، ٢٢٩

(٣) البيان العربى ٢٦٩ ، ٢٧٠

أما المجاز العقلى فقد استعان فيه ابن جنى بسيبويه والاستشهاد بأمثلته [١] بل إننا لا نغالى إذا قلنا إن معظم الشواهد التى ذكرها ابن جنى قد سبقه إليها سيبويه ، ولكنا نقول منصفين إن الفرق بين سيبويه وابن جنى فى هذا المضمار كالفرق بين من يعالج المثال فيرى فيه اتساعا واختصارا ، وبين من يضع القاعدة الكلية بحيث يسهل تطبيقها على أمثلة المجاز العقلى ، وهكذا كان ابن جنى فى تطوره بالمجاز العقلى ، فالوصف بالمصدر يرى فيه نوعا من المبالغة حتى أن الموصوف يصبح هو نفس الوصف ، ويوضح ذلك فى أكثر من موضع ، وأكثر من كتاب من كتبه كشأنه فى جميع الأبواب التى يتطرق إلى الحديث عنها ، وهو يستقى معنى المجاز العقلى من آراء النحاة فى الوصف بالمصدر ، فيقول : « إن أصبح ماؤكم غورا » أى غائرا ونحو قول الخنساء :

**فإنما هى إقبال وإدبار .**

فقد جعلتها نفسها هى الإقبال والإدبار ، أى مخلوقة منهما ، ولو قلنا إنما هى ذات إقبال وإدبار أو (مقبلة مدبرة) لأفسدنا الشعر على أنفسنا ، وخرجنا إلى شئ مسفول ، وإلى كلام عامى مرذول ، وما كان مثله من وصف بالمصدر نحو هذا رجل زور وصوم وما أشبه ذلك ، وإنما ساغ هذا ، لأنه أراد المبالغة ، وأن يجعله هو نفس الحدث لكثرة ذلك منه [٢].

فالوصف بالمصدر أكثر مبالغة من الوصف بالصفة ، لأن الوصف بالمصدر ينبئ عن الموصوف بأنه مخلوق من الفعل الذى وصف به ، وإنه معتاد فيه ، ودائم لديه ، ولا ينقطع منه أبدا . وفى ذلك مبالغة أى مبالغة ، بخلاف الوصف بالصفة الصريحة فإنه يعرى من هذا المعنى فيتجرد عن المجاز ، ولا يصل فى قيمته الفنية إلى تلك الدرجة التى وصل إليها الوصف بالمصدر ، فالوصف بالصفة أضعف معنى والبلاغيون إنما يتركز نشاطهم فى المعانى وما تشمله من مبالغات [٣] .

(١) انظر الكتاب ١/٨٠

(٢) الخصاص ٣/١٨٩ والدلائل ٢٣٣

(٣) أثر النحاة فى البحث البلاغى حتى نهاية القرن الخامس الهجرى د. عبد القادر حسين رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية ط٣ غريب .

# التقـــديـــم

فى باب شجاعة العربية - يفرد ابن جنى (ت ٢٩٣ هـ) فصلاً عن التقديم والتأخير ، يبين فيه ما يجوز تقديمه من المسائل النحوية وما لا يجوز ، وما يقبله القياس وما يرفضه ، فكان فى هذا الفصل نحويًا صرفًا ، دون أن يتجاوز النحو إلى البلاغة ، وبعد أن يفرغ من هذه القواعد النحوية فى كتابه الخصائص يخلب عقولنا بما يذكره من النكت البلاغية التى تتجلى فى بعض مواضع التقديم ، كتقديم المفعول به فى كتابه المحتسب مما نظن معه أن أحدا لم يساوقه فى هذا المضمار من البيان والعمق . وينبغى أن نروى عنه بإيجاز ما ذكره فى (الخصائص) ثم بما ثنى به من ملاحظات بلاغية فى (المحتسب) ، فابن جنى يذكر فى الخصائص أن التقديم على ضربين : أحدهما ما يقبله القياس ، والآخر ما يسهله الاضطرار [1].
فالأول كتقديم المفعول على الفاعل وعلى الفعل ، وكذلك ظرف الزمان والمكان ، والاستثناء يتقدم على الاسم دون الفعل ، فتقول ما قام إلا زيدا أحد ، ولا نقول : إلا زيدا قام القوم . كذلك يجوز تقديم الخبر على المبتدأ ، وخبر كان وأخواتها على أسمائها. وعليها نفسها ، كما يجوز تقديم المفعول له ، مثل : طمعا فى برك زرْتك .
**ولا يجوز تقديم المفعول معه نحو قولك والطيالسة جاء البرد ، لأن الواو هنا بمنزلة واو العطف فيقبح هذا كما قبح وزيد قائم عمرو ، كما قبح تقديم التمييز على المميز ، ولا يجوز تقديم نائب الفاعل ، كما لا يجوز تقدم الفاعل على الفعل . ويضع قاعدة عامة يقول فيها : وليس فى الدنيا مرفوع يجوز تقديمه على رافعه .**

فأما خبر المبتدأ فلم يتقدم عندنا على رافعه ، لأنه مرفوع بالمبتدأ والابتداء، فلم يتقدم الخبر عليهما معا ، وإنما تقدم على أحدهما وهو المبتدأ ، وبذلك لا

---

(١) الخصائص ٢/٣٨٢

تنتقض القاعدة ، كما لا يجوز تقديم الصلة على الموصول ، ولا التوابع كلها ما عدا عطف النسق وهو قليل ، والذى جوز التقديم فى عطف النسق كما فى قولك قام وعمرو زيد ، انك اتسعت فى الكلام قبل الاستقلال والتمام ، وسبب قلته أنه ضعيف من جهة القياس ، لأنك إذا قلت قام وزيد عمرو فقد جمعت أمام زيد بين عاملين : أحدهما قام ، والآخر الواو ، ألا تراها قائمة مقام العامل قبلها ، وإذا صرت إلى ذلك صرت كأنك قد اعملت فيه عاملين . كما لا يجوز تقديم المضاف إليه على المضاف ، ولا الجواب على المجاب سواء كان شرطا أو قسما . وبعد أن يفرغ ابن جنى من سرد هذه المسائل وأمثلتها ، وتعليل ما يستحق التعليل يقول : « فهذه وجوه التقديم والتأخير فى كلام العرب ، وإن كنا تركنا منها شيئا ، فإنه معلوم الحال ولاحق بما قدمناه »(١) .

وواضح أن ابن جنى في هذا الباب كله قد وقف عند سرد ما يتفق مع قواعد النحو ، وما يختلف عنها ، مراعيًا صحة القياس ، أو ضعفه ، أو فساده ، دون أن يذكر لنا أسباب بلاغة التقديم ، فإذا تقدم به الزمن ، وصنف (المحتسب) نراه يركز تركيزًا شديدًا على التقديم ، وخاصة تقديم المفعول ، ليبين أهميته البلاغية ، وقوله هو القول الفصل الذى لم يترك فيه للاحقين شيئا ، ويقتضينا هذا أن نسجل ما قاله ابن جنى فى بيان عناية العرب بالمفعول تسجيلا تاما نظرا لأهميته القصوى التى يمكن أن ينتفع بها دارسو البلاغة فى شتى أطوارها .

فأهمية المفعول عند ابن جنى تظهر فى ناحيتين ، الأولى : تقديم المفعول. والثانية : حذف الفاعل وإسناد الفعل إلى المفعول. ويشعر ابن جنى بأهمية ما يقول فى هذا الصدد ، ومبلغ ما به من خطورة فيقول : « ينبغى أن يعلم ما أذكره هنا . وذلك أن أصل وضع المفعول أن يكون فضله ، وبعد الفاعل . كضرب زيد عمرا ، فإذا عناهم ذكر المفعول قدموه علي الفاعل فقالوا ضرب عمرا زيد . فإن تظاهرت العناية به ، عقدوه على أنه رب الجملة ، وتجاوزوا به حد كونه فضله ، فقالوا : عمرو ضربه زيد ، فجاءوا به مجيئا ينافى كونه فضله .. ثم زادوه على هذه الرتبة فقالوا : عمرو ضرب زيد ، فحذفوا ضميره ونووه ، ولم ينصبوه على ظاهر أمره ،

(١) الخصائص ٢/٣٩٠

رغبة به عن صورة الفضلة ، وتحاميا لنصبه الدال على كون غيره صاحب الجملة ، ثم انهم لم يرضوا له بهذه المنزلة ، حتى صاغوا الفعل له ، وبنوه على أنه مخصوص به ، وألغوا ذكر الفاعل مظهرا أو مضمرا فقالوا ضرب عمرو ، فاطرح ذكر الفاعل البته ، بل أسندوا بعض الأفعال إلى المفعول دون الفاعل البته مثل قولهم : امتقع لونه ، ولم يقولوا امقته كذا .. وهذا كله يدل على شدة عنايتهم بالفضلة ، لأنها تجعل الجملة تابعة فى المعنى لها ، حتى أنها إذا لم تكن تابعة لها وكان المفعول مقدمًا منصوبًا فإنه لا يعدم دليل العناية به ، وهو تقديمه اللفظ منصوبا ، وهذه صورة انتصاب الفضلة مقدمة لتدل على قوة العناية به »[1].

فابن جنى يقرر أن تقديم المفعول يكون لنكتة بلاغية هي العناية بشأنه ، وأن هذه العناية تقوى وتضعف بحسب الحالات ، وكلما قويت العناية اتخذ التقديم صورة جديدة ، وهذه الصور تصل إلى أربع مراتب . الأولى : أن يتقدم المفعول على الفاعل فقط ، والثانية : أن يتقدم على الفعل منصوبًا ، الثالثة : أن يتقدم على الفعل مرفوعًا ويصبح عمدة بعد أن كان فضلة ، والرابعة : وهى أقواها وأرفعها منزلة ، لأنها تفضل الثالثة بأن الجملة التى بعد المقدم تصبح مختصة به عندما تخلو من الضمير . ولاشك أن كل حالة من هذه الأحوال تستعمل فى مكانها المناسب ، وما يتفق مع حال المتكلم أو السامع .

ويذكر ابن جنى أن من دلائل شدة عنايتهم بالمفعول أن يحذف الفاعل فيتسلط حينئذ الفعل على المفعول مباشرة ، وكأنه هو الفاعل كما في حالة بناء الفعل للمجهول ، واقتصار بعض الأساليب على المفعول دون الفاعل البته دليل آخر على هذه العناية . ولا يفتأ ابن جنى يردد هذه العناية فى مواضع شتى من الكتاب ، ليؤكد وجهة النظر التى ذهب إليها فى تقديم المفعول ، والعناية به . وما دام ابن جنى يذكر أن من دلائل العناية بالمفعول بناء الفعل لما لم يسم فاعله ، فإنه يتطرق إلى القيمة البلاغية فى بناء الفعل للمجهول فيقول فى قراءة ابن مسعود (يوم يقال لجهنم).

(١) أنظر المحتسب بتصرف ١/٦٥ ، ٦٦ و ٣٦٢

هذا يدل على أن قولنا ضُرب زيد ونحوه لم يترك ذكر الفاعل للجهل به ، بل لأن العناية انصرفت إلى ذكر وقوع الفعل بزيد ، عرف الفاعل به ، أو جهل لقراءة الجماعة (يوم نقول) وهذا يؤكد عندك الفاعل به ، أو جهل لقراءة الجماعة (يوم نقول) وهذا يؤكد عندك قوة العناية بالمفعول به. ويمضى فيقول : وفيه شاهد ، وتفسير لقول سيبويه فى الفاعل والمفعول : وإن كانا جمعيا يهمانهم ويعنيانهم. ومن شدة قوة العناية بالمفعول أن جاءوا بأفعال مسندة إلى المفعول ، ولم يذكروا الفاعل معها أصلاً ، وهى نحو قولهم امتقع لون الرجل ، وانقطع به ، وجن زيد ، ولم يقولوا امتقعه ولا انقطعه ولا جنه ، ولهذا نظائر ، فهذا كاسنادهم الفعل إلى الفاعل البته فيما لا يتعدى نحو قام زيد وقعد جعفر (١).

فكأن أسلوب البناء للمجهول قصد به التركيز على المفعول به وجعله الغاية من الكلام ، وأن اهتمامهم به يفوق كل اهتمام بغيره من ألفاظ الجملة .

**صـور التقـديم :**

**أولا - تقـديم المسـند إليه :**

(أ) يرى عبد القاهر أن تقديم المسند إليه يفيد التخصيص (٢). أو القصر إذا ولى حرف النفى كقولك « ما أنا قلت هذا » فهذا التقديم يفيد أن القول ثابت ، ولابد أن أحدا قال هذا القول . وأنت تنفيه عن نفسك ، وتثبته لغيرك ، فلا يأتى هذا التقديم إلا فى شىء ثبت أنه قيل ، وأنت تريد نفى كونك قائلا له .

ومنه قول الشاعر :

**ومـا أنا أسـقـمت جـسـمى به ولا أنا أضـرمت فى القلب نارا**

فالسقم موجود ، والضّرم ثابت ، ولكن الشاعر ينفى أن يكون هو الجالب لهما والشاعر لا يقصد نفى الفعل ، فالفعل ثابت ، ولكنه يقصد نفى أن يكون هو الفاعل، ولهذا لا يصح أن يقول « ما أنا قلت هذا ولا غيرى » لمناقضة منطوق الثانى مفهوم

(١) المحتسب ٢/٢٨٤ ، ١/١٣٥

(٢) الدلائل ٩٧

الأول ، لأن القول ثابت ، وقد نفاه عن نفسه ، وأثبته لغيره ، فعندما يقول : ولا غيرى، فقد نفاه عن غيره ، مع أنه قد أثبته له فى الجملة السابقة .

وقد يفيد تقديم المسند إليه التخصيص وإن لم يقع بعد حرف النفى كقوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ (١) أى الله وحده هو الذى يبسط الرزق ويقدره دون غيره ، وكقولك « أنا سعيت فى حاجتك » ردا على من زعم أن غيرك هو الذى قام بالسعى دونك ، فإن أردت أن تؤكد هذا المعنى قلت : أنا سعيت فى حاجتك لا غيرى أو ردا على من زعم أن غيرك قد شاركه فى السعى ، فإن أردت أن تؤكد سعيك دون مشاركة من أحد قلت : أنا سعيت فى حاجتك وحدى .

وتقديم النكرة ، كقولك « رجل جاءنى » يفيد ، إما تخصيص الجنس أى : رجل جاءنى لا امرأة ، أو تخصيص الواحد ، أى : رجل جاءنى لا رجلان.

(ب) وقد يفيد تقديم المسند إليه تقوية الحكم وتقريره فى ذهن السامع (٢) نحو « هو يعطى الجزيل ، وهو يحب الثناء » ، فأنت لا تريد أن تقصر العطاء ، وحب الثناء عليه ، وتنفيه عن غيره ، ولكنك تريد أن تؤكد أن العطاء الجزيل وحب الثناء من عادته ودأبه ، وأنه متمكن منه غاية التمكن ومن ذلك قول الشاعر :

**هما يلبسان المجدَ أحسن لبسة ... شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما**

وقوله :

**هم يضربون الكبش يبرق بيضُه ... على وجهه من الدماء سبائب**

أى يتركون رئيس الجيش قتيلا ، والدم يسيل على وجهه .

وقول عروة بن أذينة :

**سليمى أزمعت بينا ... فأين تقولها أينا**

لم يرد الشاعر فى هذه الأبيات أن يخص المقدم بالفعل ، وأنه لا يحدث إلا منه ، بل أراد أن يؤكد أن هذا الفعل من عادته ، ويقوم به بطريقة مستمرة ، ولذلك

(١) الرعد ٢٦

(٢) الدلائل ٩٩ وما بعدها

كان قوله : « هما يلبسان المجد » أبلغ من قولك « يلبسان المجد » لما فى الأول من تكرار الاسناد ، إذ أن الفعل قد أسند مرتين : مرة باعتباره خبرا عن المبتدأ ، وأخرى باعتباره فعلا مسندا إلى ضمير الفاعل . بخلاف الثانى فإنه قد أسند إلى ضمير الفاعل فقط مرة واحدة دون غيرها ، وتكرار الاسناد فى الأول يعطى المعنى قوة يعرى عنها التعبير الثانى الذى خلا من التقديم .

ومن أجل ذلك كان التعبير القرآنى أبلغ من غيره حيث قدم المسند إليه فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (١) ، وقوله ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا ﴾ (٢) ، فإذا لم يقدم الضمير وقال «ويخلقون ، وقد خرجوا به » ، لما رأيت التأكيد والتقوية التى أحدثها تقديم الضمير.

(جـ) ومن أغراض التقديم - الاهتمام بالمتقدم :

وتفسير هذا أن التقديم دليل على أن المتقدم هو الغرض المتعمد بالذكر ، وأن الكلام قد سيق لأجله - كما ذكرناه حين عرضنا التقديم عند ابن جنى - وأوضح مثال يبين أثر التقديم فى المعنى ، ومدى الأهمية التى يعطيها للتعبير قوله تعالى فى سورة النمل حيث قدم اسم الاشارة فقال : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣) ، وفى آية أخرى ، يؤخر اسم الاشارة كما فى سورة المؤمنون ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٤) فقدم نحن وآباؤنا : على : هذا ، فإذا قدم اسم الإشارة الذى يريد به البعث كان ذلك دليلا على أهمية البعث ، وأن الكلام قد سيق لأجله ، أما الآية الأخرى حيث أخر اسم الاشارة، وقدم نحن وآباؤنا ، كان ذلك دليلا على أهمية المبعوثين ، وهم القصد من الحديث، وليس البعث .

(١) الفرقان ٣

(٢) المائدة ٦١

(٣) النمل ٦٨

(٤) المؤمنون ٨٣

**ثانيا - تقـديم المسـند :**

وتقديم المسند له مغزاه البلاغى أيضا :

(أ) فهو يفيد التخصيص أو القصر ، أى قصر المسند إليه على المسند ، بحيث لا يتجاوزه إلى غيره أصلا ، فإذا قلت : قاهرى أنا ، فقد قصرت نفسك على موطن القاهرة ، دون أن تتجاوزها إلى الاسكندرية .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ (١) أى ليس فى خمر الآخرة ما يغتال عقل الإنسان ويفسده ، فقدم هنا الخبر وهو الجار والمجرور ، فأفاد هذا التقديم الاختصاص ، فيكون المعنى أنه نفى الغول عن خمر الآخرة دون أن يتعداها إلى خمر الدنيا ، فإن فيها غولاً .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢)، أى لكم الاستقرار والمتاع دون غيركم.

وكذا القياس فى قوله تعالى : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٣) أى دينكم الكفر ، ودينى الاسلام ، والمعنى الكفر مختص بكم ، كما أن الإسلام مختص بى ، فهذا التقديم يفيد القصر كما يفيده قوله تعالى : ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي﴾ (٤) أى حسابهم مقصور على ربى ، وليس على أحد سواه .

ومما يدخل فى هذا النوع قوله تعالى : ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (٥) أى هو مختص به ومتوليه ، ولا يقدر على تصريفهما غيره .

ومثله أيضا قوله تعالى : ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ فالتقديم يدل على اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل » (٦) .

---

(١) الصافات ٤٧ أنظر شرح المختصر للسعد ١/١٦٠

(٢) البقرة ٣٦

(٣) الكافرون ٦

(٤) الشعراء ١١٣

(٥) المؤمنون ٨٠

(٦) التغابن ١ وأنظر الكشاف ٤/٤٣٦

ولأجل أن التقديم يفيد التخصيص لم يلجأ إلى التقديم فى قوله تعالى : ﴿ لا رَيْبَ فيه ﴾ (١) ، لأن التقديم يفسد المعنى ، إذ لو أنه قال بدلا من الآية «لا فيه ريب» لأفاد التخصيص ، أى نفى الريب عن القرآن وحده ، وإثبات الريب لسائر كتب الله الأخرى ، وهو فساد بين ، وتشكيك فى الكتب المقدسة كما نزلت من عند الله.

(ب) وقد يفيد تقديم المسند الاهتمام بالمتقدم :

كقوله تعالى : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ يقول الزمخشرى « أدخلت همزة الانكار على الظرف - أى المجار والمجرور - لأن الكلام ليس فى الشك ، وإنما هو المشكوك فيه ، وإنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه »(٢) .

ومنه قول الشاعر :

**سلام الله يا مطرٌ عليها ... وليس عليك يا مطر السلام**

فقدم الخبر هنا دلالة على الاهتمام به ، إذ هو الغرض المعتمد بالذكر ، وساق الشاعر الكلام من أجله .

(جـ) وقد يفيد تقديم المسند التشوق إلى ذكر المسند إليه ، وذلك إذا طال الكلام فى المسند ، فتتعلق النفس بمعرفة المسند إليه ، فإذا ذكر المسند إليه بعد ذلك ، كان له وقع فى النفس ، وموضع استحسان ، فالحاصل بعد الطلب والانتظار ، أحب إلى النفس من المنساق بلا كد وتعب ، كقول الشاعر :

**ثلاثةٌ ليس بها إياب ... الوقتُ والجمال والشباب**

فثلاثة هنا خبر مقدم ، والوقت مبتدأ مؤخر ، وقدم المسند للتشوق إلى ذكر المسند إليه .

ومثله قول محمد بن وهيب :

**ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ... شمس الضحى وأبو اسحق**

---

(١) البقرة ٢

(٢) ابراهيم ١٠ وأنظر الكشاف ٤٢٢/٢

**ثالثـا - تقـديم المفعول :**

(أ) القصر : مثل قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) والأصل نعبدك ونستعين بك ، فقدم المفعول به هنا لأجل الاختصاص ، والمعنى نخصك بالعبادة ، ونخصك بطلب المعونة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ (٢) إذ خصهم بالهداية دون غيرهم.

(ب) الاهتمام بالمقدم : كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ (٣) فقدم المفعول به على الفعل ، وسلط عليه الانكار بالهمزة ، فالاهتمام هنا ليس فى اتخاذ الولى ، ولكن فى اتخاذ غير الله وليا ، فكان أولى بالتقديم .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ (٤) وأصل الكلام : وجعلوا لله شركاء ، فقدم المفعول الثانى لشدة الاهتمام به ، واستعظام أن يكون لله شريك سواء أكان جنا أو غير جن .

**أسلوب مثل وغير (٥) :**

ومن أساليب التقديم مثل وغير :

نحو : « مثلك لا يبخل » يعنى أنت لا تبخل ، فهو لا يريد أن يعرض ببخل أحد ولا يرمى إلى ذلك ، وإنما يريد فقط أن ينفى البخل عن المخاطب .

نحو : « مثلك رعى الحق والحرمة » يعنى أنت ترعى الحق والحرمة ، ولا يقصد إلى وصف غيره بهذا الوصف ، ومثله قول المتنبى يعزى عضد الدولة فى عمته :

مثلك يثنى الحزن عن صوبه ... ويسترد الدمع عن غربه

---

(١) الفاتحة ٤
(٢) فصلت ١٧
(٣) الأنعام ١٤
(٤) الأنعام ١٠٠
(٥) الدلائل ١٠٦ ، ١٠٧

وكذلك حكم (غير) إذا سلك به هذا المسلك.

فقولك « غيرى يفعل الشر » يعنى أنه لا يفعله ، دون أن يعرض بأن غيره هو الذى يفعل الشر.

وكقول أبى تمام :

**وغيرى يأكل المعروفَ سحتا وتشحب عنده بيضُ الأيادى**

يعنى أنه لا يأكل المعروف ، وإنما يقدره ، ولا يضيع الجميل ، وإنما يحفظه ، دون أن يعرض بسواه .

وكقول المتنبى :

**غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا**

أى أنه لا ينخدع بالناس ، ولا يغتر بمظهرهم ، دون أن يعرض بواحد ، فيستنقصه ، أو يصفه بالانخداع .

ونلاحظ أن هذا الأسلوب تتقدم فيه مثل وغير على الفعل أبدا ، وذلك لغرض مفيد :

فنحن نعرف أن التقديم يفيد التقوية ، لتكرار الإسناد ، فأنت تقول هو يعطى الجزيل ، تريد تقوية الحكم لتكرار إسناد الفعل ، مرة خبرا للضمير المذكور ، ومرة فعلا للضمير المقدر . وكذلك مثلك يفعل الخير ، فيه تقوية الحكم للسبب المذكور، فالفعل أسند مرة خبرا للمبتدأ المذكور قبله ، وأخرى فعلا للضمير الذى يعود على المبتدأ .

ونعرف أيضا أن أسلوب (مثل وغير) يفهم منه المعنى بطريق الكناية : أى بطريق الانتقال من الملزوم إلي اللازم « فأنت لا تبخل ، لأن مثلك لا يبخل » فأنت تذكر الحكم مصحوبا بالدليل الذى يؤيده ، ففى الأسلوب الكنائى إذاً نوع من التقوية وأسلوب التقديم فيه نوع من التقوية ، فالتقديم للتقوية ملائم للكناية ، حيث إن كلا منهما يعبر عن المعنى بالطريق الأبلغ ، ومن ثم نلاحظ تقديم (مثل وغير) على الجملة التى يصحبها.

ونرى عبد القاهر الجرجانى يصف التقديم بأنه « باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ... ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ، ولطف عندك ، أن قدم فيه شيء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان [1] ».

---

(١) الدلائل ٨٣

# الإنشـــاءَ

سبق أن ذكرنا أن الكلام ينقسم إلى خبر وإنشاء :

قالت المعتزلة : « والخبر هو ما يحتمل الصدق والكذب (١).

فإذا قلت : سافر الصديق . فالكلام يحتمل الصدق ، بأن يكون الصديق قد سافر فعلا ، ويحتمل الكذب ، بأن يكون الصديق لم يسافر حقيقة .

والقصد بالخبر : إفادة المخاطب .

والإنشاء : لا يحتمل صدقًا ولا كذبًا ، لأن مضمون الكلام لا يحصل ولا يتحقق إلا إذا تلفظت به : أى أن مدلوله متوقف على النطق به .

فمثلا قولك : واظب على القراءة ، هو أمر بالمواظبة على القراءة ، وقبل أن ننطق بهذه الجملة لا يصح أن نطلق عليها أنها صادقة ، أو كاذبة ، ولا تدل على حصول المواظبة ، أو عدم حصولها ، فلا تحتمل صدقًا ولا كذبا .

والإنشاء ينقسم إلى قسمين : إنشاء طلبى ، وإنشاء غير طلبى .

**الانشاء الطلبى :**

هو ما يستدعى مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ، ويشمل :

الأمر - كقوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ (٢).

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن السيوطى ٢/٧٦

(٢) المدثر ٢ ، ٣ ، ٤

وقول الشاعر :

**سر إن استطعت فى الهواء رويدا    لا اختيالا عن رفات العباد**

والنهى – كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (٢) .

وكقول الشاعر :

**لا تنه عن خلق وتأتى مثله    عار عليك إذا فعلت عظيم**

والاستفهام – كقوله تعالى : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ؟ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ ﴾ (٤)

وكقول المتنبى :

**أنت طول الحياة للروم غاز    فمتى الوعد أن يكون القُفولُ**

والتمنى – كقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ (٥).

وكقوله تعالى : ﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ (٦) .

وكقول قريط بن أنيف :

**فليت لى بهم قوما إذا ركبوا    شنوا الإغارة فرسانا وركبانا**

والنداء – كقوله تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا ﴾ (٧).

كقوله تعالي : ﴿ يا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ (٨).

---

(١) الحجر ٥٥
(٢) النحل ١٢٧
(٣) البقرة ٦٨
(٤) البقرة ١٤٢
(٥) الفجر ٢٤
(٦) الحاقة ٢٧
(٧) هود ٤٢
(٨) هود ٤٤

وكقول مالك بن الريب :

فيا صاحبي رحلي دنا الموت برابية إني مقيم لياليا

فهذه الأمثلة كلها : من أمْر ، ونهي ، واستفهام ، وتمنٍّ ، ونداء ، لا تحتمل صدقا ولا كذبا وليس لها وجود قبل النطق بها ، وإنما هي مجرد أمر بشيء ، أو نهي عنه ، أو استفهام له ، أو تمنيه ، أو ندائه ، دون أن يتجاوزه ، لا إلى صدق ، ولا إلى كذب .

**الانشاء غير الطلبي :**

وهو ما لا يستدعي مطلوبًا في الأصل ، ويشمل :

القسم - سواء كان بالواو :

كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (1).

كقوله تعالى : ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ (2).

أو بالتاء :

كقوله تعالى : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾ (3).

كقوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ (4) .

أو الباء :

كقوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ (5) .

كقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ (6) .

التعجب - وهو استعظام الشيء وخفاء حصول السبب (7) :

---

(1) الأنعام ٢٣

(2) ص١

(3) الأنبياء ٥٧

(4) يوسف ٨٥

(5) التوبة ٦٢

(6) النور ٥٣

(7) البحر المحيط ٤٩٤/١ ، وانظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم د. عضيمة ١٠٥/٣.

كقوله تعالى :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ (١).

وقوله : ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ (٢) .

وكقول ذى الرّمة :

فيـا لك من خـد أسـيل ومنطقٍ رخـيم ومـن خلق تعـلل جـادبُه

أى لا يجد فيها ما يشينها به ، لسلامتها من العيوب .

أفعال المدح والذم - كنعم وبئس ، وساء ، وحبذا ولا حبذا .

كقوله تعالى :

﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٣) ، ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (٤) ، و﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) .

وكقوله : ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ (٦) .

وكقوله : ﴿ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ ﴾(٧) .

وحبذا المجتهد ، ولا حبذا الخامل .

والرجاء - ويكون بلعل ، وما يدل على الرجاء : مثل عسى ، وحرى ، واخلولق.

كقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ (٨) .

كقوله تعالى : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ (٩).

---

(١) البقرة ١٧٥
(٢) عبس ١٧
(٣) الحج ٧٨
(٤) الرعد ٢٤
(٥) النحل ٣٠
(٦) الكهف ٥٠
(٧) الأعراف ٧٧
(٨) الطلاق ١
(٩) المائدة ٥٢

ومثل : حرى المريض أن يشفى .

ومثل : اخلولق الصبح أن ينبلج .

صيغ العقود - كبعت ، واشتريت ، ووهبت .

تقول : بعت الأثاث ، واشتريت الكتاب ، ووهبت المكتبة .

والإنشاء غير الطلبى : لا يبحث فيه علم المعانى ، لقلة فوائده البلاغية .

بخلاف الإنشاء الطلبى : فهو موضع عنايتهم ، لما فيه من الدقائق اللطيفة ، والفائدة الجليلة ، وقد فصل علماء البلاغة الكلام فى :

**أولاً - أسلوب الأمر :**

وهو طلب الفعل على جهة الاستعلاء . ويشمل :

فعل الأمر : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (١) .

المضارع المجزوم بلام الأمر : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (٢).

﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ (٣) .

اسم فعل الأمر : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (٤) .

﴿ فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ (٥) .

**المصدر النائب عن فعل الأمر :**

كقول قطرى بن الفجاءة :

**فصبرًا فى مجال الموت صبرًا ... فما نيل الخلود بمستطاع**

وتقول : سعيا فى الخير ، وحرصا على المصلحة ، وتحقيقا للهدف .

(١) البقرة ٤٣
(٢) الحج ٢٩
(٣) البقرة ٢٨٢
(٤) المائدة ١٠٥
(٥) الاسراء ٢٣

هذه الصيغ الأربع : فعل الأمر - والمضارع المجزوم بلام الأمر - واسم فعل الأمر - والمصدر النائب عن فعل الأمر ، هى الصيغ الحقيقية للأمر .

وقد تخرج صيغ الأمر عن معناها الحقيقى ، وهو الأمر ، إلى معان أخر تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال ، وهى معان كثيرة ، منها :

الدعاء : ويكون من خطاب الأدنى لمن هو أعلى منزلة : كدعاء الإنسان ربه :

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ (١).

﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢) .

الالتماس - ويكون فى خطاب الرجل لمن يساويه رتبة ومقاما : كخطاب الرجل صديقه أو زميله .

كقولك : أعرنى الكتاب - وأقرضنى القلم ، ودوّن المحاضرة .

التسوية - إذا كان المخاطب يتوهم أن أحد الشيئين أرجح من الآخر فتصحح له هذا التوهم : كقوله تعالى :

﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ (٣) .

التخيير - كأن يكون مخيرا بين شيئين أو عدة أشياء فيختار بينها كقول بشار:

**فعش واحدا أوصل أخاك فإنه ... مقارفُ ذنب مرةً ومجانبه**

أو تقول : التحق بالطب أو الآداب .

أو تقول : تزوج أو عش عزبا .

ويتبين من هذه الأمثلة أنك تخيره بين شيئين لا يجوز له الجمع بينهما.

الإباحة - تكون حيث يتوهم المخاطب أن الفعل محظور عليه فيتتبه بأنه مباح له :

---

(١) نوح ٢٨

(٢) العنكبوت ٣٠

(٣) الطور ١٦

كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (١).

كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ (٢).

كقوله تعالى : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (٣) .

وكقول كثير عزة :

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومةً لدينا ولا مقلية إن تقلّتِ

فإنه أباح فى الآية الأولى : الجمع بين الأكل والشرب ، وفى بيت كثير أباح لها الجمع بين الإساءة والإحسان ، فالمرء يحسن ويسىء إلى الناس ، بل يحسن ويسىء إلى الفرد الواحد .

فالفرق بين الإباحة والتخيير :

إن الإباحة : يجوز فيها الجمع بين الشيئين .

وأن التخيير : لا يجوز فيه الجمع بين الشيئين .

والتهديد – كقوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٤) .

كقوله تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ (٥) .

وكقولك : اصنع ما بدا لك .

والتهكم – كقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٦).

كقوله تعالى : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٧) .

---

(١) البقرة ١٨٧
(٢) الجمعة ١٠
(٣) النور ٣٣
(٤) فصلت ٤٠
(٥) القلم ٤٤
(٦) الدخان ٤٩
(٧) النساء ١٣٨

كقوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١) .

وهذا أمر قصد به التهكم والاستهزاء ، ليزيد ألم المخاطب وحسرته .

والإرشاد - كقول ابن الفتح البَستى :

**أحسن إلى الناس تستبعد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ**

والتأديب - كقوله تعالى : ﴿ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾(٢).

وغير ذلك من هذه الأغراض التى تفهم من سياق الكلام ، وقرائن الأحوال . وهى كثيرة جدا ، وفى ذكر بعضها غناء عن الباقى .

**ثانيا - أسلوب النهى :**

وهو طلب الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء .

وله صيغة واحدة ، وهى المضارع المقرون بلا الناهية .

كقوله تعالى : ﴿فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ (٣).

كقوله تعالى : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ (٤).

كقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٥).

وقد تخرج صيغة النهى عن معناها الحقيقى - وهو طلب الكف عن الفعل - إلى معان أخر تستفاد من سياق الكلام ، وتدل عليها قرائن الأحوال . منها :

الدعاء - كقوله تعالى : ﴿قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٦).

كقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٧).

---

(١) آل عمران ٢١
(٢) النساء ٣٤
(٣) إبراهيم ٢٢
(٤) الاعراف ٥٦
(٥) الانعام ١٥٢
(٦) الاعراف ٤٧
(٧) الممتحنة ٥

كقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾(١).

الالتماس – كقوله تعالى : ﴿ قال يا ابنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ (٢).

وكقول الغزّى :

**ولا تُثقلا جيدى بمنّة جاهل — اروح بها مثل الحمام مُطوقا**

التمنى – إذا كان النهى لغير العاقل كان القصد منه يا سماء كما تقول :

لا تزأرى يا رياح ، ولا تقصفى ياعود ، ولا تمطرى سا سماء.

وكقول الشاعر :

**يا ليل طل يا نوم زُل — يا صبح قف لا تطلع**

الإرشاد – كقوله تعالى : ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ (٣) .

وكقول الطغرائى :

**لا تطمحن إلى المراتب قبل ان — تتكامل الأدوات والأسباب**

وقول الشاعر :

**لا تحلفن على صدق ولا كذب — فما يفيدك إلا المأثم الحلف**

التيئيس – كقوله تعالى : ﴿ لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ (٤).

كقوله تعالى : ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ (٥).

وكقول المتنبى يمدح سيف الدولة :

**لا تطلبن كريما بعد رؤيته — إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا**

---

(١) الحشر ١٠
(٢) طه ٩٤
(٣) المائدة ١٠١
(٤) التحريم ٧
(٥) التوبة ٦٦

التحقير - كقول الشاعر :

لا تطلب المجد إن المجد سلمه صعب ، وعش مستريحا ناعم

ومثله :

لا تحسبوا من قتلتم كان ذا رمق فليس تأكل إلا الميتة الضبعُ

وكقولك الخامل البليد : لا تحاول الوصول إلى مرتبة العلماء.

التوبيخ - كقوله تعالى : ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ (الحجرات :١١) .

وكقول أبى الأسود :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وكقول المتنبى :

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر

التهديد - كقولك : لا تنته عن غيك وسوف ترى عاقبة أمرك.

كقولك : لا تطع أوامرى ، ولا تنفذ ما طلبته منك.

إلى غير ذلك من الأغراض التى لا تتكشف إلا بالمواقف والأحوال .

**ثالثا - أسلوب الاستفهام :**

الاستفهام : هو طلب العلم بشىء لم يكن معلوما من قبل.

وأدوات الاستفهام : الهمزة - وهل - ومتى - وإيان - وكيف - وأين - وأنى - وكم - وأىّ .

**أقسامها ثلاثة :**

١ - ما يطلب به التصور تارة ، والتصديق تارة أخرى ، وهو الهمزة .

٢ - ما يطلب به التصديق فقط ، وهو : هل .

٣ - ما يطلب به التصور فقط ، وهو بقيه أدوات الاستفهام .

ما التصور ؟ وما التصديق ؟

**التصــــور :**

هو : طلب تعيين المفرد ، نحو قولك : أمحمد ناجح أم على ؟ فأنت هنا لا تسأل عن النجاح ، فهو أمر حاصل ومفروغ منه ، وإنما أنت تسأل فقط عن تعيين الذى نجح ، أهو محمد أم على ؟

وبطريقة أخرى : أنت تعتقد أن أحدهما ناجح ، ولكنك لا تعرف من هو على سبيل القطع ، فتطلب تعيينه ، ويكون الجواب بتعيين الناجح منهما.

والمسئول عنه فى التصور ، هو ما يقع بعد الهمزة مباشرة ، ويذكر له بعد أم معادل من نوعه : فإذا كان ما بعد الهمزة اسما ، ذكرت بعد أم اسما يعادله . وإذا كان ما بعد الهمزة فعلا ، ذكرت بعد أم فعلا يعادله ، وإذا كان ما بعد الهمزة مفعولا أو حالا ذكرت بعد أم مفعولا أو حالا يعادله ، وهلم جرا .

وتسمى أم الواقعة بعد همزة التصور : متصلة : أى أن ما قبلها متصل بما بعدها ، ولا يستغنى أحدهما عن الآخر .

مثال الاسم بعد همزة التصور ، وما يعادله بعد أم : أمحمد مسافر أم على .

مثال الفعل بعد همزة التصور ، وما يعادله بعد أم : أسافر محمد أم أقام.

مثال المفعول بعد همزة التصور ، وما يعادله بعد أم : أبرتقالا أكلت أم تفاحا.

مثال الحال بعد همزة التصور ، وما يعادله بعد أم : أطائرا جئت أم مبحرا.

مثال المجرور بعد همزة التصور ، وما يعادله بعد أم : أفى الكلية مكثت أم فى المعسكر .

مثال المجرور بعد همزة التصور ، وما يعادله بعد أم : أيوم السبت تظهر النتيجة أم الاثنين .

وتراعى ذلك فى كل تركيب مع همزة التصور : أن يكون ما بعد أم معادلا لما بعد الهمزة .

انظر إلى قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ .

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ .

وانظر أيضا إلى قوله تعالى :

﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ .

﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ .

﴿ لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ .

تجد ما بعد أم مماثلا لما بعد همزة الاستفهام سواء كان ا سما أو فعلا ، وأحيانا يستغنى عن ذكر المعادل ، فلا يذكر فى الكلام ، ولكن نقدره فى النفس : فتقول مثلا : أمحمد نجح ؟ وتكتفى بذلك دون أن تذكر المعادل ، وأم ، ويكون التقدير أمحمد نجح أم على ؟

والاستغناء عن ذكر المعادل قد ورد فى القرآن الكريم : قال تعالى : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ .

والتقدير أأنت فعلت هذا أم غيرك ، ولكنه استغنى عن ذكر المعادل.

هذا هو التصور ، فما التصديق ؟

**التصديق:**

هو إدراك النسبة : أى نسبة ثبوت المسند للمسند إليه ، فالسؤال لا يكون لتعيين المفرد كما فى التصور ، بل يكون عن مضمون الجملة ، وهذا يسمى بالتصديق. فإذا قلت مثلا : أحضر الأستاذ ؟ فأنت تتصور الحضور ، كما تتصور الأستاذ ، أى تتصور المسند والمسند إليه ، ولذلك لا تسأل عن أيهما ، ولا تطلب تعيين واحد منهما ، وإنما أنت تسأل فقط عن نسبة الحضور للأستاذ ، هل تحقق

الحضور من الأستاذ أو لم يتحقق ؟ فإذا كان قد تحقق ، يكون الجواب بنعم ، وإلا يكون الجواب : لا.

قال عمارة بن عقيل :

**أالترك إن قلّت دراهمُ خالد زيارَتَه إنى إذاً للئيم**

فالاستفهام هنا ليس عن الفعل : وهو الترك ، ولا عن الفاعل : وهو المتكلم ، ولا يطلب تعيين واحد منهما ، فالمتكلم متصور لكليهما ، وإنما يسأل فقط عن النسبة : نسبة ترك الزيارة للمتكلم ، والسؤال عن النسبة يسمى تصديقا.

وهمزة التصديق لا يذكر بعدها أم ، فإن جاءت بعدها أم ، قدرت منقطعة بمعنى بل ، أى فيها معنى الاضراب عن الكلام السابق كأنه لم يكن. وما بعدها هو الكلام المعتمد المطلوب السؤال عنه ، ويشترط أن يكون جملة .

كقول الشاعر :

**ولست أبالى بعد فقدى مالكا أموتى ناء أم هو الآن واقع**

فأم هنا منقطعة تفيد معنى الاضراب عن الكلام السابق ، وهو قوله « أموتى ناء » ويكون السؤال عن إدراك النسبة فى قوله : أموتى الان واقع : وهو جملة كما ترى .

فأم إذا وقعت بعد همزة التصور كانت متصلة : أى متصلة بما قبلها فلا تلغى الكلام السابق.

وأم إذا وقعت بعد همزة التصديق كانت منقطعة ، أى تكون بمعنى بل التى تفيد الاضراب عن الكلام السابق .

ومما تقدم نتبين أن همزة الاستفهام تأتى أحيانا للتصور وأحيانا تأتى للتصديق .

أما هل فإنها تأتى للتصديق فقط : أى معرفة وقوع النسبة بين المسند والمسند إليه أو عدم وقوعها مثل :

هل انكسر الزجاج ؟ ، هل الكواكب سيارة ؟

فالسؤال هنا ليس عن المسند فقط ، وليس عن المسند إليه فقط ، وإنما السؤال عن نسبة أحدهما للآخر .

ولكون هل مختصة بطلب التصديق امتنع أن يذكر معها المعادل بعد أم المتصلة[1] .

١ - فيمتنع أن تقول : هل زينب نجحت أم عائشة ؟

فأم هنا متصلة وليست منقطعة ، لأن بعدها مفردا وليس جملة .

وهذا التركيب ممتنع ، لأن ما بعد أم مفرد ، وهل تأتى للتصديق : أى لتفيد إدراك النسبة ، ولا يسأل بها عن تعيين المفرد . فوجود أم فى هذا التركيب يفيد العكس : يفيد أن السائل عالم بالحكم : عالم بحصول النجاح ، ولكنه يسأل فقط عن تعيين التى نجحت ، أى عن تعيين المفرد ، فيحصل التناقض عند الجمع بين هل وأم المتصلة ، لأن هل تأتى ، لتفيد التصديق .

وأم المتصلة تأتى ، لتفيد تعيين المفرد .

أما إذا قدرنا بعد أم جملة ، واعتبرنا أم هنا منقطعة تفيد معنى الاضراب عن الكلام السابق ، صح التركيب ، لأم ما بعد أم يعتبر كلاما جديدا مستأنفا منقطعا عما قبله ، يطلب إدراك ما فيه من نسبة : أى ثبوت النجاح لعائشة ، أو عدم ثبوته ، دون تعرض لذكر زينب .

بذكر ابن الحاجب بعض الفروق بين همزة الاستفهام وهل ، فيقول « ومن الفروق بينهما أن همزة الاستفهام تقع مع (أم) المتصلة ولا تقع « هل » معها .

أما المنقطعة فتقع فيها جميعا .

(١) أنظر شرح التلخيص للقزوينى ٨٤ ط دمشق
وأنظر شرح المختصر للتفتازانى ٢٠٤/١ وما بعدها
وأنظر جواهر البلاغة للهاشمى ٨٨ وما بعدها
وأنظر علم المعانى د. درويش ٤٥ وما بعدها

فإذا قلت : أزيد عندك أم عمرو ؟ فهذا الموضع لا تقع فيه « هل » ما لم تقصد إلى المنقطعة »[1].

٢ – ويقبح استعمال « هل » فى كل تركيب يتقدم فيه المفعول على الفعل مثل:

هل كتابا قرأت ؟     وهل عليا أكرمت ؟

لأن تقديم المفعول يفيد أن حكم القراءة ثابت ، والسؤال عن نوعية القراءة : أهى كتاب ، أم صحيفة ، أم محاضرة ، إلى غير ذلك ؟

على حين أن هل إنما يسأل بها عن الحكم ، أى عن حكم القراءة للمخاطب بالنسبة للكتاب ، و حكم الاكرام للمخاطب بالنسبة لعلى ، فكأنه يسأل عن الشىء المعلوم الثابت ، وهو عبث ، لأنه تحصيل حاصل.

ورغم قبح هذا التركيب إلا أنه ليس ممتنعا ، لاحتمال أن يكون الاسم المتقدم مفعولا لفعل محذوف يفسره ما بعده ، فلا يكون ثمة تقديم ، ومن أجل ذلك يكون التركيب غير قبيح .

ونفس القبح يكون فى الاسم المتقدم إذا كان مرفوعا مثل : هل زيد قام ؟

بخلاف التقديم مع همزة الاستفهام فإنه يكون فصيحًا ، سواء كان الاسم المتقدم منصوبا مثل : أزيدا أكرمت ، أو مرفوعا مثل : أزيد قام ؟

وهذا أيضا أحد الفروق بين همزة الاستفهام وهل.

يذكر الزركشى هذا الفرق فيقول :

« ومنها – أن يقع الاسم منصوبا بعدها بتقدير ناصب ، أو مرفوعا بتقدير رافع يفسره ما بعده كقولك : أزيدا ضربت ؟ وأزيد قام ؟

ولا تقول ذلك فى هل . فلا تقول : « هل زيدا ضربت ؟» ولا « هل زيد قائم ؟» إلا على ضعف .

وإن شئت فقل : ليس في أدوات الاستفهام ما إذا اجتمع بعده الاسم ، والفعل

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٣٤٨/٢

يليه الاسم فى فصيح الكلام إلا الهمزة فتقول : أزيد قام ؟ ولا تقول هل زيد قام ؟ إلا فى ضرورة ، بل الفصيح : هل قام زيد ؟ » (١).

ومن الفروق أيضا بين همزة الاستفهام وهل ، ما قاله الشيخ أبو حيان :

« إن طلب بالاستفهام تقرير أو توبيخ أو إنكار أو تعجب كان بالهمزة دون «هل» وإن أريد الجحد كان بهل ، ولا يكون بالهمزة» (٢).

قلنا من قبل : إن الهمزة تفيد التصور ، كما تفيد التصديق.

وقلنا من قبل : إن هل تفيد التصديق فقط ولا تفيد التصور.

والتصديق هو إدراك النسبة بالاثبات أو بالنفى ، وهذا يتوجه إلى المعانى ، دون المفردات : أى يتوجه إلى الفعل دون الاسم. من أجل ذلك كان لها مزيد اختصاص بالفعل : أى أنها تدخل على الأفعال دون الأسماء .

إلا إذا جاء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، لغرض بلاغى قصد إليه المتكلم .

فهل : تختص بالدخول على الجمل الفعلية ، مثل : هل ينام المريض ؟

ولا تدخل على الجمل الاسمية ، فلا تقول : هل المريض نائم ؟

لأن دخول « هل » على الجملة الاسمية مخالف للقاعدة ، اللهم إلا إذا كان هناك داع بلاغى لهذا الخروج عن أصل وضعها.

فالعدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية حينئذ ، يدل على قوة الداعى ، وكمال العناية ، والاهتمام بنوم المريض .

وفى هذه الحالة يكون دخول هل على الجملة الاسمية ، أبلغ من دخولها على الجملة الفعلية . وهذا لا يتأتى عفوا من شخص لا يسيطر على أساليب البيان ،

---

(١) المصدر السابق والصفحة وأنظر الكتاب ٥٢/١ والمقتضب ٧٤,٢ ، وهمع الهوامع ٧٧/٢ ، وأنظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٩٧,٣

(٢) البرهان فى علوم القرآن ٣٤٨/٢

وإنمـا يلجـأ إلى هذا الأسلوب ، الشـخص البليـغ العـارف بـأسـرار البـلاغـة ، ودقـة التعبير.

فالجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث .

والجملة الاسمية تفيد الاستمرار والثبوت .

« فالجملة الاسمية تفيد تأكيد المعنى ، وتدل على معنى أوفىَ مما تدل عليه الجملة الفعلية . ولذلك كان تأثير الجملة الاسمية أقوى من الجملة الفعلية فى بعض المقامات »[1].

ونظرا لذلك نرى القـرآن بأسلوبه الرائع ، يخـتـار دخـول هل على الجـملة الاسمية فى بعض المواضع ، لأنها أبلغ.

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ ؟[2].

ترى « هل » دخلت على الجـملة الاسـمـيـة ، لأنهـا أدل على طلب الشكر من قـولك « فـهل تشكرون » ؟ ، لأن العـدول عن الأصل - وهو دخـول هل على الجـملة الفـعليـة - يدل على قـوة الداعى للشكر ، وكمـال العناية بحـصـوله ، حيث أبرز مـا سيتجدد - وهو الجملة الفعلية - فى معرض الثابت : وهو الجملة الاسمية.

وكـذلك قـوله تعـالى : « فـهل أنتم شـاكـرون ؟» أبلغ من قـولك « فـهل أنتم تشكرون» ، لأن « هل » وإن كانت فى ظاهرها قـد دخلت على جملة اسـمية ، إلا أنها فى الواقع قد دخلت على جملة فعلية تقديرا ، فـالضـمير هنا « أنتم » فـاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده.

والاستفهام بهل فى هذا الموضـع ، أبلغ من الاستفهام بالهمزة ، ولذلك كانت الآية القـرآنيـة أبلغ من قـولك « أأنتم شـاكـرون » على الرغم من دخول الهـمـزة على الجملة الاسمية التى تفيد الاستمرار والثبوت ، وذلك لأن « هل » كما قلنا من قبل : تخـتص بالدخـول على الفـعل ، ولا يصح العـدول عن الفـعل إلى الاسم ، إلا لكمـال

---

(١) البلاغة العالية عبد المتعال الصعيدى ٥٦ ، ٥٧ ط السلفية.

(٢) مواهب الفتاح . المغربى ٣/٢٦٩ ، ٢٧٠

العناية بالأمر ، ومزيد الاهتمام به ، فدخول « هل » على الجملة الاسمية ، يدل على أن المتكلم قد قصد إليه قصدا ، لابراز هذه العناية التى لا تتوافر عند الاستفهام بالهمزة .

ولهذا نقول : إن الاستفهام بهل ، ودخولها على الجملة الاسمية ، لا يحسن ، ولا يعتد به إلا من البليغ الذى درب على أساليب العرب الفصحاء ، وعرف مواضع الكلام ، وتفاوته بحسب مقتضيات الأحوال ، فيضع لكل مقام مقال .

أما سائر أدوات الاستفهام فهى للتصور على النحو التالى :

من : ويسأل بها عن العاقل : كقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ .

﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ .

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ .

ما : ويسألون بها عن غير العاقل :

كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ .

متى : يسأل بها عن الزمان فى الماضى والمستقبل :

كقوله تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾ .

كيف : ويسأل بها عن الحال :

كقوله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

كقوله تعالى : ﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

كقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾.

كقوله تعالى : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾.

أيان : ويسأل بها عن الزمان المستقبل :

كقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾.

﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾.

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أين : ويسأل بها عن المكان :

كقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾.

كقوله تعالى : ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

كقوله تعالى : ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾.

كقوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾.

أنىّ : يسأل بها عن الحال فتكون بمعنى كيف :

كقوله تعالى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

كقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾.

ويسأل بها عن المكان فتكون بمعنى من أين :

كقوله تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾.

وقد تكون بمعنى متى كقوله تعالى :

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾.

كم : يسأل بها عن العدد :

كقوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾.

كقوله تعالى : ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ﴾(١).

كقوله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾.

كقوله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾.

أيّ : بحسب ما تضاف إليه ، فتفيد المعنى الذى تفيده أدوات الاستفهام من السؤال عن العاقل ، وغير العاقل ، والزمان ، والمكان ، والحال وغير ذلك .

ونحب أن ننبه إلى أن استعمال أدوات الاستفهام فى معانيها الأصلية : حيث يراد بها طلب الفهم لمن ليس عنده علم به ، لا يحقق غرضا بلاغيا ، وإنما هو استعمال نحوى صرف .

أما المعانى الفرعية التى تستفاد من هذه الأدوات ، وتعرف بسياق الكلام ، وقرائن الأحوال ، فتبرز لنا معنى آخر غير الذى وضعت له ، فهذا هو من صميم فن البلاغة ، وينبغى أن نبحث عنه ، ونسعى إليه .

فالغرض من الاستفهام لن يبدو جليا إلا إذا وقفنا على حال القائل ، وحال المخاطب ، والظروف المحيطة بهما ، عندئذ نستطيع أن نلمس المغزى البلاغى والهدف البعيد الذى يرمى إليه الكلام ، ولا تدل عليه أداة الاستفهام فى معناها الأصلى.

والأغراض البلاغية التى تستنبط من الاستفهام عديدة ، وقد عد منها السيوطى واحدا وثلاثين موضعا (٢) .

وأحيانا ما يصحب أداة الاستفهام ما يوضح الغرض البلاغى منها :

مثلا فى قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾.

(١) الكشاف ١٢٨/١

(٢) الاتقان ٧٩/٢

فالمعنى الأصلى للهمزة هو الاستفهام ، وليس هذا هو المراد فى الآية ، وإنما المراد ، والمقصود هو إنكار الفعل لما فيه من الكراهة ، فكان قوله بعد ذلك «فكرهتموه» دالا على هذا القصد .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ، فالمراد من الاستفهام ، ليس طلب الفهم ، وإنما القصد إلى التعجب من الانجاب فى هذا العمر وبعد أن طعنت فى السن هى وزوجها ، وقوله بعد ذلك « إن هذا الشىء عجيب » قد وضح القصد والغرض من هذا الاستفهام.

وقوله تعالى : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ فقوله ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ يفصح عن الغرض من همزة الاستفهام وهو الاستبعاد .

وكثيرا ما يفهم الغرض البلاغى من أدوات الاستفهام وخروجها عن أصل ما وضعت له دون أن يضمنها ما يشير إلى الغرض المقصود كالأمثلة السابقة ، وإنما يفهم القصد من سياق الكلام وما يحمله من المعنى المراد .

فهل الاستفهامية يفهم منها النفى ، كقوله تعالى :

﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ .

وقد تفيد مع النفى شيئا آخر وهو التهكم كقوله تعالى :

﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ .

فالله ينفى عنهم العلم ويسخر من ادعاءاتهم.

وقد يكون مع النفى العبرة كقوله فى عاد :

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ .

وقد تكون هل بمعنى الأمر ، كقوله تعالى :

﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾؟

والمعنى : الأمر : أى انتهوا .

وقد تكون بمعنى التقرير ، كقوله تعالى :

﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم ﴾ ؟

فهو استفهام على جهة التقرير .

وقد تكون بمعنى التمنى ، كقوله تعالى :

﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ ؟

فهو استفهام فيه معنى التمنى .

وقد يكون فيها معنى اليأس والقنوط ، كقوله تعالى :

﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ .

وقد يكون فيها معنى العرض وهو الطلب فى تلطف ورفق ، كقوله تعالى :

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ ؟

وقد يكون فيها معنى النصح كقوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ ﴾ .

فهو استفهام يشعر بالنصح .

وقد تخرج عن هذه المعانى كلها فتكون بمعنى قد ، كقوله تعالى

﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ ؟ فهل هنا بمعنى قد ، لأنهم كانوا عالمين.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾؟

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾؟

ويلاحظ من الآيات القرآنية التى سقناها دلالة على خروج « هل » عن معناها الأصلى أن فى معظمها معنى الجحد ومعنى آخر معه ، فالجحد معنى غالب ، وليس معنى شاملا ، فالآيات التى تدل على العرض والنصح ، والتى تكون فيها هل بمعنى

قد ، لا نلحظ فيها معنى الجحد ، فقول ابن حيان بأن هل خاصة بالجحد [1] لا تؤيده الآيات المذكورة .

وهمزة الاستفهام تخرج عن أصل وضعها فتدل على :

الانكار ، كقوله تعالى :

﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟

فلوط عليه السلام يستنكر من قومه إسرافهم على أنفسهم ، وارتكابهم الفاحشة .

وقوله تعالى : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ ؟

فالمراد انكار اصطفاء الله للبنات .

وقد يكون الاستفهام للتوبيخ المصاحب للانكار ، كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ ؟

فموسى عليه السلام يستنكر خرق السفينة ويوبخ الخضر على خرق السفينة الذى يؤدى إلى الهلاك .

وقوله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ؟

فهو ينكر الاشراك الذى وقع منهم ، ويوبخهم على ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ؟

فهو ينكر تفكيرهم فى قتل موسى ، ويوبخهم على هذا التفكير خاصة بعد قول فرعون ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ .

« والهمزة أكثر أدوات الاستفهام دلالة على الانكار ،، ونسبة الانكار بها إلى جملة أساليب الانكار فى القرآن كله ، هى نسبة ٦٣٪ .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٣٤٨/٢

كما أن الانكار أكثر الأغراض البلاغية للاستفهام فى القرآن ونسبته إلي مجموع الاستفهام القرآنى ، هى نسبة ٦٤٪ » [١].

ومن التوبيخ فى غير الهمزة قوله تعالى :

« وكيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا ».

« فأين تذهبون » .

« لم يرد بهذين الاستفهامين حدوث علم لم يكن وإنما أريد بهما التوبيخ » [٢].

وقد يبدو فى بعض أساليب الاستفهام أن المتكلم ينكر الأمر على نفسه فى الظاهر ، وإن كان مراده إنكاره على الآخرين ، يريد بذلك التلطف فى النصح ، وعدم مواجهة المخاطبين بالانكار ، حتى لا ينسب القبح إليهم فيثير غضبهم . وهذا أسلوب لطيف فى الانكار تتألف به القلوب ، فتقبل النصح ، وتبتعد عن الخطأ .

فمن ذلك قوله تعالى :

« أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا » ؟ يريد أفغير الله تبتغون ؟ بدليل قوله : أنزل إليكم .

ومثله قوله تعالى :

﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾؟

فإنه يريد « وما لكم لا تعبدون الذى فطركم » لتستقيم العبارة مع قوله « وإليه ترجعون ».

وللانكار مؤكدات كثيرة نذكر بعضا منها :

١ - فقد يؤكد الانكار بذكر النداء قبله ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾.

---

(١) أساليب الاستفهام فى القرآن . عبد العليم فوده ٢٠٣ ، ٢٠٧

(٢) كتاب الأضواء : ابن الانبارى ١٩٢ ط الكويت

فقد تضمن النداء وصفهم بالعلم ، وإنكار محاجتهم ، وجدالهم حينئذ يكون أكثر قبحا .

٢ - وقد يؤكد بلفظ « كلاّ » يتلو أسلوب الاستفهام كقوله تعالى :

﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلاَّ ﴾ .

فهو ينكر طمعهم فى دخول الجنة ، ويؤكد هذا الانكار بقوله « كلا » التى هى في معنى لا يطمع أحد في ذلك .

٣ - وقد يؤكد « بإنّ » كقوله تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ .

فقد أنكر الفاحشة ، وأنكر إتيان الرجال ، ثم أكد هذا الانكار بإن واللام .

والاستفهام قد يخرج عن معناه فيفيد معنى آخر وهو التعجب ..

كقوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم»؟

فلاشك أن أمر الناس بالبر ، وعدم التزام أنفسهم بذلك أمر يدعو للعجب . ومنه قوله تعالى :

« أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة »؟

فالآية تفيد مع الانكار التعجب ممن يدعى ذلك من المشركين.

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾؟

أى لا يكون ذلك ، وتتعجب مريم ممن بشرها بولد .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ ؟

فالملائكة هنا تتعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة ، أهل المعصية ، وهو الحكيم الذى لا يفعل إلا الخير ، ولا يريد إلا الخير .

وقوله : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ .

كأنه قال : عم يتساءلون يا محمد ؟ ثم قال : عن النبأ العظيم يتساءلون.

وقد يكون فى الاستفهام معنى النفى : مثل قوله تعالى :

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ أى لا نؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فأفادت « هل » نفى الاستواء بين الفريقين .

ومن ذلك أساليب « هل » إذا كان بعدها إلا ، مثل قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ ﴾ .

﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ .

وغير ذلك من الآيات التي ذكرناها لدلالة هل على النفى .

وقد يراد بالاستفهام الأمر ، كقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ ؟ أى اصبروا .

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ ؟ والمعنى أسلموا .

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ ﴾ ؟ والمعنى : على الأمر بالاقراض والترغيب فيه .

وقد يراد بالاستفهام التمنى (١)، كقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ ؟

فهل الثانية تفيد معنى تمنى جهنم للمزيد من الوقود .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ ؟

أفادت « أين » تمنى الكافر أن يجد له مكانا يفر إليه من عذاب الله.

(١) تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة ٢١٦ تحقيق السيد صقر .

وقوله تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ .

جعل علماء البلاغة الاستفهام فى الآية استبطاء .

والزمخشرى قال : فيها طلب النصر وتمنيه ، واستطالة أمد الشدة ، وهو رأى دقيق ، إذ التمنى ظاهر فيها (١).

وقد يراد بالاستفهام التشويق ، كقوله تعالى :

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ؟

فقد أفاد الاستفهام تشوق النفس لمعرفة النبأ الذى يحمل الخير ، ويتضمن الوعد ، ومنه قوله تعالى :

« هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالمواد المقدس طوى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى » ؟

فقد أفاد الاستفهام التشوق إلى معرفة الحديث الذى دار بين موسى وربه ، وفى هذا الأسلوب ما فيه من كمال العناية به ، وشدة الإصغاء إليه .

وقد يفيد الاستفهام التعظيم ، كقوله تعالى :

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؟

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾؟

وقد يفيد الاستفهام التحقير ، كقوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟

﴿ هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ؟

﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾؟

وقد يفيد التهكم ، كقوله تعالى :

(١) الكشاف ١/١٣٠ ، وأساليب الاستفهام ٢٣٥
وأنظر النظم القرآنى فى الكشاف ٨٤

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾؟

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾؟

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾؟

وقد يفيد الوعيد ، كقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ؟

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ ؟

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾؟

وقد يراد بالاستفهام التقرير :

يتحدث ابن جنى عن تأثير همزة التقرير ، وما تدخله من تغيير فى المعنى حيث « إنها تحول النفى إلى إثبات ، والاثبات إلى نفى ، فقول جرير يمدح عبد الملك بن مروان ».

ألستم خير من ركب المطايا    وأندى العالمين بطون راح

أى : أنتم كذلك ، وقول الله عز وجل .

« الله إذن لكم » ؟

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ؟

أى : لم يأذن لكم ، ولم تقل للناس اتخذونى وأمّى الهين من دون الله .. فإن دخلت - همزة التقرير - على الموجب نفته ، وإذا دخلت على النفى نفته ، ونفى النفى عائد به إلى الاثبات [(١)] ».

ولاشك أن ملاحظة ابن جنى الدقيقة فى أسلوب التقرير تساعدنا فى تحديد المعنى لكثير من الأمثلة التى تصادفنا .

(١) الخصائص ٢/٤٦٤

فقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾؟

فالاستفهام هنا تقرير ، ويكون الجواب : نعم هو الحق ، فيتحول النفى إلى إثبات .

وفى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ؟

يكون المعنى أعلم أن الله على كل شىء قدير فيتحول النفى إلى إثبات .

وفى قوله تعالى :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ؟

يكون المعنى : قلت لك ذلك ، فيتحول النفى إلى إثبات .

وكما قال ابن جنى إن همزة الاستفهام ، إذا كانت للتقرير ، فإنها تحول الاثبات إلى نفى . نلاحظه فى مثل هذه الآيات :

﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ؟

أراد أن يقر بأنه لم يفعل ، فكان الجواب بالنفى فقال : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ .

أراد أن يقرر الملائكة بأنهم لم يكونوا يعبدون من دون الله ، فكان الجواب بالنفى أيضا .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ .

ومثل ذلك الآيات التى ذكرناها نقلا عن ابن جنى .

فخروج الاستفهام عن حقيقته ، وعن معناه الأصلى إلى معان أخر : كالأمر ، أو الإنكار ، أو النفى ، أو التعجب ، أو التهكم ، أو التحقير ، أو التعظيم ، أو التمنى ، أو التشويق ، أو التقرير إلى غير ذلك من أساليب الاستفهام المتعددة . لابد أن يكون

لعلة بلاغية قصد إليها المتكلم ولم يرد أن يكاشف بها صراحة ، بل لجأ إلى التعبير عنها متخفيا وراء أسلوب الاستفهام ، ليصل إلى مراده دون حرج لنفسه ، أو لغيره من المخاطبين .

وابن جنى يبين لنا بعض الأسباب التى تدعو إلى خروج الاستفهام عن صورته متعمقا بواطن النفس البشرية ، مدركا لأغوارها السحيقة ، ومراميها المتعددة ، ليصل السائل بسؤاله إلى كل ما يبغى الوصول إليه ، فيقول :

« اعلم أنه ليس شىء يخرج من بابه إلى غيره إلا لأمر قد كان .. ذلك أن المستفهم عن الشىء قد يكون عارفا به مع استفهامه فى الظاهر عنه ، ولكن غرضه بالاستفهام عنه أشياء ، منها :

أن يظهر للمسئول أنه خفى الأمر عليه ليسمع جوابه منه .

ومنها : أن يتعرف حال المسئول ، هل هو عارف به ؟

ومنها : أن يرى الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد لما فى ذلك من الغرض .

ومنها : أن يعد ذلك لما بعده مما يتوقعه ، حتى إن حلف بعد ذلك أنه قد سأله عنه حلف صادقا ، فأوضح بذلك عذرا ، ولغير ذلك من المعانى التى يسأل السائل عما يعرفه لأجلها وبسببها »(1) .

وبهذا يضع ابن جنى أيدينا على بعض الدواعى البلاغية التى اقتضت إخراج الاستفهام عن صورته إلى صورة أخرى ، ولهذا أهميته القصوى فى علم البلاغة.

فلا جدال أن الاستفهام أوفر أساليب الكلام معانى ، أوسعها تصرفا ، وأكثرها في مواقف الانفعال ورودا ، ولذا نرى أساليبه تتوالى فى مواطن التأثير ، وحيث يراد التأثير ، وهيج الشعور للاستمالة والاقناع ..

وإذا صح القول : أن للكلام قمة عليا فى البلاغة ، كان أسلوب الاستفهام محتلا أعلى مكان فى تلك القمة .

---

(1) الخصائص ٢/٤٦٤

والقرآن المكى يحوى من أساليب الاستفهام أروع الصور ، وأكثرها للوجدان إثارة ، وأشدها على النفس وقعا ، فنرى تلك الأساليب تتوالى في مواضع كثيرة منه مؤدية شتى المعانى البلاغية، محققة هذا التلوين الكلامى الذى يهز المشاعر هزا ، ويبعث فى النفس شغفا به ، وشوقا إلى تتبعه فى حركة سيره ، ومجرى انتقاله» (١).

أما استعمال أدوات الاستفهام فى معناها الحقيقى الذى وضعت له ، وإن كنا نهتم به فى علم النحو ، إلا أن البلاغيين لا يعطونه كبير اهتمام فى دراستهم البلاغية.

**رابعـــا - أسلوب التمنى (٢) :**

وهو طلب الشىء المحبوب الذى لا يتوقع حصوله : إما لكونه مستحيلا ، أو لكونه بعيد المنال .

ويذكر ابن هشام : « أن التمنى يتعلق بالمستحيل غالبا ، وبالممكن قليلا » (٣)

فمثال الأول قوله تعالى :

﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾.

﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾.

﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

ومنه قولهم :

ليت الشباب يعود ، وليت الفيل يطير ، وليت الحائط يتكلم.

فالشباب لا يعود ، والفيل لا يطير ، والحائط لا يتكلم ، وهو أمر مستحيل فى الحقيقة والواقع .

---

(١) أساليب الاستفهام فى القرآن ٢٩٢ ، ٢٩٣

(٢) شرح التلخيص ٨١ ، جواهر البلاغة ١٠٣ ، علم المعانى ٥٧

(٣) المغنى . ابن هشام ١/٤٠ المطبعة الأزهرية ١٣١٧ هـ

ومثال الثانى - قوله تعالى :

﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ ﴾ .

﴿ قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ .

﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ .

فكلها أمور ممكنة ، وإن كانت بعيدة المنال والتحقيق .

ومنه قولهم : ليت المُقعد يسير ، والبليد ينجح ، والفقير يثرى .

فهذه الأمثلة ليست مستحيلة الوقوع ، بل هى ممكنة عقلا ، إلا أن الأمل فى وقوعها ضعيف ، أو لأنها لا تقع إلا بعد جهد ومشقة .

وأداة التمنى الأصلية : ليت .

وأداة الترجى الأصلية : لعل .

ومعنى الترجى : توقع أمر محبوب ، أو اشفاق من أمر مكروه مثل قوله تعالى:

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ .

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

فلعل وإن كان فيها التعليل إلا أن فيها معنى التوقع للأمر المحبوب .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ .

فإن الساعة مخوفة في حق المؤمنين . بدليل قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ .

﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ .

ففى هذه الآيات نلحظ الاشفاق من وقوع الأمر المكروه.

يقول الرضى فى بيان الفرق بين التمنى والترجى :

« وماهية التمنى غير ماهية الترجى ، وهى استعمال التمنى فى الممكن والمحال ، واختصاص الترجى بالممكن ، وذلك لأن ماهية التمنى : محبة حصول الشىء سواء تنتظره وترتقب حصوله أو لا .

والترجى : ارتقاب شىء لا وثوق بحصوله ، فمن ثم لا يقال : لعل الشمس تغرب ، فيدخل فى الارتقاب الطمع والاشفاق .

فالطمع : ارتقاب شىء محبوب نحو لعلك تعطينا .

والاشفاق : « ارتقاب المكروه نحو لعلك تموت الساعة »[1].

وأحيانا نستعمل فى التمنى أداة الترجى ، ونستعمل فى الترجى أداة التمنى لغرض بلاغى .

فإذا قلنا : ليت المريض يشفى ، والمسافر يعود ، والاستاذ يحضر ، كما استعملنا ليت فى غير موضعها ، لأن شفاء المريض ، وعودةالمسافر ، وحضور الأستاذ أمور ممكنه الوقوع ، وليست مستحيلة أو بعيدة المنال ، وكان ينبغى أن نستعمل أداة الترجى بدلا من أداة التمنى ، ولكننا عدلنا عن الرجاء إلى التمنى لغرض بلاغى : وهو إبراز الممكن فى صورة المستحيل ، أو البعيد المنال مبالغة فى بعد نيله.

ومن ذلك قول المتنبى :

**فيا ليت ما بينى وبين أحبتى . من البعد ما بينى وبين المصائب**

وقول أبى فراس يخاطب سيف الدولة :

**فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب**
**وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب**

فهذه أمور ممكنة ، وليست مستحيلة ، ولكن الشاعر أبرزها فى صورة الشىء المستبعد مبالغة فى تملقه للممدوح ، فعبر بأداة التمنى .

---

(١) شرح الكافية للمرضى ٢/٣٤٦

وإذا كانت ليت هى الأداة الأصلية للتمنى .

فهناك أيضا ثلاث أدوات لم توضع للتمنى ، ولكنها خرجت عن معناها الحقيقى واستعملت فى التمنى لغرض بلاغى .

وهذه الأدوات :

**هل**- كقوله تعالى :

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ .

وقول ابن الدمينة :

**الا هل من البين المفرّق من بدّ وهل لليالٍ قد تسلّفْن من ردّ**

فهل أداة استفهام كما هو معلوم ، ولكنها لم تستعمل فى هذه الأمثلة للاستفهام ، بل استعملت للتمنى ، وخرجت عن معناها الحقيقى الذى وضعت له ، وذلك ، لأن المطلوب مستحيل ، والغرض إبراز المتمنى البعيد الحصول ، فى صورة المستفهم عنه الممكن الحصول ، اظهارا لكمال العناية به ، والرغبة فيه .

**لو**- كقوله تعالى :

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وكقول امرىء القيس :

**فلو انها نفس تموت جميعةً ولكنها نفس تساقطُ انفسا**

أى أنه يموت شيئا فشيئا ، ويتمنى أن تفارقه الروح مرة واحدة .

وكقول الشاعر :

**وليَ الشبابَ حميدةً أيامه لو كان ذلك يشترى أو يرجع**

فمعنى (لو) الذى وضعت له فى أصل اللغة أن تكون حرف امتناع لامتناع : أى: امتناع الجواب لامتناع الشرط ، فأبرز التمنى وهو الأمر الممكن ، وإن كان بعيد المنال فى صورة الأمر الممتنع تماما ، إبراز لعزة شأنه ، وندرة حاله .

لعل - كقوله تعالى :

﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ .

وقول العباس بن الأحنف :

أسرب القطا هل من يعير جناحه　　لعلى إلى من قد هويت أطير

فبلوغ فرعون أسباب السموات ، وطيران الحبيب إلى المحبوب أمر مستحيل ، وكان هذا يقتضى استعمال الأداة التى وضعت للتمنى وهى ليت ، ولكنه استعمل بدلا منها لعل التى تفيد الرجاء : وهو إمكان الوقوع ، وسبب هذا العدول هو أنه أراد إبراز الأمر المستحيل فى صورة الممكن إظهارا لكمال العناية ، واللهفة إليه .

أما المقياس الذى نميز به استعمال هذه الأدوات (هل - لو - لعل) فى غير معناها الحقيقى ، وأن القائل قصد منها التمنى ، هو أن تراها مستعملة فى شىء بعيد المنال ، أو مستحيل الوقوع ، وبذلك تكون قد خرجت عن المعنى الحقيقى الذى وضعت له .

الأسلوب الخامس من أساليب الإنشاء :

**النداء:** هو طلب المتكلم اقبال المخاطب بحرف من أحرف النداء.

ومنها ما يستعمل لنداء القريب : الهمزة وأى.

ومنها ما يستعمل لنداء البعيد : يا ، أى ، أيا ، هيا ، ووا.

« والقرآن المجيد مع كثرة النداء فيه لم يأت فيه نداء بغير (يا) »[1].

و (يا) ينادى بها العاقل :

كقوله تعالى :

﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾.

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ .

﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

---

(١) الأشباه والنظائر السيوطى ١٠١/٢ ط حيدر آباد

وقد ينادى بها غير العاقل إذا أردت تنزيله منزلة العاقل المميز الذى يفهم ويمتثل للنداء .

كقوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ .

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

فالنداء للأرض والسماء فى الآية الأولى ، وللجبال فى الثانية ، وللنار فى الثالثة ، نداء لغير العاقل الذى لا يستجيب ، لأنه لا يسمع ، فنزله الله تعالى منزلة العاقل إذا أمره أطاع ، وإذا طلب منه أذعن ، وإذا دعاه استجاب ، إشعارا بأنه غير ممتنع على قدرة الله من جهة ، وعلى عزة الألوهية من جهة أخرى .

وقد يحذف حرف النداء ويبقى معناه ماثلا :

كقوله تعالى :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ .

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ .

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وأحيانا تكون (يا) للتنبيه وليست للنداء :

« فإن وليها : ليت ، أو رُبّ ، أو حبذا فهى للتنبيه لا للنداء » (١)

وكذلك تكون للتنبيه إذا وليت ألا الاستفتاحية .

« ألاَ لها فى الكلام معنيان : افتتاح الكلام والتنبيه ، فإذا دخلت على (يا) خلصت (ألا) افتتاحا ، وخص التنبيه بيا ، كقول نصيب :

**ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد فقد زادنى مسراك وجدا على وجد** (٢)

(١) التسهيل لابن مالك ١٧٩ ط وزارة الثقافة
وأنظر أيضا دراسات لأسلوب القرآن ٦٣٧/٣

(٢) الخصائص ١٩٦/٢ ، والمرجع السابق ٦٣٨/٣

ألا هنا للافتتاح ، ويا للتنبيه ، وقصد بها المبالغة فى تأكيد التنبيه الذى يفهم من افتتاح الكلام .

١- وقد ينزل المنادى القريب منزلة البعيد ، إشعارا له بعلو منزلته ، وبعد مكانته ، فبعد مكانته بمثابة بعد مكانه ، فيستعمل معه أدوات النداء الموضوعة لنداء البعيد . كقوله تعالى :

﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ .

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ ﴾ .

« يارب اغفر لى » والله أقرب إلينا من حبل الوريد .

٢ - وربما ينزل المنادى القريب منزلة البعيد ، إشعارا له بانحطاط منزلته ، كأنه بعيد عن القلب ، قصىّ عن الاهتمام ، فينزل هذا البعد النفسى منزلة البعد المكانى ، كقول جرير :

**فخلّ الفخر يا ابن أبى خُليد ... وأدّ خراج رأسك كل عام**

فقد استعمل جرير فى الهجاء أداة النداء الموضوعة للبعيد مبالغة فى تحقيره ، والنيل منه فكان بعده عن القلب كبعده عن المكان .

٣ - وأحيانا ينزل المنادى القريب منزلة البعيد ، إشارة إلى أن السامع غافل ، أو ذاهل ، فكأنه بعيد وغير حاضر ، كأن تقول للغافل الذى تكاد تدهمه سيارة : احترس يا رجل.

٤ - وقد ينزل البعيد منزلة القريب ، لأنه حاضر فى الذهن ، قريب إلى القلب ، فتستعمل معه الأداة الموضوعة للقريب .

ومن ذلك ما كتبه والد لولده ينصحه :

**أحسين إنى واعظ ومؤدب ... فافهم فإن العاقلَ المتأدبُ**

وكقول أبى فراس وهو فى الأسر ينادى سيف الدولة :

**أسيف الهدى وقريعَ العرب ... إلامَ الجفاءُ وفيم الغضبْ**

وقد تخرج أدوات النداء عن معناها الأصلى الذى وضعت له ، واستعملت فى معنى آخر غير النداء يفهم بواسطة القرائن ، وسياق الكلام ، وذلك لغرض بلاغى :

فقد يخرج النداء إلى التعجب كقول الفرزدق :

**فواعجبا حتى كليب تسبنى ... كأن أباها نهشل أو مُجاشعُ**

فالفرزدق هنا يتعجب من جرأة جرير وقومه عليه .

وقد يكون معناه الزجر . كقول الشاعر :

**أفؤادى منى المتاب ألمّا ... تصح والشيب فوق رأسى ألمّا**

فهو يزجر نفسه على اقترافها الآثام ، رغم كبر سنه ، وعلو الشيب مفرقه .

وقد يكون معناه التحسر . كقول الشاعر :

**دعوتك يا بنى فلم تجبنى ... فرُدَّت دعوتى يأسا عليا**

وواضح أن الشاعر لا ينادى ابنه ، فهو قد مات ، وإنما هو يتحسر على فقده ، وانقطاع الأمل من حياته .

وقد يخرج النداء إلى الأغراء :

كأن تقول : يا جندى حارب ، ويا مظلوم تشبث بحقك ، ويا نزيه تعفف عن الصغائر . فهذه الأمثلة لا يقصد بها النداء ، وإنما يريد بها إغراء المخاطب على الفعل الطيب ، والبعد عن العمل السيئ .

وقد يخرج إلى الاستغاثة :

نحو يا لله للمسلمين ، ويا للعرب لفلسطين .

وقد يخرج إلى الندبة ، كقول الشاعر :

**فواكبدى مما ألاقى من الهوى ... إذا حنّ إلف أو تألق بارقُ**

فهو يندب نفسه ، ويتوجع على كبده لما يلاقيه من العشق والهيام .

وغـيـر ذلك من الأسـاليب التى تظهـر فى صـورة النداء ، وخـرجت عن مـعناه الأصلى إلى معان أخر ، تستفاد من سياق الكلام ، وهى كثيرة اكتفينا بذكر بعضها ، وتركنا البـاقى اعتمـادا على فهم القـارئ ، ومَنْ له نور البصـيرة ، وقوة الادراك ، لا يخفى عليه ذلك .

# القصـــــــر

## (١)

وحديث سيبويه عن القصر ليس مسهباً، وإنما هو مبتور بتراً، فقد تحدث عنه بما لا يتجاوز الأسطر الثلاثة، وربما لم يتجاوز السطر الواحد فى بعض المواضع، ورغم هذا الاختصار الشديد، فقد تحدث عنه بما يفيد، فهو يحدثنا عن قصر القلب، وقصر التعيين في عبارة قصيرة موجزة من خلال حديثه عن النعت يقول: «ومنه مررت برجل راكع لا ساجد، لإخراج الشك أو لتأكيد العلم [١] فيهما» فسيبويه فى هذا المقال يرى أن المخاطب متردد في وصف الرجل بأحد الوصفين، الركوع أو السجود، فأراد مع المتكلم إزالة هذا الشك وهو ما يسمى في عرف البلاغيين بقصر التعيين. أو أنه أراد أن يؤكد للمخاطب أن الرجل متصف بالركوع وليس بالسجود وهذا ما سمى بعد ذلك بقصر القلب هذا فيما يختص بالقصر بأحد حروف العطف وهو (لا).

أما حديثه عن بقية حروف العطف، وصلتها بالقصر، فلم يكن فيها واضحاً كل الوضوح وإنما غلب عليه الطابع النحوي الصرف، وليس البيان البلاغى الذى نتعقبه في هذا البحث، فهو مثلاً يقول «ومنه ما مررت برجل صالح بل طالح، وما مررت برجل كريم بل لئيم، أبدلت الصفة الآخرة من الصفة الأولى، وكذلك مررت برجل صالح بل طالح ولكنه يجىء على النسيان أو الغلط فيتدارك كلامه» [٢] فالنسيان، أو الغلط ليس معدوداً من مسالك الفصاحة والبلاغة عند من يتحدثون عن الأمور البلاغية، فالرضى (ت ٦٨٤هـ) خلال حديثه عن البدل يقول «ولا يجىء الغلط

(١) الكتاب ٢١٣/١

(٢) الكتاب ٢١٦/١

الصرف ، ولا النسيان في كلام الفصحاء، وما يصدر عن روية وفطانة، فلا يكون في شعر أصلاً (٢).

وحديثه عن (إلا) فى إفادة القصر واضح كل الوضوح، وإن لم يذكر لفظ القصر فيقول: «فأما الوجه الذى يكون فيه الاسم بمنزلته قبل أن تلحق إلا، فهو أن تدخل الاسم فى شىء تنفي عنه ما سواه وذلك قولك ما أتاني إلا زيد، وما لقيت إلا زيداً. وما مررت إلا بزيد ... فأدخلت إلا لتوجب الأفعال لهذه الأسماء، ولتنفي ما سواها فصارت هذه الأسماء مستثناة» (٢).

ونحن نعلم أن القصر فى اصطلاح البلاغيين تخصيص شىء بشىء بطريق مخصوص. وسيبويه أفاد هذا المعنى الإصلاحى، فقد خصص ما قبل إلا بما بعدها، ونفى ما سوى ذلك، كما ذكر أداة القصر وهي النفي والاستثناء، غاية ما فى الأمر أن سيبويه لم يذكر كلمة القصر، ولكنه أفاد معنى القصر كاملاً.

كذلك ذكر ضمير الفصل، وموضعه الذي يحسن فيه أو يقبح، ولم يذكر فائدة الفصل في الكلام، وهي تلك الفائدة التي تدخل في باب القصر، لما يؤديه هذا الضمير من التخصيص، أو تأكيد التخصيص.

أما التقديم فهو عنده يفيد الاهتمام بأمر المقدم، أو العناية بشأنه، أو التنبيه له، ولا يفيد التخصيص. ومن ثم فإن سيبويه لم يتناول من طرق القصر غير النفي والاستثناء والعطف، ولكنه لم يذكر شيئاً عن ضمير الفصل، أو إنما، أو التقديم على أن واحدة منها تفيد القصر. وعلى الرغم من ذلك فإن عبد القاهر قد استعان بسيبويه حين أراد أن يوضح لنا إحدى أدوات القصر ونعنى بها (إنما) فى أنها تجىء للخبر الذى لا يجهله السامع ولا ينكر صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة. استعان بما ذكره سيبويه فى باب كان من أن المقدم من اسمها أو خبرها هو المعلوم لدى السامع، وإنما ينتظر أن تعرفه بما يأتى بعد ذلك، ويقيس عبد القاهر على هذا ما يجىء بعد إنما من كونه معلوماً للسامع. فينقل ما ذكره سيبويه ثم يقول «فلم يقع إذن بعد إنما إلا

(١) شرح الكافية ١/ ٣٤٠

(٢) الكتاب ١/ ٣٦٠

شيء كان معلوماً للسامع من قبل أن ينتهي إليه»[1] وهكذا كان لسيبويه وإشاراته أساس بنى عليه البلاغيون آراءهم فى القصر وأدواته. غير أنني أخشى أن يحمل كلامي على غير وجهه فيفهم منه أن عبد القاهر قد تأثر بسيبويه فى إفادة (إنما) معنى القصر، وسيبويه فى الحقيقة قد أغفل القول عن إفادة إنما للقصر كما وضحت ذلك في السطور القليلة السابقة ولكني أردت أن أوضح أن عبد القاهر حين أراد أن يدلل على (إنما) فى أنها تأتي للقصر في المعلوم أو ما ينزل منزلته استشهد بكلام سيبويه- فى باب كان - حيث إن المتكلم يبتدئ بما هو معروف عند المخاطب وإن كان ينتظر الخبر وكذلك الشأن في (إنما) حيث لا يقع بعدها إلا شيء كان معلوماً للسامع.

ويتناول الفراء القصر فى أداتين من أدواته ونعني بهما النفي والاستثناء، وإنما، فهما عنده لا يأتيان في أول الكلام ابتداء، وإنما يكونان رداً على كلام سابق. كما أنه يخطئ من يظن أن (إنما) لا تأتي إلا لإفادة التحقير. فهي في بعض المواضع وفي القرآن قد أتت للتعظيم، ويؤيد الفراء في هذا القول ابن فارس. ويشرح لنا الفراء كيف يتأتى القصر، وكيف يتفاوت المعنى، ويختلف المقصور والمقصور عليه بحسب وضعه في الكلام «فإذا قلت (إنما قمت) فقد نفيت عن نفسك كل فعل إلا القيام، وإذا قلت (إنما قام أنا) فإنك نفيت القيام عن كل أحد وأثبته لنفسك.

قال الفراء يقولون (ما أنت إلا أخى) فيدخل في هذا الكلام الأفراد، كأنه ادعى أنه أخ ومولي وغير الأخوة، فنفى بذلك ما سواها. قال وكذلك إذا قال (إنما أنت أخي) قال الفراء. لا يكونان أبداً إداً على آخر كأنه ادعى أنه أخ ومولى وأشياء آخر، فنفاه، وأقر له بالأخوة، أو زعم زاعم أنه كانت منك أشياء سوى القيام، فنفيتها كلها ما خلا القيام. وقال قوم (إنما) معناه التحقير تقول (إنما أنا بشر) محقراً لنفسك وهذا ليس بشيء قال الله جل ثناؤه ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾

(١) الدلائل : ٢٧٠

(النساء:١٧١) فأين التحقير ها هنا؟ ويعقب ابن فارس على ما قاله الفراء بقوله. والذي قاله الفراء صحيح وحجته قوله ﷺ «إنما الولاء لمن أعتق»(١).

ويتحدث ابن جني عن القصر وفائدته من خلال حديثه عن تقديم النكرة وفائدتها، فتقديم النكرة يفيد أحياناً التأكيد، وتسلط المسند على المقدم، ونفي ما عداه. وهو معنى القصر أيضاً. ويوضح ذلك فيقول : «وأما قولهم (شر أهر ذا ناب)، فإنما جاز الابتداء فيه بالنكرة من حيث كان الكلام عائداً على معنى النفي، أى ما أهر ذا ناب إلا شر، وإنما كان المعنى هذا لأن الخبرية عليه أقوى، ألا ترى أنك لو قلت أهر ذا ناب شر، لكنت على طرف من الإخبار غير مؤكد، فإذا قلت. ما أهر ذا ناب إلا شر كان ذلك أوكد، ألا ترى أن قولك، ما قام إلا زيد، أوكد من قولك قام زيد، وإنما احتيج إلى التوكيد فى هذا الموضع من حيث كان أمراً عانياً مهما. وذلك أن قائل هذا القول سمع هرير كلب فأضاف منه وأشفق، لاستماعه أن يكون لطارق شر فقال «ما أهر ذا ناب إلا شر» تعظيماً عند نفسه، أو عند مستمعه، وليس هذا فى نفسه كأن يطرق بابه ضيف أو يلم به مسترشد، فلما عناه وأهمه وكد الإخبار عنه(٢). فابن جنى يرى أن الذي دعا إلى التقديم في هذا الموضع تعظيم الأمر على أى حال من الأحوال سواء عند نفسه، أو مستمعه، ولشدة عنايته واهتمامه له أراد أن يؤكده حتى لا يظن أحد أن هرير الكلب لم يكن لداعي الشر، أو يدور فى خلده أن يكون لشىء آخر كاحتمال أنه من جنس الخبر، أو لقدوم الضيفان مثلاً، وليس لطارق الشر على سبيل القطع واليقين، فأراد بهذا التقديم أن ينفي كل احتمال آخر، ويركز على أن الهرير لم يكن إلا لداع واحد فقط هو الشر. وكان ذلك بمثابة القصر الذى يثبت الشىء المراد إثباته بطريقة قطعية، ونفى ما سواه بيقين أيضاً. ومما لاشك فيه أن عبد القاهر قد نقل هذا المعنى بتمامه فى الفصل الذى عقده عن تقديم النكرة حينما يقول : «فإذا قلت رجل جاءني لم يصلح حتى تريد أن تعلن أن الذى جاءك رجل لا امرأة. وقولهم شر أهر ذا ناب، إنما قدم فيه (شر) لأن المراد

(١)انظر الصاحبى ١٠٥، ابن فارس.

(٢) الخصائص ٣١٩/١

أن يكلم أن الذى أهر شر ذا الناب هو من جنس الشر لا من جنس الخير، فيجرى مجرى أن تقول رجل جاءني، تريد أنه رجل لا امرأة. وقول العلماء - يعني النحاة ولعله يقصد ابن جني بصفة خاصة- إنه إنما يصلح، لأنه بمعنى «ما أهر ذا ناب إلا شر» بيان لذلك. ويمضى عبد القاهر فيقول «والغرض من الكلام أن نبين أن الذي أهر ذا الناب هو من جنس الشر لا من جنس الخير (١) فواضح تماماً أن عبد القاهر في هذا الفصل ينقل ما سبق ذكره عن ابن جني وأراد منه إفادة التوكيد في التقديم كإفادته في القصر.

وعبد القاهر يستهل حديثه عن القصر بقول النحاة، ومنهم أبو علي الفارسى وأبو إسحق الزجاج في جعل (إنما) بمنزلة (ما وإلا) فيخالفهم في ذلك لأنهما ليسا على جهة سواء وبينهما فروق ؛ لأن هذا المعنى ليس هذا المعنى بعينه، وفرق بين أن يكون الشئ فى معنى الشىء وبين أن يكون الشىء الشىء على الإطلاق. ويبني على هـذا القول الذى يرد به على النحـاة الفروق بين التعبير (بإنما) والتعبير (بما وإلا) (٢).

(فإنما) تستعمل فيما يكون معلوماً أو ما ينزل هذه المنزلة.

والنفى والاستثناء فيما يكون مجهولاً ، أو ما ينزل هذه المنزلة.

ويصح أن تقول إنما محمد قائم لا قاعد، ولا يصح أن تقول ما محمد إلا قائم لا قاعد، فلكل منهما موضع لا يصلح فيه الآخر. والإخلال به يفسد النظم، ويغير المعنى. كما يوضح أن المقصور عليه في (إنما) هو المؤخر، وفي النفي والاستثناء ما بعد إلا، ولا ينبغى أن نحيد عن ذلك حتى لا يفسد النظم، فقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ المراد منه: أن الخشية مقصورة على العلماء، ولو قدم العلماء لصار المعنى على الضد مما هو عليه، فتكون الخشية من العلماء وغير العلماء، ويكون الغرض بيان المخشى وهو الله، وهذا المعنى لم تهدف إليه الآية

(١) دلائل الإعجاز ١٠٩
(٢) الدلائل ٢٥٢

الكريمة، وإنما سببه اختلاف النظم بالتقديم والتأخير، الذى نتج عنه اختلاف المعنى. فالذى أوجب التقديم والتأخير والمحافظة على كنه البلاغة ما فى هذا النظم من ترتيب على الصورة التى بدت فيها الآية الكريمة، ورغم هذا الاستيعاب الدقيق لبيان الفروق بين القصر بإنما، والقصر بما وإلا، فإن عبد القاهر باستيعابه لم يغلق الباب فى وجه الدارسين، بل هداهم إلى إضافة بعض الفروق، فنراهم يضيفون إلي فروقه فرقاً آخر. فالقصر تأكيد للكلام وغير أن التأكيد مع (إنما) تأكيد للإثبات، ومع (النفى والاستثناء)، تأكيد للنفي، وشتان ما بين التأكيدين، ومن الواجب الفصل بين هذين النوعين من التأكيد وبذلك لم يكن بحث عبد القاهر في القصر هو البحث الأخير الذى لا نضيف إليه شيئاً.

وربما كانت هذه التفرقة تفتقر إلى شيء من التوضيح حتى تبدو جلية للأذهان، ويحسن أن ننقل نص ما قاله المؤلف لتبديد ما فى هذه الفكرة من غموض، يقول الدكتور أنيس «ونحن حين نتبع أسلوب القصر مع النفى والاستثناء في القرآن الكريم نراه دائماً لنفي ما سبق، سواء كان هذا الذى سبق ملفوظاً أو ملحوظاً، ونراه يسبق في غالب الأحيان بمعنى منفي ثم يأتى هذا الأسلوب مؤكداً لذلك المعنى المنفى، فهو أسلوب نفي يؤكد نفياً سابقاً بطريق غير مباشر. ففي قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢)، فقد نفى سبحانه وتعالى في الآية الأولى أن به جنة، أو بعبارة أدق أكد هذا النفي الذى يستفاد من كلام سابق، وفي الآية الثانية أكد نفي أن الرسول قد مسه سوء، ويتفق هذا مع ما يقوله أهل البيان في باب الفصل والوصل من أن الفصل في الجملتين في كل آية من هاتين الآيتين إنما كان لأن الجملة الثانية مؤكدة للأولى تفيد معناها، كذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٣)، ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٤

(٢)سورة الأعراف، الآية : ١٨٨

(٣) سورة الشعراء، الآيتان ١١٤ - ١١٥

لَكُم﴾(1)، ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾(2) أكد فى الآية الأولى نفي أنه طاردالمؤمنين، وفى الثانية أن به جنة، وفي الثالثة أنه مسمع من فى القبور.

فإذا سبق الكلام بالإثبات جاء القصر بإنما، مثل الآيات : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(3)، ومثل : ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾(4). ثم يقول وعندئذ ندرك أن القصر بالنفي مع الاستثناء لا يماثل القصر بإنما. وإن ما قاله البلاغيون من تساوى الأسلوبين فيه كثير من التجوز.. وذلك لأن الأسلوب الأول (النفى والاستثناء) أسلوب نفي، فى حين أن الأسلوب الآخر (القصر بإنما) أسلوب تقرير وإثبات (5).

## (2)

يقول الله عز وجل : ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ (6).

أى مخدرات يلازمن بيوتهن ولا يطفن في الطرقات.

وقال تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ (7).

أي يقصرن أبصارهن على أزواجهن ولا ينظرن إلى غيرهم.

أراد القرآن بذلك أن يصف نساء الجنة بصفة وينفي عنهن صفة أخرى.

وهذا هو معنى القصر : تخصيص شيء بحيث لا يتجاوزه إلى غيره. يقول تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ (8).

---

(1) سورة سبأ، الآية : ٤٦
(2) سورة فاطر، الآيتان : ٢٢ - ٢٣
(3) سورة العنكبوت ، الآية : ٥٠
(٤) سورة الملك، الآية ٢٦
(٥) أسرار اللغة ١٧٥ - ١٨٠
(٦) سورة الرحمن، الآية : ٧٢
(٧) سورة الرحمن، الآية ٥٦
(٨) سورة يوسف، الآية ١٠٩

فقد كان المشركون ينكرون أن الرسول من البشر، فأكد لهم القرآن أن الرسل جميعاً بمن فيهم محمد ﷺ لا يكونون إلا من الرجال. فقصر الرسالة على الرجال بحيث لا يتعداها إلى غيرها من الملائكة، لأنهم كانوا يقولون : ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً ﴾(١) أو يتجاوزها إلى غيرها من النساء، وعن ابن عباس يريد بالآية أن ليست فيهم امرأة.

وقد قصر في هذه الآية الفعل والفاعل على المفعول، فهو من قصر الصفة على الموصوف.

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ ﴾(٢).

حوار يدور بين الكافرين والأصنام التى يسوونها في العبادة برب العالمين الذى ينبغي ألا يعبد سواه، ثم ندمهم على اقترافهم هذا الفعل الشنيع، الذي أغراهم به رؤساؤهم وكبراؤهم فقوله : ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ قصروا ضلالهم على المجرمين، أى لم يدفعهم إلى هذا الضلال سواهم، ولم يكن بدافع من نفوسهم وعقولهم. وهذا من قصر الصفة على الموصوف.

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾(٣). قائل هذا القول معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال : يعدنا محمد فتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً، ما هذا إلا وعد غرور، وليس وعداً نافذاً.

أي : إن هذا الوعد بالنصر الذى أغر به المؤمنين لن يتحقق.

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾(٤).

---

(١) سورة فصلت، الآية : ١٤

(٢) سورة الشعراء، الآيات : ٩٦-٩٩

(٣) سورة الأحزاب، الآية : ١٢

(٤) سورة ص، الآية ١٥

أي : تفجؤهم النفخة، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، بحيث لا تتوقف مقدار فواق : وهو ما بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع، أي : لا تتأخر هذا القدر الضئيل من الزمان، فالنفخ هنا نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد.

وقال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾(١) أي : إن دعاءهم لن يخفف عنهم العذاب ولن يتقبله الله وإنما يذهب أدراج الرياح، فقصر الدعاء على الضلال دون أن يتجاوزه إلى الاستجابة والنفع.

وقال تعالى : ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾(٢) أي ما يقوله الكفار لك من التكذيب والإيذاء لم يخرج عن قول السابقين المكذبين لرسلهم وليس على خلاف ذلك.

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(٣).

كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك النفوس وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، ومنه قوله عليه السلام (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر) أخرجه مسلم، أي : فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر، فقد قصروا الهلاك على الدهر دون أن يتجاوزوه إلى الله جل وعلا. وقصر الله وهمهم على الظن دون أن يتجاوزوه إلى العلم.

وقال تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(١) سورة غافر، الآيتان : ٤٩ - ٥٠
(٢) سورة فصلت، الآية : ٤٣
(٣) سورة الجاثية، الآية : ٢٤

والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر﴾(1).

في هذه الآية أربعة شواهد للقصر :

الأول : ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾، أي : ما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون.

الثاني : ﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ ، أى : تسعة عشر لا تتجاوز هذا العدد ليفتتن الكفار بذلك ويطمعوا أن يغلبوهم، وليستيقن المؤمنون وأهل الكتاب، لأن عدتهم تسعة عشر في الكتابين فإذا سمعوا بمثلها فى القرآن أيقنوا أنه منزل من قبل الله، وازداد المؤمنون إيماناً لتصديقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل.

الثالث : ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ لفرط كثرتها فلا يحصيها أحد سواه.

الرابع : ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ : الضمير هنا لجهنم، أو للآيات المتقدمة، أي ليست إلا ذكرى وموعظة يعبر بها البشر حتى يسلكوا الطريق الأمثل في الدين والدنيا.

كما يقول جل شأنه في معرض الحديث عن إمداد المسلمين بالملائكة في غزوة بدر:

﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾(2).

في الآية مثالان للقصر :

الأول : ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ أي : ما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا

(1) سورة المدثر، الآية : ٣١

(2) سورة آل عمران، الآية : ١٢٦

بشـارة لكم بالنصـر، وليس لشيء آخـر كـالتـخـويف وتفـريق الصـفـوف وخـذلان المحاربين من المسلمين.

الثـانى : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي : ليس من المـلائكة، ولا من القـتـال بالكثـرة، ولكنه من الله سبـحـانه وتعـالى، أراد الله بذلك أن يقـوي المؤمنين، ويربط على قلوب المجاهدين.

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾(١).

هذا الكلام من قـوم نوح حـين قـال لهم ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ (الصف:٦) استبعدوا أن يدعى النبوة وهو بشر، وما أعجب أحوالهم وأخف أحلامهم حين ادعوا الألوهية لحجر، فقد قصروا نوحاً على البشرية بحيث لا يتجاوزها إلى الرسالة، وهو من قصر الموصوف على الصفة.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾.(٢) يعني أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شـزراً لعيون العداوة والبغضاء يكادون يهلكونك حسداً على ما أنزل عليك من القـرآن، ومـا أوتيت من النبـوة، ومـا القـرآن إلا ذكـر ومـوعظة لكل الأنام، وليس داعياً إلى الجنون أو العداوة. وغير ذلك كثير جداً في القرآن الكريم.

ونلاحظ من هذه الأمثلة السابقة أنها ليست من نوع واحد.

فبعضها من قصـر الموصوف على الصفة بحيث لا يتجاوز الموصوف هذه الصفة إلى غيرها من الصفات الأخرى كقوله تعالى :

﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾. فـقـد أثبت للقـرآن صـفـة الـذكـر ونفى عنه بقيـة الأوصاف الأخرى.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان : ٢٣ - ٢٤

(٢) سورة القلم، الآيتان : ٥١ - ٥٢

﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ فقد أثبت لجهنم صفة الذكرى ونفى عنها بقية الأوصاف الأخرى.

﴿مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فقد أثبتوا للرسول صفة البشرية ونفوا عنه الصفات الأخرى.

ونلاحظ شيئاً آخر: أن نفى الصفات كلها عن الموصوف وبقاء صفة واحدة فقط شيء محال :

ففي الآية الأخيرة مثلاً ، لا يجوز عقلاً أن يصف الكفار محمداً بالبشرية وينفوا عنه كل ما عداها من صفات أخرى كالهداية والحكمة والفصاحة وحسن الخلق إلى غير ذلك من صفات الرسول ﷺ، وإنما أرادوا فقط أن ينفوا عنه صفة الرسالة لظنهم أن الرسول لا يكون بشراً، ولا يصح أن يجمع بين صفة البشرية وصفة الرسالة، ضمناً.

فقصر الموصوف على الصفة محال أن يكون حقيقياً، إذ يستحيل أن يوصف الشيء بوصف واحد فقط، وتنفي عنه كل الصفات الأخرى وإنما يكون قصراً إضافياً بمعنى : إنه أثبت له صفة بالإضافة إلى صفة أخرى معينة يريد أن ينفيها وليس إلى كل الصفات.

أما النوع الثاني فهو من قصر الصفة على الموصوف كقوله تعالى :

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ حيث أثبت صفة الضلال للمجرمين دون غيرهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً﴾ حيث جعل أصحاب النار من الملائكة دون سواهم.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ حيث قصر علم عدد الجنود وحالهم إلى الله دون غيره، ونلاحظ شيئاً آخر : إن هذا النوع من قصر الصفة على الموصوف يمكن أن يكون حقيقياً، مثل الآية الأخيرة، فالحق أن جنود الله لا يعلمها إلا الله، لا يعلمها الإنس ولا الجن ولا الملائكة، وإنما يعلمها الله دون سواه، فقصر صفة العلم بهذا

الأمر على الله وحده ونفيها عن جميع من سواه حقيقة لا جدال فيها، ولذلك يسمى هذا القصر ومن كان على شاكلته من الأمثلة قصراً حقيقياً.

وانظر أيضاً إلى قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾(١).

وقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٢).

نجد مصداق ذلك فلا إله حقيقة سوى الله، والعبادة والاستعانة لا تكون إلا لله وبالله.

وقصر الصفة على الموصوف كما يكون حقيقياً يكون إضافياً أيضاً :

فقول الله على لسان المشركين : ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾

قصراً إضافياً وليس حقيقياً، لأن الضلال يكون من المجرمين- رؤسائهم- كما يكون من غيرهم، فالضلال ليس فى حقيقته خاص بالمجرمين، وإنما أثبت الضلال للمجرمين بالإضافة إلى غيرهم من الشياطين، وليس بالإضافة مثلاً إلى هوى في النفس، أو انحراف في الفكر أو زيغ في العقيدة أو ميل عن الحق. ونزوع إلى الباطل.

ومن أدوات القصر : إنما.

قال تعالى : ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (٣).

فالرسول ﷺ يتلو عليهم القرآن راغباً فى هدايتهم، واتباع ما أنزل عليه من الوحى والتوحيد بالله ونفي الشرك عنه، فمن اهتدى بذلك واتبع الرسول وتعاليم القرآن فمنفعة اهتدائه راجعة إليه وليست راجعة إلى الرسول، ومن ظل سادراً في غيه وضلاله ولم يتبع الرسول فليس على الرسول شىء، فما هو إلا منذر وما عليه إلا البلاغ وليس مطالباً بهدايتهم، فليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء.

(١) سورة محمد، الآية : ١٩

(٢) سورة الفاتحة، الآية : ٥

(٣) سورة النمل، الآية : ٩٢

في الآية مثالان للقصر:

الأول: ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي: إن الهداية تعود إلى المهتدي ولا تعود إلى الرسول.

الثانى: ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ فقد أخبر الرسول عن نفسه بأنه منذر فقط، ونفى عن نفسه كونه هادياً.

فإنما تأتي للقصر بمعنى أن هذا الحكم لا يوجد في غير المذكور فهي إذن بمنزلة (ليس إلا).

فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾(١).

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾(٢).

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾(٣).

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾(٤).

في الآية الأولى: أثبت الإنذار وأنه لا يفيد إلا مع الذين يتبعون القرآن ونفاه عن غير هؤلاء من المشركين؛ فالإنذار معهم لا يجدى، وسواءعليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.

وفى الآية الثانية: أثبت الإنذار وأنه لا يفيد إلا مع الذين يتصفون بالخشية من الله، ونفى فائدة الإنذار مع هؤلاء المتمردين وأهل العناد.

وفي الآية الثالثة: أراد أن يخبر أن الرسول ﷺ بعث لينذر بأهوال الساعة وما يحدث فيها من شدة وتغير للمألوف من أحوال الدنيا، ونفى عنه أن يكون قد بعث ليعلمهم بوقت الساعة وموعدها فذلك لا فائدة منه.

---

(١) سورة يس، الآية: ١١

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٨

(٣) سورة النازعات، الآية: ٤٥

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٦

وفى الآيـة الأخيـرة : إن هـؤلاء المشـــركين لن يصـــدقوك ولن يسـتجــيبوا لدعائك، فهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون، وهل يسمع الموتى؟! إذن هؤلاء لا سبيل إلى استجابتهم، فلا تحرص على تصديقهم لك، فالذين يستجيبون هم الذين خلصت قلوبهم من العداوة للدين الجديد فيستمعون إليه ويتفهمونه، أما غير هؤلاء من المشركين فلن يستجيب منهم أحد.

وانظر إلى هذه الآيات التالية :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١).

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(٢).

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٣).

في الآية الأولى المقصور عليه : العلماء وهذه الكلمة وقعت فى نهاية الجملة والمعنى : «إنما يخشاه مثلك ومن كان على صفتك ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه.

وفي الآية الثانية ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ المقصور عليه : البلاغ التى وقعت في نهاية الجملة. أي عليك إبلاغهم وليس عليك هدايتهم.

**وفى الآية الثالثة ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ...﴾ المقصور عليهم هم الفقراء والمساكين وغيرهم ممن ذكروا في الآية الكريمة بحيث لا تتجاوزهم إلى غيرهم كأنه قيل : إنما هى لهم لا لغيرهم ، وهو ما جاء متأخراً في الجملة.**

ومعنى ذلك أن المقصور عليه في (إنما) هو المتأخر دائماً.

(١) سورة فاطر، الآية : ٢٨

(٢) سورة آل عمران، الآية : ٢٠

(٣) سورة التوبة، الآية : ٦٠

بخلاف ما كان طريقه النفي والاستثناء، فإن المقصور عليه هو ما جاء بعد إلا مباشرة سواء وقع في نهاية الجملة مثل :

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ فالمقصور عليه (هو).

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً﴾ فالمقصور عليه (الملائكة).

أو وقع في وسط الجملة مثل :

﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ فالمقصور عليه (الذكر).

﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فالمقصور عليه (بشر).

هذا أحد الفروق بين ما يكون طريقه النفي والاستثناء وبين ما يكون طريقه إنما، ومن الفروق بين الاثنين أيضاً :

إن ما طريقه (النفي والاستثناء) يستعمل في الأمور المجهولة التى فيها مجال للشك أو الإنكار، بخلاف (إنما) فإنها تستعمل في الأمور المعلومة التي لا يتطرق إليها الشك أو الإنكار.

فقوله تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾(١).

فالكافرون ينكرون على القرآن أن يكون من شأنه أن يزيد في خسارتهم ونقصهم والمؤمنون يزعمون أنه شفاء ورحمة لهم. فكان مناسباً لهذا الإنكار طريق النفي والاستثناء.

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾(٢).

فواضح أن هؤلاء المؤمنين تخاف قلوبهم وتنبض بالرهبة إذا ذكر الله تعالى.

---

(١) سورة الإسراء، الآية : ٨٢

(٢) سورة الأنفال، الآية : ٢

وواضح أيضاً أنهم يزدادون إيماناً كلما تليت آيات القرآن واستمعوا إليها فكان مناسباً لهذا الوضوح استعمال (إنما) دون النفي والاستثناء.

وأعلم أن أقوى ما تكون (إنما) وأبلغ، عندما تستعمل في التعريض ولا يراد بها ظاهر الكلام، وإنما يفهم منها مضمون الكلام ومغزاه. كقوله تعالي :

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(١). وردت الآية على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوى العالمون والجاهلون، كذلك لا يستوى القانتون والعاصون.

وليس الغرض من قوله: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن المراد أن يذم الكفار، ويقال لهم إنهم من فرط العناد في حكم من ليس بذي عقل.

وكذلك قوله تعالى :

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾(٢).

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾(٣).

فليس المراد ظاهر المعنى من إنذار الذين يخشون الساعة أو يخشون ربهم سراً ، وإنما المقصود والمغزى من وراء هذه الكلمات ذم الكافرين الذين لا يخشون ربهم، ومن لم تكن له هذه الخشية، كان كمن لم تكن له أذن تسمع وقلب يعقل «فالإنذار معه كلا إنذار»(٤).

وهذا التعريض حصل من وجود (إنما) في الجملة، فلو ذكرت الجملة بدون إنما وقلنا: (يتذكر أولو الألباب) كان مجرد وصف لأولي الألباب بأنهم يتذكرون، ولم يكن

(١) سورة الزمر، الآية : ٩

(٢) سورة النازعات، الآية :٤٥

(٣) سورة فاطر، الآية: ١٨

(٤) انظر الدلائل ٢٧٢ ونهاية الأرب ٧/٧٦

فيه ما يشير إلى نفي التذكر عمن ليس منهم، فإذا جاءت (إنما) في هذه الجملة كما في الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ لفهمنا شيئين معاً : تذكر أولى الألباب، ونفي التذكر عن غيرهم، لأن من شأن إنما، أن يفهم منها النفي بعد الإثبات.

ومن طرق القصر التقديم :

كقوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾(1).

أي : أن الله وحده هو الذي يوسع في الرزق ويبسطه ويقدره دون غيره، فتقديم المسند إليه- وهو الفاعل على الفعل- أفاد هذا القصر، ولو قيل (يبسط الله الرزق) دون تقديم المسند إليه لأفاد معنى آخر، وهو أن الله ليس مختصاً وحده ببسط الرزق، وإنما يشاركه فيه غيره، فإفادة القصر هنا جاءت من التقديم.

وكذلك قوله تعالى : ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾(2).

يصف الله خمر الآخرة بأنها لذة للشاربين ونفى عنها الفساد والإهلاك شأن خمر الدنيا. أي : ليس في خمر الآخرة ما يغتال عقل الإنسان ويفسده، فتقدم هنا الخبر- وهو الجار والمجرور- فأفاد هذا التقديم الاختصاص. أي أنه نفى الغول عن خمر الآخرة دون أن يتعداها إلى خمر الدنيا، فإن فيها غولاً. فالقصر هنا مفهوم من التقديم.

ومن إفادة التقديم للقصر قوله تعالى :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(3).

والأصل نعبدك، ونستعين بك، فقدم المفعول به هنا لأجل الاختصاص، والمعنى نخصك بالعبادة، ونخصك بطلب المعونة، دون سواك. بخلاف ما إذا قال «نعبدك ونستعين بك» فإنها لا تفيد القصر ولا يمنع التعبير من مشاركة غيره في العبادة والاستعانة به.

---

(1) سورة الرعد، الآية : ٢٦

(2) سورة الصافات الآيات ٤٥ - ٤٧

(3) سورة الفاتحة، الآية : ٥

ومن طرق القصر أيضاً ضمير الفصل :

كقوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾(١).

أي أن من أبغضك من قومك؛ لأنك خالفتهم وأتيت بدين غير دينهم. هو الأبتر المقطوع الذى لا عقب له، ولست أنت.

وقوله تعالى :

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾(٢).

أي : إن أرادوا ولياً بحق فالله هو الولي بالحق، ولا ولي سواه.

(١) سورة الكوثر، الآية : ٣

(٢) سورة الشورى، الآية : ٩

# الفصـل الثانى

# خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

ويشمل :

١ -وقوع الخبر موقع الإنشاء .

٢- وقوع الإنشاء موقع الخبر .

٣- وضع الضمير موضع الظاهر .

٤-وضع الظاهر موضع الضمير .

٥ - الالتفات

٦ - التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى .

٧ - التعبير عن الماضى بلفظ المستقبل .

٨ - وضع المفرد موضع المثنى والجمع .

٩ - وضع المثنى موضع المفرد والجمع .

١٠ - وضع الجمع موضع المفرد والمثنى .

١١ - القلب .

١٢ - التغليب .

# خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر له صور متعددة .

**أولا - وقوع الخبر موقع الإنشاء :**

وقد يقع الخبر موقع الإنشاء لأغراض بلاغية [1] منها :

١ - التفاؤل : نحو « غفر الله لك » فظاهر الكلام خبر ، لأنه ليس من أساليب الانشاء المعروفة ، ومعناه الدعاء ، لأن المعنى : رب اغفر له ، وهو إنشاء .

وغفر الله لك أبلغ من رب اغفر له ، فإن صيغة غفر للمضى ، والتعبير بالماضى يحصل به التفاؤل والمسرة ، لتحقيق وقوعه ، حتى كأنه قد وقع بالفعل ، ولا أدل على وقوعه من كونه قد حدث فعلا فى الزمن الماضى .

ومثله « وفقك الله للتقوى » فقد و ضع الخبر موضع الانشاء للتفاؤل .

ومنه « رزقنى الله لقاءك » فهذه كلها دعاء فى المعنى ، والدعاء إنشاء ، غير أنه قد عبر بلفظ الخبر .

٢ - إظهار الحرص على وقوع الشىء، وشدة الرغبة فى حدوثه ، كقوله تعالى: ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

معناه : اللهم اغفر لهم .

وقوله عليه السلام : « رحم الله أخى لوطا ».

معناه : اللهم ارحم أخى لوطا .

---

(١) شروح التلخيص ٢/٣٣٨ ، علم المعانى ٦٠ ، ٦١

ومنه تشميت العاطس ، وإجابته : « يرحمك الله » ، « يهديكم الله ويصلح بالكم » . وكقولك : « أحيا الله السنة ».

والدعاء بصيغة الماضى إذا صدر من البليغ احتمل التفاؤل ، واحتمل إظهار الحرص معا .

٣ - العدول عن صيغة الأمر تأدبا مع المخاطب .

كقول العبد للمولى إذا حول وجهه عنه « ينظر المولي إليّ لحظة ».

لأن الأمر ينافى الأدب ، خاصة فى خطاب من هو أعظم من المتكلم ، بخلاف صيغة الخبر ، فإنها مشعرة بالاحترام ، ولذلك قال : ينظر ، ولم يقل : انظر ، لأنه أمر.

٤ - حمل المخاطب على تنفيذ المطلوب بألطف وجه كقولك لصديقك : تزورنى غدا بدلا من قولك زرنى غدا .

فالتعبير بصورة الخبر يحتمل الصدق والكذب ، فلو أن المخاطب لم يحضر للزيارة ، ألصق بالمتكلم صفة الكذب ، والمخاطب لا يحب الصاق صفة الكذب لصديقه المتكلم ، فيضطر للحضور ، وبذلك يكون المتكلم قد حمل صديقه بألطف وجه ، وأرق أسلوب على الحضور .

٥ - حمل المخاطب على سرعة الامتثال ، وكأنه امتثل .

كقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، فتؤمنون وتجاهدون خبر فى معنى الأمر ، وتدل عليه قراءة ابن مسعود : « آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا »(١) .

ومنه قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون إلا الله ».

يقول الزمخشرى : فى لا تعبدون اخبار فى معنى النهى « أى لا تعبدوا ».

كما تقول : تذهب إلى فلان تقول له : كذا ، تريد ، الأمر ، وعبر بالخبر كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء (٢) .

---

(١) الكشاف ٤/٩٩

(٢) الكشاف ٤/٢٩٢

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ .

أى : لترضع الوالدات أولادهن حولين كاملين .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ .

ومعناه : ليتربصن « فقد شبه الطلب فى تأكده بخبر الصادق الذى لابد من وقوعه ، وإذا شبهه بالخبر الماضى كان آكد »[1] .

**ثانيًا - وقوع الإنشاء موقع الخبر :**

وقد يقع الانشاء موقع الخبر لأغراض بلاغية منها :

١ - التسوية بين الفعل وعدمه ، إذ أن الفعل لا يؤدى إلى ثمرة ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ .

« وهو أمر فى اللفظ ، وليس بأمر فى المعنى ، لأنه أخبرهم أنه لن يتقبل منهم ، كأنك قلت : إن أنفقت طوعا أو كرها فليس بمقبول منك ، فالأمر فى الكلام بمنزلة إن فى الجزاء .

ومثله ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ليس بأمر ، إنما هو على تأويل الجزاء : أى : أن تستغفر لهم أولا تستغفر لهم ، فإن الله لن يغفر لهم .

ومثله قول جميل بثينه :

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة ... لدينا ولا مقلية إن تقلت[2]

٢ - إظهار العناية بالشىء والاهتمام بشأنه .

كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ، لم يقل

---

(١) الاشارة إلى الايجاز ٤٠

(٢) معانى القرآن ٤٤١/٢

«وإقامة وجوهكم » إشعارا بالعناية بأمر الصلاة ، لعظم خطرها ، وجليل قدرها فى الدين .

٣ - الاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق .

كقوله تعالى : ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ، لم يقل وأشهدكم ، تحاشيا وفرارا من مساواة شهادتكم بشهادة الله تعالى (١).

بل إن فى هذا العدول عن التعبير بلفظ الخبر إلى لفظ الأمر ، توكيدًا لشهادتهم له بالبراءة من الشرك ، فينال المعنى حظه من القوة والتأكيد .

واستعمال الانشاء فى موضع الخبر ليس مقصورا على هذه الاغراض البلاغية الثلاثة ، فقد سبق القول بأن أساليب الانشاء وهى (الأمر - والنهى - والاستفهام - والتمنى - والنداء) كلها تخرج عن أصل وضعها ، وتستعمل فى معان أخر غير المعانى التى وضعت لها ، فتخرج إلى صور خبرية ، لأغراض بلاغية ، ذكرناها فى موضعها المناسب لها .

ونحب أن نختم القول فى الجملة الخبرية ، والجملة الانشائية التى اهتم بها البلاغيون دون أن يلقوا بالا لارتباط الفقرات بعضها ببعض ، أو يعطوا اهتماما للعمل الأدبى المتكامل ، فيبدو الحديث عن الجملة سواء كانت خبرية أو إنشائية دون وضعها فى مكانها من النص الأدبى بحيث تشكل جزءا منه ، مثل الكلام عن الجزء مبتورا عن الكل ليس فيه كبير غناء ، ولعل السبب فى ذلك ، أن الشعراء وتبعهم النقاد لم يكونوا يعرفون وحدة القصيدة ، فتأثر بهم البلاغيون حين أرادوا تقنين البلاغة ووضع القواعد لها .

« فالإحساس بالتناسق العام مبناه التأمل الطويل ، والوعى الداخلى للكل فى الجزء ، والجزء فى الكل ، وهذا ليس عند العرب ، فهم لا يرون إلا الجزء المنفصل، وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد ، لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق فى الأدب فالعقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية فى العمل الفنى الكبير ، لأنها تتعجل اللذة،

---

(١) جواهر البلاغة ١٠٩ ، علم المعانى ٦١

يكفيها بيت شعر واحد ، أو حكمة واحدة ، أو لفظ واحد .. لتمتلىء طربا وإعجابا»[1] .

قد يكون هذا التحليل للعقلية العربية ، والطبع العربى صادق النظرة ، ولكن ليس معنى هذا أن يصبح قيدا لا ننفك من إساره ، فلا نتحرك إلا فى إطار الجملة، أو الجملتين ، وإنما ينبغى أن ننظر إلى العمل الأدبى متكاملا بعد أن نظرنا إليه مجزءا من خلال الجملة سواء كانت خبرية أو إنشائية .

فالأسلوب الخبرى قد ينفرد بأداء المعنى ، وتكوين النص ، وإبراز الغرض .

والأسلوب الانشائى قد يقوم بأداء هذا الدور فى أداء المعنى ، وتكوين النص، وإبراز الغرض ، ولكن السير على نغمة واحدة تضعف النص ، وتحيله شيئا باردا يصيب القارىء بالملل والفتور .

لذلك كان الكثير الغالب هو الجمع بين الأسلوبين فى أى نص من النصوص ، يتعاقب أحدهما على الآخر ، ويتعاون كل منهما مع الآخر فى التعبير عن فكر الكاتب ، وإحساسه ، وإبرازه فى الصورة التى يراها متفقة مع حسه وفكره .

فتغير الأسلوب من خبر إلى إنشاء يدفع السآمة ، ويثير الانتباه ، ويحرك الشعور ، وتحول الأسلوب من إنشاء إلى خبر يبعد القلق ، ويعيد الطمأنينة ، ويلطف من حدّة الشعور ، فالانتقال من صيغة إلى أخرى فى الانشاء ، والتحول من أسلوب خبرى إلى إنشائى يعطى النص حيوية وحياة ، قل أن نجد لها مثيلا إذا خلا النص من هذا التحول ، وهذا الانتقال .

**ثالثا - وضع الضمير موضع الظاهر :**

وقد يخرج الكلام عن مقتضى الظاهر فيوضع المضمر موضع المظهر ، ولم يتقدم مرجع الضمير .

كضمير الشأن نحو ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أصله : الشأن : الله أحد .

(١) تحت شمس الفكر الحكيم ٦٦ ط النموذجية

وضمير القصة نحو ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أصله القصة لا تعمى الأبصار .

وعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة ، وقد أجازه بعض النحاة نحو « أهان غلامه زيدا ».

ومجرور ربّ نحو « ربه رجلا ».

والمعمول لأول المتنازعين نحو أكرمنى وأكرمته زيد .

والعلة البلاغية فى وضع الضمير موضع الظاهر ، أن يتمكن من ذهن السامع ما يعقب الضمير ، لأنه بالضمير يتهيأ له ، ويتشوق إليه ، والحاصل بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب ، فإذا عبرت عن الشىء مضمرا كان الكلام مبهما ، ولا تتعرف من المقصود بالضمير . إذ لم يتقدم ما يدل عليه ، عندئذ تتشوق النفس إليه ، وتترقب معرفته ، فإذا ذكر بعد ذلك رسخ فى النفس ، وتمكن منها كل التمكن ، وتأكد زيادة تأكد ، فلا يتوقع النسيان له ، أو الغفلة عنه.

ومن وضع المضمر موضع الظاهر قوله تعالى : « قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » ، فالضمير فى نزله للقرآن ، ولم يتقدم ما يعود عليه الضمير ، فكان الواجب الاظهار ولكنه وضع الضمير بدلا من الظاهر ، لفرط شهرته ، ثم بعد ذلك ذكر أوصافه دون اسمه الصريح لفخامة شأنه ، وإبراز صدقه ، وهدايته ، وبشراه ، فذكر الضمير أولا ثم ذكر الوصف بدلا من الاسم بعد ذلك ، هو العامل فى شدة تمكينه فى ذهن السامع ، وامتلاء نفسه بأوصافه .

**رابعا - وضع الظاهر موضع الضمير :**

وقد يعكس فيوضع المظهر موضع المضمر كقول ابن الراوندى :

**سبحان من موضع الأشياء موضعها**

**وفرق العز والاذلال تفريقا**

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه

وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الأوهام حائرة

وصير العالم النحرير زنديقا

وأصل الكلام أن يقول : هو الذى ترك الأوهام ، لتقدم مرجع الضمير من إعياء مذاهب العاقل ، ورزق الجاهل . ولكنه لم يعبر بالضمير ، وعبر بالظاهر ، وهو اسم الإشارة ، لكمال العناية بهذا الأمر الذى اختص بحكم بديع.

وقد يوضع الظاهر – وهو اسم إشارة – موضع الضمير لادعاء ظهوره ، وكأنه أمر محسوس ، ومشار إليه ، ولا يكاد يخفى على أحد ، كقول عبدالله بن الدمينه :

تعاللت كى اشجى وما بك علة　　　تريدين قتلى قد ظفرت بذلك

فمقتضى الظاهر أن يقول : قد ظفرت به ، ولكنه وضع اسم الإشارة بدلا من الضمير للعلة البلاغية المذكورة .

وقد يكون الداعى لبلاغة وضع الظاهر موضع الضمير زيادة التمكين والتثبيت فى ذهن السامع وهو الغالب ، كقوله تعالى. ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾، فمقتضى الظاهر أن يقول ، وبه نزل ، ولكنه وضع الظاهر موضع الضمير زيادة فى تمكين صفة الحق لما أنزله الله. ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فمقتضى الظاهر أن يقول « هو الصمد » ولكنه وضع الظاهر بدلا من الضمير ، وأعاد لفظ الجلالة زيادة فى تمكينه وتثبيته ، وحضوره فى البال .

ومنه قوله تعالى : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ، يقول الزمخشرى : أوقع الظاهر : أعنى الظالمين ، موضع المضمر، إشعارا بأن لا ظلم أشد من ظلمهم حيث أغفلوا النظر والاستماع حين يجدى عليهم ويسعدهم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . ولم يقل ليمسنهم ، لأن في إقامة الظاهر مقام المضمر فائدة ، وهى تكرير الشهادة عليهم بالكفر فى قوله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا ﴾ .

ومنه قوله تعالى : « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا » ، والكافر اسم ظاهر وضع موضع الضمير ، لزيادة الذم(١) .

فهذه الآيات التى يبرز فيها الظاهر بدلا من الضمير تسجل عليهم الظلم أو الكفر مبالغة فى ذمهم لشدة طغيانهم ، وتكرار الظلم أو الكفر يؤكد وصفهم به حتى لا يكون لهم سبيل فى انتحال الأعذار ، والتخلص من هذه الأوصاف .

وقد يقع الاسم الظاهر بدلا من الضمير رغبة فى الاستعطاف ، كقولك لمن هو أعظم منك شأنا ، خادمك يتقرب إليك ، وكان حقه أن يقول : أنا أتقرب إليك ، ومثله قوله الشاعر :

إلهى عبدك العاصى أتاكا     مقرا بالذنوب وقد دعاكا

وكان ينبغى أن يكون الكلام : أنا أتيتك ، ولكنه عبر بالاسم الظاهر بدلا من الضمير ، إظهارا للخضوع ، وجلبًا للعطف والشفقة .

وربما يكون المراد إظهار التواضع كقولك : تلميذك يلتمس زيارتك ، وظاهر الكلام أن تقول أنا ألتمس زيارتك ، باعتبار أنك أصبحت زميلا له ، ولكنك عدلت عن ذلك إظهارا للتواضع ، وإشعار المخاطب برفعته وحسن منزلته .

---

(١) النظم القرآنى فى كشاف الزمخشرى ١٢٠ ، ١٢١

# الالتفـــات

**خامسًا** - ومن الأمور التى يخرج فيها الكلام عن مقتضى الظاهر . الالتفات وهو : الانتقال بالأسلوب من صيغة الخطاب أو الغيبة أو التكلم إلى صيغة أخرى من هذه الصيغ بشرط أن يكون الضمير فى المنتقل إليه عائدًا فى نفس الأمر إلى الملتفت عنه ، بمعنى أن يعود الضمير الثانى على نفس الشىء الذى عاد إليه الضمير الأول ، فمثلا قولك أكرم محمدا ، وارفق به . ليس من الالتفات ، فالضمير الأول فى أكرم للمخاطب أى أنت ، والضمير الثانى للغائب ، ففيه انتقال من ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب ، ومع ذلك لا يسمى التفاتا ، لأن الضميرين ليسا لشخص واحد ، فالأول للمخاطب ، والثانى لمحمد .

ومثال ذلك من القرآن قوله تعالى : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾ ، فالضمير فى الجملة الأولى للمخاطب وهو أنت ، وفى الجملة الأخيرة للمتكلم وهو نحن ، ففيه انتقال من الخطاب إلى التكلم ، ومع ذلك لا يسمى إلتفاتا ، لأن المراد ليس واحدا ، وكذلك قول جرير :

ثقى بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح
اغثنى فداك أبى وأمى ... بسبب منك إنك ذو ارتياح

فكلا الضميرين فى البيت الأول والثانى للمخاطب ، ولكن الخطاب مختلف ، فهو فى البيت الأول يخاطب امرأته ، بينما فى البيت الثانى يخاطب الخليفة ، وهذا البيتان ليسا من الالتفات ، لأنه لم ينتقل من ضمير إلى ضمير آخر مخالف له فى نوعه ، فليس أحدهما للمخاطب والثانى للمتكلم أو الغائب ، وإن كان شخص المخاطب مختلفا ، فهذا لا يسمى التفاتا رغم ما فيه من تلوين الخطاب وصرفه عن جهته .

قال ابن الأثير فى كنز البلاغة : الالتفات يسمى شجاعة العرب وينقسم إلى أقسام :

الأول - التفات من التكلم إلى الخطاب ، كقوله تعالى : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ، الأصل وإليه ارجع فالتفت من التكلم إلى الخطاب .

الثانى - التفات من التكلم إلى الغيبة كقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ حيث لم يقل فصل لنا .

الثالث - التفات من الخطاب إلى التكلم كقوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ ، على أنه سبحانه نزل نفسه منزلة المخاطب ، فالضمير فى قل للمخاطب ، وفى رسلنا للمتكلم ، « وقد زعم أحد الباحثين أنه لم يعثر له علي شاهد »(١) .

الرابع - التفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ . فانتقل من الخطاب إلى الغيبة ، ولم يقل يطاف عليكم .

السادس - التفات من الغيبة إلى الخطاب ، كقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ ولم يقل كان لهم .

ومعظم النقاد والبلاغيين يرون أن الالتفات يأتى « لدفع السآمة من الاستمرار على ضمير متكلم ، أو ضمير مخاطب ، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة، ومن المتكلم إلى الخطاب أو الغيبة ، فيحسن الانتقال من بعضها إلى بعض ، لأن الكلام المتوالى على ضمير واحد لا يستطاب »(٢) ، فالنفوس تسأم التمادى على حال واحدة ، وتؤثر الانتقال من حال إلى حال ، والنفوس تنفر من الشىء إذا أخذ

(١) الصور البديعة د. حفنى شرف ١٢٦/٢
(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ٣٤٨
والبرهان فى علوم القرآن ٣١٤/٣
والتبيان فى علم البيان ١٧٤

مأخذا واحدا ، وتستريح إلى إحداث الأمر بعد الأمر ، فنجدها تسكن إلى الشيء إذا أخذ من ألوان شتى ، فيتجدد نشاطها ، لما فى الكلام من تغيير وتلوين .

وليس معنى ذلك أن الالتفات حسن في جملة وجوهه ، وأنك إذا أردت أن يجيء الكلام خفيفًا بديعًا ، لجأت إلى أسلوب الالتفات ، فبعض النقاد يرى فى ألوانه التى تأتى دون حاجة ماسة ، وضرورة قوية ، ضربا من التكلف ، واحتمال التعب لا طائل .

فبعض النقاد يعيب على المتنبى الالتفات فى قوله :

**وإنى لمن قوم كان نفوسنا ... بها أنَف أن تسكن اللحم والعظما**

وإنما كان يجب أن يقول كأن نفوسهم ، ليرجع الضمير إلى القوم فيتم به الكلام ؛ وهذا من شنيع ما وجد فى شعره .

ومثله أيضا قوله :

**قوم تفرست المنايا فيكم ... فرات لكم فى الحرب صبرَ كرام**

وإنما كان يجب أن يقول تفرست المنايا فيهم .

ونرى القاضى الجرجانى (ت ٣٦٦ هـ) يجنح إلى هذا الرأى ، ويميل إليه ويلاحظ معهم ما تخلل هذين البيتين وغيرهما من عيب بسبب ما فيه من التفات لا تدعو إليه ضرورة ، ولا تلجىء إليه حاجة فيبدى رأيه فى هذه القضية قائلا « إن هذه القضية إذا استمرت على ظاهرها ، تداخلت الضمائر ، ولم ينفصل غائب عن حاضر ، ولم يتميز مخاطب » ، ثم يفصل القول تفصيلا فيذكر أن للالتفات مواضع تختص بالجواز ، وأخرى تبعد عنه وبينهما فصول تدق وتغمض .. وأن أبا الطيب عندى غير معذور بتركه الأمر القوى الصحيح إلى المشكل الضعيف لغير ضرورة داعية ، ولا حاجة ماسة ، إذ موقع اللفظين من الوزن واحد ، ولو قال نفوسهم - فى قوله وإنى لمن قوم كأن نفوسنا - لأزال الشبهة ودفع القالة ، وأسقط عنه الشغب ، وعناء التعب »[1].

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه ٤٤٦ - ٤٤٩

غيـر أن مـن يجـد فـى الالتـفـات فـائدة ، لا يخص تلك الفـائدة بالتسـرية عن النفس ، ودفع السأم عنها ، وتجديد نشاطها ، كما ذهب معظم من عرض للالتفات وقيمته البلاغية ، فتلك فائدة عامة ، ولكنه يجد بالاضافة إلى هذه الفائدة العامة فوائد أخرى جمة يحسن أن نراعيها ولا نهملها ، لأهميتها ، وإبراز قيمتها البلاغية.

من هذه الفـوائد : التلطف والتـرفق مع المخـاطب كقـوله تعـالى : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ، أصل الكلام : ومـالكم لا تعبـدون الذى فطركم ، ولكنه يريد أن ينصحكم فأبرز الكلام فى صوره من ينصح نفسه تلطفا بهم ، فهو لا يبغى لهم إلا ما يبغيه لنفسـه ، فإذا انقضى غـرضـه ، كشف عن مـراده ، وبين أن القصد إليه ، فقال وإليه ترجعون .

ومن فـوائد الالتـفـات : الاخـتـصـاص ، فـفى قـوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم ، لأن الغـرض إبراز القـدرة على إرسـال الرياح ، وإثارة السـحب، وإحيـاء الميت ، وهذا لا يتأتى إلا من الله تعالى ، فناسب ذلك العدول إلى ضمير المتكلم ، لأنه ادل على إبراز هذا الغرض .

ومن فوائده أيضـا التوبيخ ، ففى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ فعـدل عن الغيبـة فى قالوا إلى الخطاب فى جئتم ، لأن من يزعم اتخـاذ الرحـمن ولدا لاشك أنه مـفـتـون فى دينه ، ويسـتنكر منه هذا القـول الآثم، وينبغى أن يوبخ عليه ، وتوبيخ الحاضر أشد نكاية وألما من توبيخ الغائب وهذا سر الالتفات فى الآية الكريمة .

ومنه قـوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ فـالتفت إلى ضمير المتكلم ، لأنه أبلغ فى الترهيب ، إذ لا ينبغى أن تكون الرهبة الحقيقة من أحد سوى الله سبحانه .

ومن فوائد الالتفات أيضا قصد المبـالغة فى التعجب من أحوال المخاطبين ، كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ ،

فسياق الآيات يعنى أن الإنسان إذا وقع فى مشقة ، أو ألم به ضيق دعا الله النجاة ، وأمن فى نفسه الشكر إئا تحقق رجاؤه ، فإذا تخلص من هذه المشقة ، نسى ما يدعو الله إليه ، وعبث فى الأرض بغير الحق ، فعدل هنا عن الخطاب إلى الغيبة ، وكان حقه أن يقول : وجرين بكم ، ولكنه عبر بالغيبة ، كأن القصة لأناس آخرين غير المخاطبين ليتعجبوا من أحوالهم ، وينكروا عليهم - وهم فى الواقع يتعجبون وينكرون حال أنفسهم - البغى والفساد بعد النجاة .

وابن جنى عندما يتناول الالتفات لا ينظر إليه تلك النظرة السطحية التى لا تدلنا على سره البلاغى ، فقد قالوا من قبل أن سبب الالتفات ، وسره البلاغى ، هو العمل على تجديد نشاط السامع ، وتطرية له ، من أن يسير على ضرب واحد من الكلام . ووتيرة واحدة من الأسلوب ، فيمل سماعه ، ويزوى وجهه عن المتكلم ، ولكن ابن جنى لا يأخذ بهذا الرأى ، ولا يجد فيه ضربا من الاتساع فى اللغة لانتقاله من لفظ إلى لفظ فحسب ، بل له غرض أهم ، وأمر أعلى من مجرد الاتساع ، فيقول فى قراءة الحسن « واتقوا يوما يرجعون فيه » بياء مضمومة ، إنه ترك الخطاب إلى لفظ الغيبة كقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ وكأنه - والله أعلم - إنما عدل فيه عن الخطاب إلى الغيبة ، فقال يرجعون بالياء رفقا من الله سبحانه بصالحى عباده المطيعين لأمره .. فصار كأنه قال : فاتقوا أنتم يا مطيعون يوما يعذب فيه العاصون »، فالسر البلاغى فى هذا الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ترفق الله بالمؤمنين بدلا من صريح مخاطبتهم في مجال الوعيد والانذار ، ولهذا السر البلاغى وحده يعزو ابن جنى سبب الالتفات ، ثم يؤكد لنا أن الالتفات لا يكون إلا لغرض من الأغراض ، فليس ينبغى أن يقتصر فى ذكر علة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى الخطاب بما ألف أصحاب البلاغة أن يرددوه وهو قولهم : إن فيه ضربا من الاتساع فى اللغة لانتقاله من لفظ إلى لفظ . وهذا ينبغى أن يقال إذا عرى الموضوع من غرض متعمد ، وسرّ على مثله تنعقد اليد »[1].

(١) المحتسب ١/١٤٥

ويمضى ابن جنى على هذا النحويبين لنا سر الالتفات فى أكثر من موضع من القرآن ، ويجدر بنا أن نوضح ما قال فى سورة الفاتحة لفائدته العظيمة « فالقرآن قد عبر أولا عن لفظ الجلالة بأسلوب الغائب فيقول : (الحمد لله) ، ثم يعبر ثانيا بأسلوب الخطاب فيقول : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وترك أسلوب الغائب إلى أسلوب الخطاب ليس لمجرد الاتساع فى اللغة ، أو التصرف فى اللفظ ، بل لأمر أعلى ، وغرض أسمى ، وذلك أن الحمد أقل درجة من العبادة ، فالانسان يحمد نظيره ولا يعبده ، لأن العبادة قمة الطاعة ، والتقرب بها غاية النهاية. ولذلك استعمل القرآن لفظ (الحمد) وهو الأقل درجة مع الغائب فقال (الحمد لله) ولم يقل (الحمد لك) .

وفى مجال التقرب إلى الله بالعبادة التى تعتبر قمة الطاعة ، استعمل لفظ العبادة مع المخاطب فقال (إياك نعبد) ولم يقل (الله نعبد) ، وآخر السورة يجرى على هذا النمط أيضا ، فالله يقول : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ كما قال (الذين أنعمت عليهم) ، لأن ذكر النعمة موضع تقرب إلى الله تعالى فصرح بالخطاب ، ولما صار الكلام إلى ذكر الغضب أبعد عنه ذلك اللفظ ترفقا وتلطفا (١) .

فلابد - إذن - من سبب يحدو بنا إلى انتهاج أسلوب الالتفات ، وهو سبب أكثر وجاهة ، وأعمق قرارا من التوسع فى اللغة ، إذ فيه مراعاة الأدب فى الخطاب والسلوك الحميد فى طريقة التعبير ، وتجاذب أطراف الحديث ، وبصفة خاصة إذا أريد تبجيل المخاطب لرفعة شأنه ، وعلو قدره . ويتصل بهذا موضع طريف ذكره لنا ابن جنى فى الخصائص ربما كان هو السبب الأول الذى دفع الناس إلى العدول عن لفظ الخطاب إلى الغيبة فيقول : « وعلة جواز ذلك عندى أنه إنما لم تخاطب الملوك بأسمائها أعظاما لها .. فلما أرادوا أعظام الملوك واكبارهم تجافوا وتجانفوا عن ابتذال أسمائهم التى هى شواهدهم وأدلة عليهم إلى الكناية بلفظ

(١) من مقال للمؤلف بجريدة الأخبار تحت عنوان القرآن وأدب الخطاب . وانظر المحتسب ٤٦/١ والجامع الكبير لابن الأثير ٩٩ .
وأنظر البرهان ٣٢٧/٣

الغيبة فقالوا: إن رأى الملك أدام الله علوه ، ونسأله حرس الله ملكه ونحو ذلك ، وتحاموا (إن رأيت) ، (ونحن نسألك) لما ذكرنا (١) .

وبذلك يكون ابن جنى قد وضع لنا مقياسا جديدا فى بلاغة الالتفات لم يدركه أحد من السابقين ، ولم يبلغه أحد من اللاحقين .

**سادسًا - التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى :**

ومن صور إخراج الكلام عن مقتضى الظاهر : التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى. ويغلب ذلك فيما إذا كان معنى الفعل من الأمور الهائلة العظيمة التى تشيع الخوف فى النفوس ، وتزرع المهابة فى القلوب مثل الآيات القرآنية العديدة التى تعبر عن وقوع الأحداث فى الآخرة ، وتتحدث عن الجنة والنار ، وجزاء الأعمال التى أنجزت أو اقترفت فى الدنيا ، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ قال ففزع بلفظ الماضى بدلا من يفزع بلفظ المضارع ، وذلك لنكتة بلاغية ، وهى أن الفزع عند النفخ فى الصور أمر محقق لاشك فيه ، وحال الخلق حال خوف ورهبة ، وهذا شىء مقطوع به لا يرقى إليه الظن ، ولما كان أمرا محققا لا يصح أن ينازع فيه أحد ، عبر عنه بلفظ الفعل الماضى ، الذى يدل على أن الأمر قد حدث بالفعل .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ قال : وحشرناهم بلفظ الماضى بدلا من « ونحشرهم » فقبله فعلان مضارعان ، ولكنه عدل عن المضارع إلى التعبير بلفظ الماضى دلالة على تحقق وقوع الحشر ، وأنه لتحققه والجزم بوقوعه ، كان جديرا أن يعبر عنه بلفظ الماضى الذى يدل على تحقق الوقوع فى الزمن الماضى. ومثله قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ أى يقولون ، ولم تشهدون؟ ، لأن القول والشهادة يقعان فى الآخرة ، وهما أمران محققان فعبر عنهما بالماضى.

وقوله تعالى : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾.

---

(١) الخصائص ٢/١٨٨

وقوله : ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ ، أى وتكب وجوههم فى النار .

وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم (١) من الآيات التى يدل معناها على أنها لم تقع بعد ، وإنما سوف تقع فى المستقبل ، ووقوعها محقق لاشك فيها ، لأن الله وعد بها المؤمنين ، أو أوعد بها الكافرين ، فكان التعبير الصادق عنها الذى يدل على القطع بها ، هو التعبير بلفظ الماضى ، ليلائم معناه الذى حدث فعلا ، الأمر المقطوع بوقوعه ، وإن لم يقع بعد ، والمعنى الغالب فى أفعال الدعاء والرجاء أن يكون فى المستقبل ، ولكن يعبر عنه بلفظ الفعل الماضى ، يقول القائل « صحبتك السلامة ، « حفظك الله ، ورعاك الله » ولا يحتاج لنقله من صيغة الماضى إلى صيغة المضارع ، لأن المعنى بالبداهة معلق بالاستقبال ، وفى بقائه على صيغة الماضى ما يشعر بقوة الأمل فى الاستجابة ، كأن ما يرجى أن يكون ، قد كان ، وأصبح من المحقق المستجاب. ولاشك أن هذا المعنى مقصود ، لأنه لم يأت عن عجز فى اللغة ، ولا يمتنع على قائل أن ينقله إلى صيغة المضارع إذا شاء (٢).

### سابعًا - التعبير عن الماضى بلفظ المستقبل :

ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر ، التعبير بلفظ المستقبل عن الفعل الذى حدث فى الزمن الماضى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ فقال : أرى فى المنام بلفظ المضارع الذى يدل على الحال ، ولم يقل رأيت فى المنام ، وهو ما يقتضيه ظاهر الكلام ، لأن رؤيا إبراهيم عليه السلام للحلم كانت قبل زمن التكلم فالظاهر أن يعبر بلفظ الماضى ، ولكنه عدل عن ذلك ، لأنه يستحضر صورة الرؤيا التى لا تفارق خياله ، فهو يراها ماثلة أمام بصره ، وتتجدد المرة تلو المرة ، وواضح أن التعبير الدقيق عن هذه الصورة الحاضرة هو لفظ المضارع ، إذ أن الفعل الماضى لا يفى بنقل هذه الصورة كما وضحناها .

(١) الاشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز ٣٨

(٢) اللغة الشاعرة . العقاد ٨٢ ط الاستقلال .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ولم يقل وفريقا قتلتم ، عبر بلفظ الفعل المضارع لاستحضار تلك الصورة البشعة فى تقل الأنبياء ، لتثبيتها فى القلوب ، وتنفير النفوس منها لشدة فظاعتها ، ودلالتها على فسادهم وطغيانهم .

ومثله قوله تعالى : «قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين »، أى فلم قتلتم ؟ ولكنه عبر بالمضارع لاستحضار صورة القتل المروعة ، لانكارها وبشاعتها. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ ، لم يقل فأصبحت الأرض مخضرة ، رغم أن قبلها فعلا ماضيا ، وهو أنزل ، ولكنه عبر بالمضارع دلالة على الخضرة المستمرة ، وبقائها حينا بعد حين لا تزول ولا تختفى ، فأثر الماء الساقط من السماء باق فى جميع الأوقات .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ قال : فتثير بلفظ المضارع ، وقبله فعل ماض ، وبعده فعل ماض كذلك ، فحق التعبير أن يكون بلفظ الماضى أيضا ، ولكنه عبر بالمضارع مبالغة فى استحضار صورة إثارة الرياح للسحاب ، لتتصورها النفوس ، وتستقر فى القلوب .

ومنه ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أى وما أرسلنا المرسلين.

ومنه « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان » أى واتبعوا ما تلته الشياطين .

ومن ذلك قول رؤبة :

**.ولقد أمر على اللئيم يسبنى فمضيت ثمت قلت لا يعنينى**

أى : ولقد مررت .

وقد يعبر بلفظ المضارع عن الأحوال المستمرة فى الماضى والحال والاستقبال ، كما نرى فى الأفعال التى تتعلق بذات الله تعالى كقوله : ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ وقوله : ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾.

وكقول خديجة رضى الله عنها للرسول « إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضعيف ، وتعين على نوائب الدهر ».

ولكن أحد الباحثين المحدثين لا يرى فى التعبير عن الماضى بلفظ المضارع أو التعبير عن المضارع بلفظ الماضى نكتة بلاغية دعت إليها أحوال المخاطبين ، وأملتها ضرورة الموقف ، من حيث استحضار الصورة ، ومشاهدتها ماثلة أمام العين ولا من حيث التأكيد ، لازالته كل شك أو احتمال ، لا يرى الباحث شيئا من هذا أو ذاك ، ويعتبر هذا نوعا من التعسف ، وتحمل الكلام ما لا يحتمله من التأويل والتخريج ، يقول « إن النحاة حين رأوا الخلل يتسرب إلى تقسيمهم - يقصد تقسيم الفعل إلى ماض ومضارع وأمر - من نواح عدة ، بدأوا كعادتهم يحملون الكلام العربى ما ليس منه ، ويتأولون من النصوص الصحيحة ما ليس بحاجة إلى تأويل أو تخريج ، فإذا استعمل الماضى مكان المضارع قالوا : لحكمة أرادها المتكلم أو الكاتب ، وإذا استعمل المضارع مكان الماضى ، التمسوا فى هذا نكتة بلاغية هللوا لها وكبروا ، وما كان أغناهم عن كل هذا التعسف لو أنهم نظروا لصيغ الفعل وأساليبها بعيدة عن الفكرة الزمنية .. فقول النحاة أن « أتى » فى قوله تعالى ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يعبر عن الزمن الماضي ، أمر لا تحتمله النصوص العربية، بل تأباه أساليب اللغة .. فإذا قيل إن صيغة الماضى تختص بالزمن الماضى ، أجبنا بأن الأفعال تختلف فى هذا ، فقد جاء بالقرآن الكريم ما يربو على ٤٠٠ من الآيات اشتملت كل منها على الفعل « كان » مثل قوله تعالى : « وكان الله غفورا رحيما » وهو ما يعده النحاة معبرا عن الزمن الماضي ، غير أنا لا نكاد نلحظ بوضوح معنى المضى فى الفعل « كان » .

ويذكر الباحث أيضا أن العدول عن صيغة الماضى إلى المضارع كما فى قوله تعالى : ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ، ليس للعلة البلاغية التى قال بها البلاغيون فى استحضار الصورة ، وإنما يرجع هذا العدول إلى « ما تتطلبه الفاصلة القرآنية ، من انسجام صوتى حتم استعمال صيغة تقتلون بدلا من قتلتم »[1] أى حتى تلائم الفواصل القرآنية فى الآيات السابقة عليها ، ولا يتأتى ذلك بالتعبير بلفظ الماضى.

ومحور كلام الباحث ، أن الفعل إذاجاء بصيغة الماضى لا يلزم أن يكون معناه

(١) أنظر من أسرار اللغة د. إبراهيم أنيس ١٥٦ - ١٦٠

قد وقع فى الزمن الماضى ، بل يحتمل أن يقع أيضا فى الحال أو الاستقبال ، والفعل المضارع ليس دليلا على أن معناه يقع فى الحال أوالاستقبال ، وإنما يجوز أن يكون قد وقع فى الماضى ، فالصيغة التى وضعها النحاة لزمن محدد ، وقالوا : هذا فعل ماض ، وهذا فعل مضارع ، وذاك فعل أمر ، ليست دقيقة ، ولا صحيحة ، ولذلك دخل هذا التقسيم الخلل ، وعندما رأى النحويون أن الخلل يتسرب إلى تقسيماتهم ، أرادوا التخلص منها حتى يسلم لهم هذا التقسيم ، فتعللوا بعلل بلاغية، قالوا : قد يكون الفعل ماضيا ومعناه مضارعا ، وقد يكون الفعل مضارعا ومعناه ماضيا ، وذلك لعلة بلاغية .

وكم كنا نود من الدكتور الباحث أن يحافظ على هذا الرأى ويتمسك به ، ولا يجد فى هذا العدول علة بلاغية ، حتى نطمئن إلى قوله ، غير أننا ألفيناه بعد كل هذا الجهد الشاق ، والعناء الكبير فى شرح وجهة نظره ، يعود مرة أخرى إلى آراء البلاغيين والتماسهم النكت البلاغية فى هذا العدول ، انظر إلى قوله :

« ويكفى أن نقول : إنه فى أسلوب التأكيد يحسن أن نستعمل تلك الصيغة المسماة بالماضى ، فى كل الأحداث المستقبلة كما فى قوله تعالى : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ، و ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ (١).

فهو فى ذلك لم يخرج عن قول البلاغيين بأن الفعل إذا كان للمستقبل ، وعبر عنه بلفظ الماضى ، كان ذلك لتحقق وقوعه ، أى أنه واقع على سبيل التأكيد ، وليس على وجه الاحتمال .

ويحسن أن نعرض رأى ابن جنى فى هذا التعبير ، فقد تناوله فى إفاضة وعمق :

يقول المتأخرون إن سر العدول فى التعبير بلفظ المضارع بدلا من الماضى هو نكتة بلاغية ترجع إلى استحضار الصورة فى الذهن ، أما التعبير بلفظ الماضى وإرادة المضارع فقد قالوا لتحقق الوقوع ، وما ذكره المتأخرون في هذا الموطن ، قد أفاض فى ذكره ابن جنى وشرحه شرحا مفصلا مبينا أصل الكلام ، ثم ما دخل عليه من تعديل ، لإبراز هذه النكت البلاغية ، ثم إننا نراه لا يقر كل أسلوب يأتى

(١) المرجع السابق ١٥٨

على هذا المنوال ، بل إن بعضه فاسد يتصف بالقبح ، كما أن بعضه صحيح يتسم بالحسن ، وابن جنى هنا يتمسك بالأمانة العلمية ، فينسب الرأى إلى أهله خلفا عن سلف ، فيقرر أنه قد نقل هذا الرأي عن أستاذه أبى على الفارسى (ت ٣٧٧ هـ) الذى رواه بدوره عن أستاذه أبى بكر السراج (ت ٣١٦ هـ) فيقول : « ومنه قولهم : لم يقم زيد ، جاءوا فيه بلفظ المضارع وإن كان معناه المضى. وذلك أن المضارع أسبق رتبة فى النفس من الماضى ، ألا ترى إلى أن أول أحوال الحوادث أن تكون معدومة ، ثم توجد فيما بعد - فالمضارع معدوم باعتبار أنه لم يقع بعد ، أما الماضى فقد وقع وانتهى - فإذا نفى المضارع الذى هو الأصل ، فما ظنك بالماضى الذى هو الفرع . وكذلك قولهم إن قمت قمت فيجىء بلفظ الماضى. والمعنى معنى المضارع، وذلك أنه أراد الاحتياط للمعنى فجاء بمعنى المضارع المشكوك فى وقوعه بلفظ الماضى المقطوع بكونه ، حتى كأن هذا وقد وقع واستقر ، لا أنه متوقع مترقب . وهذا تفسير أبى على عن أبى بكر ، وما أحسنه »[1] .

فالتعبير بالمضارع الذى هو الأصل ، لأنه أسبق رتبة فى النفس من الماضى ، بدلا من التعبير بالماضى ، دعا إليه إرادة التوكيد ، لأنك عندما تنفى المضارع وهو الأصل فى قولهم « لم يقم زيد » فكأنك نفيت الماضى وهو الفرع ، وفى هذا النفى نوع من التوكيد فالتعبير بالمضارع المنفى بدلا من الماضى لا يفيد عنده استحضار الصورة ، كما يفيد التعبير بالمضارع بصفة عامة ، ولكنه يأتى لإرادة التوكيد.

أما التعبير بالماضى بدلا من المضارع ، فواضح أنه لتحقق وقوعه ، وليس لترقب مجيئه ، ويستحسن ابن جنى هذا الرأى ، ويبدى إعجابه به ، ولكنه لا يقف بما نقل عن الفارسى فى إيجازه ، فيزيد الفكرة وضوحا ، ويضرب لها العديد من الأمثلة ، ويحيط بها من كافة أطرافها ، وعلى اختلاف أساليبها ، وما يصح منها ،

---

(١) أنظر أثر النحاة فى البحث البلاغى حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ٣١٥ - ٣١٧ د. عبدالقادر حسين رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية . ط دار غريب
وأنظر أيضا الخصائص ١٠٥/٣

وما يمتنع ، حتى يضع الأمر فى نصابه ، ولا يترك لأحد بعده أن يدلى بدلوه فى هذا المضمار ، فالكلام عند العرب لا يأتى على عواهنه ، وما يصح العدول عنه فى موضع من المواضع لا يصح فى موضع آخر ، بل ربما يؤدى هذا إلى التناقض والمحال، فمن يستعمل الأساليب العربية عليه أن يتفهمها أولا ، ويدرك مراميها ، ويلاحظ نكتها ، ومن لم يراع ذلك سوّى نفسه بغيره من العجماوات . يقول : « ومن المحال أن تنقض أول كلامك بآخره ، وذلك كقولك ، قمت غدا ، وسأقوم أمس ، ونحو هذا ، فإن قلت : فقد تقول إن قمت غدا قمت معك ، وتقول : لم اقم أمس ، وتقول أعزك الله ، وأطال بقاءك ، فتأتى بلفظ الماضى ، ومعناه الاستقبال . وقال :

**ولقد أمر على اللئيم يسبنى     فمضيت ثمت قلت لا يعنينى**

أى ولقد مررت . قيل ما قدمناه على ما أردنا فيه ، فأما هذه المواضع المتجوزة ، وما كان نحوها ، فقد ذكرنا أكثرها فيما حكيناه عن أبى على ، وقد سأل أبا بكر عنه فى نحو هذا فقال أبو بكر : كان حكم الأفعال أن تأتى كلها بلفظ واحد ، لأنها لمعنى واحد ، غير أنه لما كان الغرض فى صناعتها أن تفيد أزمنتها ، خولف بين مثلها ، ليكون ذلك دليلا على المراد فيها . قال فإن أمن اللبس فيها ، جاز أن يقع بعضها موقع بعض ، نحو إن قمت جلست ، لأن الشرط معلوم أنه لا يصح إلا مع الاستقبال . وكذلك لم يقم أمس وجب لدخول لم ، ما لولا هى لم يجز . قال : ولأن المضارع أسبق فى الرتبة من الماضى ، فإذا نفى الأصل كان الفرع أشد انتفاء . وكذلك أيضا حديث الشرط إن قمت جئت فيه بلفظ الماضى الواجب تحقيقا للأمر وتثبينا له ، أى أن هذا وعد موفى به لا محالة ، كما أن الماضى واجب ثابت لا محالة ، ومن نحو ذلك لفظ الدعاء ومجيئه على صورة الماضى الواقع نحو أيدك الله ، وحرسك الله ، إنما كان ذلك تحقيقا له وتفاؤلا بوقوعه ، أن هذا ثابت بإذن الله ، وواقع من غير شك. وأما قوله :

ولقد أمر على اللئيم يسبنى .

فإنما حكى فيه الحكاية الماضية ، والحال لفظها أبدا بالمضارع نحو قولك

زيد يتحدث ويقرأ ، أى هو فى حال تحدث وقراءة ، وعلى نحو من حكاية الحال فى نحو هذا قولك : كان زيد سيقوم أمس أى كان متوقعا منه القيام فيما مضى وكذلك قول الطرماح:

**(واستيجاب ما كان فى غد)**

يكون عذره فيه : أنه جاء بلفظ الواجب ، تحقيقا له ، وثقة بوقوعه ، أى أنه الجميل منكم واقع متى أريد ، وواجب متى طلب .. وليس كذلك قولك ، قمت غدا ، وسأقوم أمس ، لأنه عار من جميع ما نحن فيه ، إلا أنه لو دل عليه دليل من لفظ أو حال لجاز نحو هذا . فأما على تعرية منه ، وخلوه مما شرطناه فيه فلا (١) . فابن جنى لا يقتصر على توضيح ما ارتآه الفارسى وأبو بكر السراج فى سر التعبير بالمضارع عن الماضى أو العكس ، بل حاول أن يضع لنا قاعدة نحتذيها عندما نود أن نسلك هذا الطريق البلاغى الشائك فى التعبير عما نريد . وهكذا فى كل خطوة يخطوها ابن جنى يرسم أمام ناظره التركيب الكلى للكلام ، وطريقة نظمه ، ولا يقف عند بلاغة الكلمة وحدها ، بل يعدها جزءا لا يتجزأ من كل واحد متلائم ، إن توافقت معه أخذ بها ، ونوه بشأنها ، وإن تنافرت مع جمهرة الكلام طرحها واستبعدها كلية .

## ثامنـًا - وضع المفرد موضع المثنى :

وذلك كقوله تعالى : « عن اليمين وعن الشمال قعيد » أراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فهما قعيدان لا قعيد واحد.

وقوله تعالى : ﴿ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ والمراد فتشقيان ، فوضع المفرد موضع المثنى .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ والمعنى أن يرضوهما.

---

(١) الخصائص ٣/٣٣٠ - ٣٣٣

ومن ذلك قول حسان بن ثابت :

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ    ود ما لم يعاص كان جنونا

قال ابن الشجرى « قال : ما لم يُعاص ، فأراد الضمير وإن كان لاثنين ، وحق الكلام أن يقال : يعاصيا ، ثم ذكر العلة البلاغية فى وضع المفرد موضع المثنى بقوله : « ذلك لأن كل واحد منهما بمنزلة الآخر ، فجريا مجرى الواحد ، ألا ترى أن شرخ الشباب هو اسوداد الشعر ؟ ولأنهما مصطحبان صارا بمنزلة المفرد »(1) .

ومثل ذلك قول الأعشى :

فرجى الخير وانتظرى إيابى    إذا ما القارظ العنزىّ آبا

وإنما هما قارظان : فالمثل (حتى يئوب القارظان) فعبر بالمفرد وأراد المثنى، وإنما قال ذلك لعلة بلاغية « وهى أنهما صارا كالشيئين لا يغنى أحدهما عن الآخر ، فلذلك عبر عنهما بصيغة المفرد (2) ».

قال الرضى فى شرح الكافية « وقد يقع المفرد موقع المثنى فيما يصطحبان ولا يفترقان، كالرجلين، والعينين، كقوله: عينى لا تنام أى: عيناى . وقريب منه قوله :

وعيناى فى روض من الحسن ترتع »(3) .

فالعلة البلاغية إذاً فى وضع المفرد موضع المثنى ، هى أن الاثنين متلازمان متصاحبان ، يتصل أحدهما بالآخر أشد الاتصال ، ويرتبط به كل الارتباط ، فصارا كأنهما شىء واحد ، لا شيئين مختلفين ، فحق عندئذ أن يعبر بلفظ المفرد ، وليس بلفظ المثنى .

**وضع المفرد موضع الجمع:**

مثل قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أى : أطفالا .

---

(1) أنظر هامش تأويل مشكل القرآن ٢٢٢

(2) عقود الجمان : السيوطى ١/١١٤

(3) شرح الكافية : الرضى ٢/١٧٧

وقوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ أى : ظهراء .

وقوله تعالى : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ أى رفقاء .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ أى : ملائكة .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى أعداء .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ أى أعداء .

وقوله تعالى: ﴿ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ ﴾ أى : ضيوفى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أى : أضدادا .

يقول أبو عبيدة « والعرب تلفظ بلفظ الواحد ، والمعنى يقع على الجميع .

قال العباس بن مرداس :

**فقلنا أسلموا إنا أخوكم فقد برئت من الإحَنِ الصدورُ**

ومنه قول الشاعر :

**يا عاذلا تى لا تزدن ملامتى إن العواذل لسْن لى بأمير**

أراد : أمراء (١) .

ومن ذلك قوله :

**كلوا فى بعض بطنكم تعفوا فإن زمانكم زمن خميص**

يريد بطونكم .

وقوله :

وذبيان قد زلت بأقدامها النعل : أى النعال .

والعلة البلاغية فى وضع المفرد موضع الجمع ، هى أن المتكلم جعل الجمع كنفس واحدة ، لشدة تماسكها واتصالها ، وليست ذوات متعددة ، تنفصل إحداها عن

---

(١) مجاز القرآن ١/١٣١ ، ٢/٤٤ ، ١٩٥

الأخرى ، فيحدث بينها التمايز الافتراق ، بل « جعلهم كذات واحدة فى الاجتماع والترافد ، كقوله عليه السلام : « المؤمنون كنفس واحدة »(١).

ويذكر سيبويه علة بلاغية أخرى لهذا العدول « ففى قوله تعالى : ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ ومثله : وقررنا به عينا ، وإن شئت قلت : أعينا وأنفسنا . ولكنك قصدت التخفيف والاختصار »(٢) .

**تاسعـا - وضع المثنى موضع المفـرد :**

كقوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ».

واللؤلؤ والمرجان إنما يخرجان من الماء الملح لا من العذب ، وأصل الكلام : يخرج منه اللؤلؤ والمرجان.

وقوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

قال الفراء : « يخاطب الإنسان مخاطبه بالتثنية »(٣).

وقوله تعالى : ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ .

وهو خطاب لمالك خازن النار . وعبر عنه بالمثنى .

وقوله تعالى : ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ .

وهى جنة واحدة بدليل قوله : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ .

أى : مكه والطائف جميعا ، والمعنى على واحدة منهما .

ومن ذلك ما ألف الشعراء قوله فى مخاطبة الصديق والرفيق بصيغة المثنى :

كقول امرىء القيس :

---

(١) شرح الكافية ٢/١٧٧

(٢) الكتاب ١/١٠٤

(٣) البرهان ٣/٥

**قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل**

**بسِقطِ اللوى بين الدَّخول وحومَلِ**

والخطاب لواحد .

وقوله سويد بن كراع العكلى :

**فإن تزجـرانى يا ابن عفـان أنزجر**

**وأن تـدَعانى أحْـم عِرضـا مُمنـعا**

أى : إن تركتمانى حميت عرضى ممن يؤذينى.

يقول الفراء فى سبب الخطاب بصيغة المثنى عند الشعراء .

« ونرى أصل ذلك أن الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة نفر ، فجرى كلام الواحد على صاحبيه ، ألا ترى أن الشعراء أكثر شىء قيلا : يا صاحبى ، ويا خليلى »(١).

ويؤكد الرضى وجهه نظر الفراء فى تعليل سبب عدول الشعراء فى التعبير عن المفرد بصيغة المثنى فيقول : « لأن أكثر الرفقاء ثلاثة ، فكل واحد منهم يخاطب صاحبيه فى الأغلب ، فيخاطب الواحد أيضا مخاطبه الاثنين لتمرن ألسنتهم عليه(٢).

هذا بالنظر إلى قول الشعراء ، أما بالإضافة إلى غيرهم كالآيات التى وردت فى القرآن الكريم ، وعبر فيها بلفظ المثنى ، فالبلاغيون يلتمسون لها علة أخرى ، **وهى إرادة التوكيد ، فيكون ذلك، إما بمنزلة تقسيم الشىء الواحد إلى شيئين ثم الحديث عنهما ، وفى ذلك من التأكيد ما لا نجده إذا عبرنا عنه بلفظ المفرد ، وإما أن يكون بمثابة تكرار الفعل، ثم امتزاج الفعلين ، وصار حضور أحدهما حضوراً للآخر . فقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ بمثابة تكرار الفعل ، وكأنه** قال : « ألق ألق »(٣) فكأن تثنية الفاعل تقوم مقام تكرار الفعل ، وبمثل ذلك فسر

(١) الصاحبى : ابن فارس ١٨٦

(٢) شرح الكافية ١٧٧/٢

(٣) عقود الجمان ١١٥/١

قوله تعالى : ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ أى : ارجعنى ، ارجعنى ، ارجعنى ، والتكرار يعطى المعنى قوة وتأكيدا ، ويزيده فضلا وتأثيرا .

وهذا هو السر البلاغى فى العدول عن التعبير بالمفرد إلى المثنى .

ومن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر وضع المثنى موضع الجمع، وقد ذكره ابن جنى (ت ٣٩٢ هـ) ووقف على سره البلاغى ، واستعان فى ذكره بما نقله عن الخليل . وهذا اللون لم نر له مثالا من القرآن عند الخليل أو سيبويه أو أبى عبيده أو الفراء ، رغم أن القرآن الكريم ذكر بعض هذه الاستعمالات كقوله تعالى الطلاق مرتان ، وهو لا يقع إلا بثلاث ، وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ . أى : كرات، لأن البصر لا يحسر إلا بالجمع . وعلى الرغم من أن هذا اللون من الأساليب العربية كان معروفا منذ الخليل إلا أن أحدا لم يقف على سره البلاغى قبل ابن جنى- على قدر ما وصل إلينا من المصادر - فالمراد بوضع المثنى موضع الجمع أن يتكرر الشىء مرة بعد مرة وفى ذلك من التأكيد ما لا نجده فى التعبير بالجمع دفعة واحدة ويبين ابن جنى هذا المعزى مستعينا فى ذلك بتفسير الخليل فيقول فى قوله تعالى : ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[1] لفظها لفظ التثنية ومعناها الجماعة ، أى أن كل اثنين فصاعدا من المسلمين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . ألا ترى أن هذا حكم عام فى الجماعة وليس يختص به منهم اثنان مقصودا ؟ ففيه - إذاً - شيئان : أحدهما لفظ التثنية يراد به الجماعة والآخر لفظ الإضافة لمعنى الجنس وكلاهما قد جاء منه قولهم لبيك وسعديك ، فليس المراد هنا إجابتين اثنتين ، ولا اسعادين اثنين، ويستدل على ذلك بقول الخليل وتفسيره لمن يقول لبيك أن « معناه كلما كنت فى أمر فدعوتنى له أجبتك إليه وساعدتك عليه[2]» فقوله : « كلما » يؤكد ما نحن عليه... وكذلك قوله دواليك أى مداولة بعد مداولة وهذا ذيك أى هذّاً بعد هذّاً لاهذين اثنين ليس غير ، وكذلك قوله تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [3] « ونعم الله أكثر من أن

(١) الحجرات ١٠

(٢) الكتاب ١٧٥/١

(٣) المائدة ٦٤

تحصى[1] » فوضع المثنى موضع الجمع قد التفت إلى سره البلاغى ابن جنى ، وإن كان قد استعان فى تفسيره لبيان هذا السر بما ذكره الخليل بن أحمد .

**عاشــراً - وضع الجمع موضع المفرد :**

قال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وإنما أراد المسجد الحرام.

وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أراد وملئه .

وقوله : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ والمراد جبريل .

وقوله : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ والمراد محمد عليه السلام.

ومثله : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ والمراد بهم نعيم بن مسعود الثقفى .

« وإنما جاز إطلاق لفظ الناس على الواحد ، لأنه إذا قال الواحد قولا وله اتباع يقولون مثل قوله حسن إضافة ذلك الفعل إلى الكل[2] ».

ومنه قول الشاعر :

**ومثلك معجبة بالشباب ... سال العبير بأجيادها**

وليس لها إلا جيد واحد .

وقولهم : (شابت مفارقه) وليس له إلا مفرق واحد.

وواضح من الأمثلة التى ذكرناها فى التعبير بصيغة الجمع ، فى الموضع الذى كان ينبغى أن نعبر عنه بلفظ المفرد ، أن سبب العدول ، وسره البلاغى ، إرادة التعظيم ، والتقدير لهذا الشىء ، فالمسجد الحرام هو أعظم مساجد الله منزلة ، وأعلاها قدرا ، فعبر عن هذا الشىء المعنوى الذى يتسم بالعظمة والروعة ، بالجمع العددى ، وكأن المسجد الحرام مساجد متعددة ، وليس مسجدا واحدا ، لقيمة شأنه ورفعة مكانته .

---

(١) المحتسب ٢/٢٧٨ ، ٢٧٩

(٢) البرهان ٣/٨

وكذلك الأمر بالنسبة لفرعون ، فله ما له من السلطان ، والجاه ، والعظمة بين قومه وعشيرته وأتباعه ، ومن كان هذا شأنه ، فهو يعدل مجموعة من الناس ، وليس فردا واحدا ، فالتعبير عنه بالجمع يتناسب مع هذه المكانة ، ولذلك قال تعالى : «على خوف من فرعون وملئهم » ولم يقل وملئه .

وجبريل ذلك الروح الأمين الذى اضطلع بمهمة إنزال القرآن على محمد عليه السلام وفيه الهداية والبشارة للمؤمنين ، وفيه التصديق لما جاء فى الكتب السماوية لابد أن تكون منزلته عظيمة ، وشأنه كبيرا ، بين غيره من الملائكة ، وهو بهذا المعنى يعدل مجموعة من الملائكة ، ولذلك حسن التعبير عنه بالجمع فقال : «ينزل الملائكة» دون الملك . وقس على هذا بقية الآيات والأمثلة .

**الحادى عشر : وضع الجمع موضع المثنى :**

من ذلك قوله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ أى يديهما .

وقوله : ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أى قلباكما .

وقوله : ﴿أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ والمراد اثنان عائشة وصفوان .

وقوله : ﴿كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ أى معكما .

وقوله : ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ﴾ يقول المفسرون : كان معه لوحان .

فإذا أردنا أن نبحث عن العلة البلاغية فى هذا التعبير رأينا فى كتاب (إعراب القرآن) المنسوب للزجاج : أن التعبير بالجمع أصح من التعبير بالمثنى ، فقولك «ضربت رءوس الزيدين ، وقطعت أيديهما وأرجلهما أفصح عندهم من « رأسيهما » كرهوا أن يجمعوا بين اثنتين فى كلمة واحدة ، فصرفوا الأول إلى لفظ الجمع ، ولا بأس من ذلك ، فالتثنية جمع فى المعنى [1]».

وتوضيح كلامه : أن المضاف والمضاف إليه بمنزلة كلمة واحدة. هكذا يقول النحاة. فإذا كان المضاف مثنى ، والمضاف إليه - وهو الضمير - مثنى ، لزم أن

(١) اعراب القرآن ٧٨٧/٣

يجتمع في كلمة واحدة – وهى المضاف والمضاف إليه – مثيان . مثل يديهما ، وقلبيهما ، وفى ذلك من الثقل والبعد عن الفصاحة ما لا يخفى .

وقد كان من الممكن أن نسلم بهذه العلة البلاغية لو أنها مطردة ، فى جميع الأمثلة التى بين أيدينا ، ولكنها غير مطردة فيما يبدو ، إذ أن بعض الأمثلة لم يجمع فيها بين اثنتين ، وإنما اقتصر فيها بما يدل على المثنى ، كقوله تعالى : ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ، أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾ وقوله : ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

وبذلك لا نستطيع الأخذ بهذه العلة فى التعبير عن المثنى بلفظ الجمع.

إذاً ما هو السر البلاغى فى هذا العدول ؟ هل هو الرغبة فى تنويع الكلام، وعدم السير على منوال واحد ، تبديدا للسآمة ، وتنشيطاً للنفس؟ ربما كان الأمر المحقق ، « أن بلاغة هذا التعبير إنما يرجع إلى قصد المبالغة بجعل كل واحد من الشيئين عدة أشياء ، أو قصدت المبالغة فى واحد من الاثنين المذكورين فجعلته لكبر شأنه ، وجلالة قدره كأنه أشياء (١) » فتسوغ لنفسك جمع المثنى ، وبذلك تعود لنفس العلة البلاغية التى ذكرناها فى وضع الجمع موضع المفرد ، وهى المبالغة فى التعظيم والتقدير .

(١) عقود الجمان ١/١١٥

## القلـــب

**الحادى عشر - ومن الخروج عن مقتضى الظاهر، القلب :**

والقلب : أن تجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر ، والآخر مكان الأول ، فيأخذ كل منهما حكم الآخر وصفته .

فقولك : فى المعهد محمد ، ليس من القلب ، إذ أن المقدم خبر ، كما كان قبل أن يقدم ، وبقى على حكمه الذى كان عليه .

وقولك . أكرم عليا خالدٌ ، ليس من القلب أيضا ، لأن عليا بقى مفعولا به كما كان قبل أن يقدم ، ولم يصبح فاعلا .

والقلب - كما يقول المتأخرون يأتى لنكتة بلاغية ، ويتضمن اعتباراً لطيفا فيورث الكلام حسنا وملاحة ، فقول رؤية بن العجاج :

**ومهمهٍ مغبرةٍ أرجاؤهُ كأن لون أرضه سماؤه[1]**

فيه قلب يتضمن اعتبارا لطيفا ، إذ جعل لون الأرض لغبرته وسمرته كلون السماء ، مبالغة فى تصوير السماء بشدة الغبار والقتمة ، وكان الوجه أن يقول ، كأن لون سمائه لون أرضه ، ولكنه قلب المعنى لاعتبار هذه النكتة البلاغية .

ومن ذلك قول الأعشى :

**حتى إذا احتدمت وصا ر الجمر مثل ترابها**

فكان الوجه أن يقول صار ترابها مثل الجمر فى شدة الحرارة ، ولكنه قلب

---

(١) المهمة : المفازة

المعنى ، وجعل الجمر مثل التراب ، يريد أن يبالغ فى وصف التراب بشدة الحرارة ، وكأنه فى ذلك يفوق الجمر .

ففى القلب نرى المقلوب ، أخذ حكم المقلوب عنه ، فى إعرابه ، وفى صفته.

ونظير ذلك من القرآن ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ والأصل : إنما الربا مثل البيع ، ولكنهم قلبوا المعنى ، وجعلوا البيع شبيها بالربا مبالغة منهم فى التماثل .

ولاشك أن هذه الأمثلة التى ذكرناها هى من التشبيه المقلوب الذى اتفق البلاغيون على حسنه ، وقيمته فى إبراز المعنى المراد فيصفه بالمبالغة حتى يزيل الشك إن كانت له بادرة فى ذهن المخاطب.

ولكن القلب ليس خاصا بالتشبيه ، فنراه بوفرة فى ضروب الكلام : قرآنا ، وشعرا ، ونثرا دون أن يكون مساقا للتشبيه .

مثل قوله تعالى : ﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ أى : مخلف رسله وعده.

وقوله : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أى : فإنى عدو لهم.

ومثله : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ والأصل : وجاءت سكرة الحق بالموت، ولكنه قلب .

وقوله : ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ أى : يريد بك الخير ، فقلب المعنى .

ومن الشعر :

**ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه ... وسائره باد إلى الشمس أجمع**

أراد : مدخل رأسه الظل .

وقول الخطيئة :

**فلما خشيت الهون والعَيْر ممسك ... على رغمه ما أمسك الحبلَ حافره**

والأصل أن يقول ما أمسك الحبلُ حافرَه ، فالحبل هو الذى يمسك ، والحافر هو الممسوك ، ولكنه قلب المعنى ، وأعطى للحافر صفة الحبل من الإمساك .

ومن النثر : جعلت الخزف طينا ، والأصل جعلت الطين خزفا ، ولكنه قلب المعنى .

وأدخلت الخاتم فى أصبعى ، والأصل أدخلت الأصبع فى خاتمى ، ولكنه قلب المعنى .

هذا النوع من القلب الذى لم يأت لقصد التشبيه هو الذى تنازع فيه العلماء والنقاد وساق كل منهم حججه وبراهينه لتأييد وجهة نظره ، سواء برفض هذا اللون من الأسلوب ، أو تقبله .

فهو عند السكاكى يورث الكلام ملاحه ويصل به إلى كمال البلاغة [1] . والسكاكى الذى استقرت علوم البلاغة على يديه ، وأخذ كل لون من ألوانها مكانه المعين فى أقسام البلاغة من معان وبيان وبديع يعتبر القلب داخلا فى علم المعانى غير أن القلب الذى انتهى إليه السكاكى ووصفه بأنه يورث الكلام ملاحه ، ويرتقى به مدرج البلاغة ، لم يكن ينظر إليه المتقدمون بعين الاعتبار حتى أنهم إذا قرأوا مثالا له فى القرآن أولوه عن ظاهره ، لأنهم لا يجدون فيه نوعا من الحسن أو الخلابة ، فسيبويه يرد القلب إذا ورد في الكلام ، ويصفه بالرداءة ، والبعد عن الجودة وتأويل هذا النوع هو ما يكون به صحة الكلام وحسنه ، يقول : « وأما قوله أدخل فوه الحجر ، فهذا جرى على سعة الكلام وأدخلت القلنسوة فى رأسى ، والجيد أدخلت فى القلنسوة رأسى»[2] ، فهذا النوع من التعبير قد جرى على الاتساع والقلب عند سيبويه ، غير أنه قبيح ولا يتصف بالجودة .

أما الفراء (ت ٢٠٧ هـ) فقد أجاز القلب فى القرآن وفى الشعر ، وإن كان كلامه يبدو مضطربا بين صحته على القياس ، وبين قبوله على الضرورة . ففى القرآن يبدو القلب عنده من الأساليب التى استعملها العرب ، وجاء بها القرآن ، أما القلب فى الشعر فما هو إلا لون من التهاون يسلكه الشاعر على سبيل الضرورة الشعرية ما دام لا يؤدى إلى لبس فى المعنى ، ولذلك فهو لا يتبع فى كل سبيل ، فالفراء يبدى نوعا من التحفظ فى إجازة القلب فى الشعر ، وإن كان لا يبدى هذا

(١) المفتاح ١٠١
(٢) الكتاب ٩٢/١

التحفظ فى القرآن ، بل يستشهد بصحة وجوده على الإطلاق ، ويذكر فى ذلك آيات كثيرة يفسرها كلها على القلب كقوله تعالى ﴿ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ معناه « ائتونى بقطر أفرغ عليه » ، ومثله ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ معناه « فجاء بها المخاض» .

وفى قوله تعالى : ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ إن المعنى ما أن العصبة لتنوء بمفاتحه ، فحول الفعل إلى المفاتح »(١).

ولا ندرى لماذا أجاز الفراء القلب فى القرآن على إطلاقه ، ولم يجزه فى الشعر إلا على سبيل الضرورة ، وإنا لنعلم أن الأوزان الشعرية تعطى الشاعر مزيدا من الحرية فى التصرف بوضع الألفاظ فى غير مواضعها مما لا يجوز أن يتوافر فى غير الشعر ، وذلك بسبب ما فرض عليه من قيود الوزن والقافية ، وكان الأجدر به أن يجيز القلب كلية سواء فى الشعر أو النثر ، وسواء فى القرآن وغير القرآن ، مادام قد وجده بغزارة فى القرآن والشعر ، وإما أن يرفضه كلية ، ويبطل شواهده بتأويلها، على أن يعطينا دليلا مقنعا بأن ما ورد من القلب فى الشعر والقرآن ليس من القلب فى شىء ، وهيهات أن يركب هذا المركب الصعب ويسلك ذلك المزلق الخطير . ورغم رأى الفراء فى القلب ، فإنه يبدو أكثر تحرراً من خلفه ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) الذى رفض القلب تماما ، وبصورة نهائية سواء فى القرآن أو فى غيره ، لأنه يجرى على الغلط ، ويجب أن ينزه كلام الله تعالى عنه ، وقد ساق ابن قتيبة أمثلة الفراء السابقة فى القرآن والشعر وردها ، لأن القلب « مالا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب الله عزوجل لو لم يجد له مذهبا ، لأن الشعراء يقلبون اللفظ ، ويزيلون الكلام على الغلط ، أو على طريق الضرورة للقافية ، أو لاستقامة وزن البيت »(٢) ، فابن قتيبة كان قاطعا فى رفضه للقلب دون أن يعتريه التردد الذى ألفناه عند الفراء، غير أننا نتساءل وما مصير الآيات القرآنية التى ساقها الفراء كدليل على القلب وصحته ، وساقها العلماء من بعد الفراء وهى لا تحصى عدا ؟ فهل يلجأ إلى تأويلها كما لجأ ابن قتيبة إلى تأويل بعضها حين لم يجد مبررا لتأويل جميعها . على أن

(١) معانى القرآنى ٢/٢١٠

(٢) تأويل المشكل ١٥٤

التأويل يتسم دائما بالتكلف ، وحمل الكلام على غير وجهه ، مما تجزع له النفس أحيانا بيد أن ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) كان على عكس ابن قتيبة حين أجاز القلب فى القرآن وفى الشعر على حد سواء واعتبره من سنن العرب [(١)]، فكان بذلك أقرب إلى قول الفراء منه إلى ابن قتيبة . وإذا كان ابن فارس قد مال برأيه إلى الفراء ، فإن ابن سنان الخفاجى (ت ٤٦٦ هـ) قد انتصر لرأى ابن قتيبة ، واعتبر القلب مفسدا للمعنى وصارفا له عن وجهه. وما ورد منه فى القرآن فهو مؤول [(٢)] وقد ذكرنا الرد على هذا الوجه فى سالف القول عندما سقنا رأى ابن قتيبة فلا حاجة إلى تكراره. فإذا عرضنا هذا اللون من التعبير على أهل البصر بالكلام والنقد ، فإننا نراهم مختلفين فى قيمته الفنية وأثره البلاغى . فالقاضى الجرجانى (ت ٣٦٦ هـ) يخبرنا أن القلب كثير فى شعر العرب ولا يعقب بشىء بعد ذلك » [(٣)].

ومعنى هذا أنه يحبذه ولا يرده ، فالقول بأنه كثير فى شعر العرب دليل على سلامته وصحته وحسنه ، لأن الشعراء يتوخون فى شعرهم الحسن والإجادة . ولو كان يحمله على الضرورة الشعرية لعبر عن ذلك ، ولكنه اقتصر على الإخبار بأنه كثير فى شعر العرب . والآمدى (ت ٣٧٠ هـ) له رأى مختلف تماما عن رأى الجرجانى فهو يرفض القلب نهائيا ، ولا يأخذ به فى صورة من صوره ، بل يؤوله إذا وجده فى القرآن ، ويخطئه إذا وجده فى الشعر « لأن القلب إنما جاء فى كلام العرب على السهو ، والمتأخر لا يرخص له بالقلب ، لأنه يحتذى على أمثلتهم ، ويقتدى بهم ، وليس ينبغى له أن يتبعهم فيما سهوا فيه ، فإن قيل إن القلب قد جاء فى القرآن ، ولا يجوز أن يقال إن ذلك على سبيل السهو والضرورة ، لأن كلام الله يتعالى عن ذلك ، وما يضربونه من أمثلة يتبين فيها القلب فى القرآن يؤولها الآمدى جميعا ، ويعتبرها صحيحة مستقيمة لا قلب فيها ، فمثلا قوله تعالى : « ما إن

(١) الصاحبى ١٧٢ ، ١٧٣
(٢) سر الفصاحة ١٢٨ وما بعدها
(٣) الوساطة ٤٦٩

مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة »[1]، يقولون إن فيها قلبا ، لأن المعنى وإنما العصبة تنوء بالمفاتيح ، أو تنهض بثقلها ، فينفى الآمدى وجود القلب فى الآية فيقول: إنما أراد الله تعالى ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة أى تميلها من ثقلها . وهكذا يجرى الآمدى على التأويل فى كل الآيات القرآنية التى يستدلون بها على صحة القلب ، غير أن الآمدى يضطر إلى قبول القلب إذا كان المعنى المقلوب وغير المقلوب متقاربين مثل قول الحطيئة :

فلمّا خشيت الهون والعير ممسك      على رغمه ما أمسك الحبل حافره

قالوا وكان الوجه أن يقول : ما أمسك الحافر حبله وكلاهما متقاربان ، لأن الحبل إذا أمسك الحافر فإن الحافر أيضا شمل الحبل ، ثم يقول « وهذا - أى التأويل - كله سائغ حسن ، ولكن القلب القبيح لا يجوز فى الشعر ولا فى القرآن . وهو ما جاء فى كلامهم على سبيل الغلط . وأخيرا يبين الآمدى سبب رفضه القلب واعتباره من ألوان البلاغة ، بأنه لا يجد فيه فائدة وإنما يلجأ إليه الشعراء للضرورة ليس إلا ، ويتعجب من رأى المبرد فى القلب فيقول : « وقال المبرد : القلب جائز للاختصار إذا لم يدخل الكلام لبس ، كأنه يجيز ذلك للعرب الأوائل دون المتأخرين، وما علمت أحدا قال للاختصار غيره ، فلو قال لإصلاح الوزن أو للضرورة ، كما قال غيره كان ذلك أشبه » [2] ، فالقلب إذن ليس من أنواع البلاغة عند الآمدى وهو بذلك يتفق فى نظرته مع سيبويه فى رده ووصفه بالرداءة .

وحين يتناول ابن جنى القلب يبرز لنا أهميته البلاغية ، وأنه ليس فقط طريقا للاتساع فى اللغة ، بل يأتى لغرض أسمى من ذلك وهو رفع الشك . ولا يكتفى بهذه العلة البلاغية، بل يبين لنا الخطوات المتعددة التى نخطوها حتى نصل منها إلى ما يسمى بالقلب وحتى يصبح قاعدة يمكن أن نطبقها فيما سلك ابن جنى من أمثلة تتعلق بالفعل المتعدى إلى مفعولين . وقد كان القلب منذ عرفناه عند سيبويه لا يبدو

(١) القصص ٧٦

(٢) الموازنة أنظر ١/٢٠٧ - ٢١٠

ارتباطه بالبلاغة إلا من حيث إنه يبعد الكلام عن الجودة ، كما لاحظنا ذلك عند سيبويه (١) . وأن ابن سنان الخفاجي يشترط لوضع الألفاظ موضعها ألا تكون مقلوبة ، لأن القلب يفسد المعنى ويصرفه عن وجهه (٢).

وكنا قد ذكرنا من قبل أن الآمدى كان يرفض القلب رفضا نهائيا (٣) . وقدامة والمرزبانى اعتبرا القلب من عيوب ائتلاف المعنى والوزن معا (٤). وقبل أن يتحدث عنه السكاكى ويجعله مما يورث الكلام ملاحه ، ويصل به إلى كمال البلاغة (٥) ، نرى ابن جنى يجد فيه لونا من ألوان البلاغة ، وهو يأتى في الكلام ليس للاتساع فحسب ، بل لرفع الشك ، ويتبين ذلك من تعقيب ابن جنى على قول ابن مجاهد فى قراءة ابن عامر « وحملت الأرض » (٦). قال ابن مجاهد : وما أدرى ما هذا .. قال أبو الفتح : هذا الذى تبشع على ابن مجاهد حتى أنكره من هذه القراءة صحيح واضح وذلك أنه أسند الفعل إلى المفعول الثانى حتى كأنه فى الأصل : وحملنا قدرتنا ، أو ملكا من ملائكتنا الأرض ، ثم أسند الفعل إلى المفعول الثانى فبنى له فقيل فحملت الأرض . وهذا كقولك ألبست زيدا الجبة .. فيجوز مع استيفاء المفعول الأول أن يبنى الفعل للمفعول الثانى فتقول ألبست الجبة زيدا على طريق القلب للاتساع ، وارتفاع الشك ، فيجوز على هذا أن تقول حملت الأرض الملك فتقيم الأرض مقام الفاعل مع ذكر المفعول الأول فما ظنك بجواز ذلك وحسنه ، بل بوجوبه إذا حذف المفعول الأول ؟ وكذلك أطعمت زيدا الخبز ، وأطعم زيد الخبز ، وتتسع فتقول أطعم الخبز زيدا ، ثم تحذف زيدا ، فلا تجد بدا من إقامة الخبز مقام الفاعل فتقول أطعم الخبز ، ومثله أركب الفرس وأبث الحديث ، وكسيت الجبة

---

(١) الكتاب ٩٢/١
(٢) سر الفصاحة ١٢٨
(٣) الموازنة ٢٠٧/١ - ٢١٠
(٤) نقد الشعر ١٣٠ ، الموشح ١٢٨
(٥) المفتاح ١٠١
(٦) الحاقة ١٤

وأطعم الطعام ، وسقى الشراب ، ولقى الخير ووفى السر . ورحم الله ابن مجاهد فلقد كان كبيرا فى موضعه ، مسلما فيما لم يمر به .

فابن جنى يعلمنا كيف يجرى القلب فى كل فعل تعدى إلى مفعولين : فإذا بنيت الفعل للمفعول الأول فلا قلب ولا واتساع، وإذا أردت أن تتسع وتلاحظ المعنى البلاغى فى ارتفاع الشك ، وإرساء اليقين، وسلكت طريقا آخر ، وأسندت الفعل إلى المفعول الثانى وهذه قاعدة يقدمها لنا ابن جنى لنطبقها على كل مثال تعدى فيه الفعل إلى مفعولين وهو بذلك يستغل إمكاناته اللغوية واستيعابه لقواعد النحو. ويشيد ابن جنى بما فى هذا القلب من حسن ، خاصة إذا حذف المفعول الأول، وبقى الكلام على الفعل. وما أسند إليه فقط وهو المفعول الثانى وقد خفى هذا، الحسن على بن مجاهد رحمه الله، إذ لا علاقة له بأمور النحو والبلاغة، كما يشير ابن جنى حين يرميه بذلك فى أدب جم، « فلقد كان كبيرا في موضعه مسلما لم يمهر به » ولكنه لم يكن يخفى على من هو فى درجة ابن جنى من العمق والشمول والمهارة، والإطلاع الغزير على شواهد هذا الباب إذ يقول: « والقلب باب شواهده كثيرة ، ويذكر بعضا منها» (١).

ورغم أن ابن جنى قد وضع الخطوات التى يتم بها القلب وفسره تفسيرا نحويا صرفا أخفى قيمته الفنية البلاغية ، فلم يجد فيه إلا طريقا للاتساع فى اللغة وارتفاع الشك مما لا يتناسب مع صنعته وتكلفه. وقد كان يحق للبلاغيين أن يهملوه فى كتبهم ولهم فى ذلك مندوحة بما قاله سيبويه ، والآمدى، وسوقهما للحجة بعد الحجة ، وخلو القلب من الفائدة التى يلجأ إليها البلاغى لحسن البيان ، أو قوة التأثير ، وما كان أغنانا عن الحديث عن القلب وعدّه من وجوه البلاغة باعتبار أنه ليس جديرا بعدّه من ألوان البلاغة غير أننا رأينا السكاكى - كما ذكرنا فى صدر هذا الكلام - يطنب في مدحه ويجعله مما يزيد الكلام ملاحة ، ويصل به إلى كمال البلاغة . وكيف يكون ذلك ونحن لا نرى فيه إلا نوعا من التكلف السقيم ، والتعقيد

---

(١) المحتسب ١١٧/٢

الشنيع الذى يؤدى إلى اللبس من جهة ، ويخفى الحسن من جهة أخرى ، وهو وإن ترك أثرا فى النفس فإنما هو أثر الزهد فيه ، والانصراف عن سماعه ، حتى أن بعض النقاد مثل قدامة والمرزبانى قد اعتبرا القلب من عيوب ائتلاف المعنى والوزن معا فى شعر العرب »[1] .

(١) الموشح ١٢٨ ، نقد الشعر ١٣٠

# التغـــليب

**الثانى عشر - ومن إخراج الكلام عن مقتضى الظاهر ، التغليب :**

وحقيقته : ترجيح أحد المغلوبين على الآخر ، فتطلق عليهما لفظا واحدا ، بأن تجرى المختلفين مجرى المتفقين ، وتعطيهما حكما واحدا .

والتغليب أمر لفظى ، لا يؤتى به إلا إذا تضمن نكتة معنوية .

والتغليب باب واسع يجرى فى فنون كثيرة .

١ - فقد يُغلّب المذكر على المؤنث ، كقوله تعالى :

﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ ، ولم يقل من القانتات .

غلب المذكر على المؤنث ، تكريما لها ، وإبرازا لجدها واجتهادها فى العبادة ، وسعيها فى القربى من الله جل شأنه ، حتى بلغت فى ذلك مبلغ الرجال ، من التبصر بأمور الدين ، والعلم بشريعة الله ، والعمل بها ، فلما اتخذت طريق الرجال الشاق فى العبادة ، خلع عليها أوصاف الرجال العابدين القانتين .

٢ - وقد يُغلّب المخاطب على الغائب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ، فأنتم للمخاطب ، وقوم للغائب ، ثم قال : تجهلون ، ولم يقل يجهلون مستعملا الخطاب دون الغيبه ، لأنه غلب المخاطب على الغائب ، فرمى المخاطبين بالجهل ، ومواجهتهم به ، أنكى وآلم لهم ، مما لو جعل هذا الوصف لقوم غائبين ، وفى ذلك من التبكيت والزجر ما يرد المخاطب عن غيه وضلاله .

٣ - وقد يغلب العاقل على غير العاقل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي ﴾ ، فالدابة تشمل العاقل وغير العاقل ، من الحيوان

والانسان ، ولكنه غلب العاقل على غير العاقل ، فاستعمل « مَنْ » الموضوعة للعاقل ، ولم يستعمل « ما » الموضوعة لغير العاقل ، وذلك على سبيل التغليب ، إذا أعطى صفة الآدميين لغيرهم من الذين لا يعقلون ، كأنه وصفهم بالتميز والتبصر شأن العاقل المميز للأمور ، المتبصر فى شئون حياته .

وقد يجتمع فى لفظ واحد تغليب المخاطب على الغائب والعاقل على غير العاقل ، كقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾(1).

فالضمير فى يذرؤكم يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، والمخاطب عاقل ، والأنعام غير عاقل ، فغلب المخاطبين العقلاء ، على الغائبين مما لا يعقل ، ففى الضمير المتصل بيذرؤكم تغليبان اثنان ، ولولا ذلك لكان القياس أن يقال : « يذرؤكم وإياها ».

٤ - وقد يغلب الأكثر على الأقل ، كقوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (2) ، فاستثنى إبليس من الملائكة وهو ليس منهم ، فالملائكة أرواح نورانية شفافة ، وإبليس من الجن مخلوق من مارج من نار ، ولكنه غلب الملائكة لكثرتهم ، على إبليس لكونه جنيا واحدا ، وفى ذلك تذكير له بما كان عليه من قبل بوصفه ملكا ، ثم سلبت عنه الملكية ، لعصيانه أمر ربه بالسجود لآدم ، فيمتلىء بالحسرة على طرده من زمرة الملائكة .

٥ - ومنه تغليب ما يمارس بأداته المعهودة علي غيره مما يمارس بغير هذه الأداة ، كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (3) ، فليست الأعمال كلها تمارس بالأيدى ، بل يمارس بعضها باليد، وبعضها الآخر بدونها ، ولكنه غلب هنا الأيدىْ ، لأن أكثر الأعمال تزاول بهن ، فجعل كل عمل كالواقع

(1) يذرؤكم : يكثر تناسلكم وتوالدكم . الشورى ١١

(2) الحجر ٧٣ ، ٧٤

(3) آل عمران ١٨٢

بالأيدى على سبيل التغليب ، ومن المعلوم أن ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه ، حتى قيل فى عمل القلب ، هو مما عملت يداك ، وحتى لم يبق فرق بين قولك : هذا مما عملته ، وهذا عملته يداك ، ولذلك غلب العمل باليدين على سائر الأعمال التى تباشر بغيرهما.

٦ - وقد يغلب الأشهر على غيره ، كما فى قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (١).

فإنه يتمنى أن يكون ما بينه وبين شيطانه من البعد ما بين المشرق والمغرب ، فأراد بالمشرقين : المشرق والمغرب ، فغلب المشرق لشهرته ، ولأن الشرق دال على الوجود ، والغرب دال على العدم ، والوجود أشرف لا محالة ، كما غلب القمر على الشمس ، لتذكيره ، وتأنيث الشمس ، فقال « القمران » والتذكير أشرف لا محالة .

٧ - وقد يغلب الأخف لفظا كقولك « العمران » لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولا شك أن لفظة عمر أخف من لفظة أبى بكر .

وإذا أردنا أن نلم بشىء عن التغليب ، وتاريخه ، والعلماء الذين تناولوه ، والدافع إلى تغليب أحد الأمرين على الآخر ، لطال بنا الحديث ، دون أن نصل إلى شئ محدد ، أو رأى قاطع ، ومهما يكن من شئ ، فإننا نحاول أن نسرد عنه فكرة موجزة تجعلنا نقف على حديث العلماء عنه ، وآرائهم فيه .

ينقل المبرد (ت ٢٨٥ هـ) أمثلة التغليب عن العرب فكان يقول : الأسودان : التمر والماء ، والأحمران : اللحم والنبيذ ، وقالوا أيضا الأحامرة : اللحم والنبيذ والزعفران ، والأبيضان : الشحم واللبن ، وقيل الماء واللبن ، وذهب منه الأطيبان : الطعام والنكاح ، والحجران : الذهب والفضة ، والعصران : الغداة والعشى (٢) ، والقمران : الشمس والقمر ، والعمران : أبو بكر وعمر (٣) .

(١) الزخرف ٣٨

(٢) الفاضل للمبرد ٢١ ، ٢٢

(٣) المقتضب للمبرد ٣٢٦/٤

ويذكر المبرد أمثلة كثيرة للتغليب ، غير أنه لا يضعها تحت هذا العنوان ، ولا يطلق عليها هذا الاسم ، وإنما يكتفى بسرد أمثلته العديدة .

ونرى الرضى (ت ٦٨٤ هـ) في نظرة طائرة يغلب المذكر على المؤنث ، والعاقل على غير العاقل (١) ، فيضع بذلك قاعدة محددة ، ولكنها غير شاملة ، لأن التغليب قد يقع بين المذكرين كالعمرين فى أبى بكر وعمر ، وغير العاقلين كالحجرين فى الذهب والفضة ، وعندئذ يحتاج التغليب إلى قاعدة أخرى أعم وأشمل ، لتسد الثغرة التى ينفذ من خلالها الطعن فى القاعدة السابقة .

والسيوطى (ت ٩١٠ هـ) يرى أن التغليب ليست له قاعدة معروفة يسير العلماء على وفقها ، ويخطىء ابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ) لأنه يرى تغليب الأدنى على الأعلى ، كما يخطىء الطيبى (ت ٧٤٣ هـ) لأنه يري تغليب الأعلى تارة ، وتغليب الأعلى علي الأدنى تارة أخرى . وتعارض السماع مع الجهتين ، فعلم أنه ليس لذلك قاعدة معروفة ، ثم يبين أن العرب تارة تغلب الأفضل : كالأبوين ، وتارة الأخف : كالقمرين ، وتارة المذكر : كالقمرين ، وتارة غير ذلك .

والسبكى (ت ٧٧٣ هـ) يذكر التغليب مرتين فى كتابه عروس الأفراح ، يذكره مرة على سبيل الاستطراد فى علم المعانى (٢) ، وأخرى في علم البديع (٣) .

والسيوطى وإن كان يضع التغليب في علم المعانى إلا أنه لا ينسى أن ينبه على أن السعد صاحب المطول قد اعتبر التغليب بألوانه كافة ، وأمثلته من المجاز ، لأن اللفظ لم يستعمل فيما وضع له ، ألا ترى أن القانتين موضوع للذكور الموصوفين بهذا الوصف ، فاطلاقه على الذكور والإناث إطلاق له على غير ما وضع له ، وقس على هذا جميع الأمثلة السابقة انتهى (٤) .

---

(١) شرح الكافية ١٨٦/٢
(٢) شرح التلخيص ٥١/٢
(٣) شروح التلخيص ٤٧٣/٤
(٤) عقود الجمان ١٢٨/١ ، البرهان فى علوم القرآن ٣١٢/٣

وليس المبرد (ت ٢٨٥ هـ) أول من تناول التغليب ، ولا الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) أيضا كما ذهب بعض الباحثين ، فبعد أن ذكر أمثلة الجاحظ فى التغليب قرر « أن هذا أول حديث عن التغليب يلقانا من دارسى القرآن [١]» ولكن ابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) يفرد بابا للاسمين يغلب أحدهما على صاحبه لشهرته ، أو لخفته من الناس [٢] .

وأبو عبيدة (ت ٢٠٧ هـ) يقول فى مجازه عند تفسير قوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج اللؤلؤ من البحر دون الفرات العذب ، أو يقول وإنما يخرج اللؤلؤ من أحدهما فخرج مخرج أكلت خبزا ولبنا [٣] وفى قوله تعالى : ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إذ أشركوا فعل ذكر مع فعل أنثى غلب فعل الذكر ، وذكروهما [٤] » فأبو عبيدة - إذن - سبق المبرد كما سبق الجاحظ في الحديث عن التغليب ولم يقف عند حدود الاشارة إلى معناه ، بل امتد إلى ذكر الاصطلاح نفسه ، كما أشرنا ، والسبكى ينص على أن أبا عبيدة قد ذكر التغليب فيقول « ويروى أنهم قالوا لعثمان رضي الله عنه نسألك سيرة العمرين وإليه ذهب أبو عبيدة[٥] ».

بل إن الكسائى (ت ١٨٣ هـ) قد عرف التغليب قبل الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) وأبى عبيدة (ت ٢١٠ هـ) كليهما ، فقد قال الكسائى « إن التغليب فى العمرين إنما هو لكثرة الاستعمال ، فإن أيام عمر أطول من أيام أبى بكر رضى الله عنهما [٦] ».

---

(١) أثر القرآن ٥٨
(٢) اصلاح المنطق ٤٠٠
(٣) مجاز القرآن ١٥/٤ ، ٢٤٤/٢ وعروس الأفراح ٤٧٣/٤
(٤) مجاز القرآن ١٨٤/١
(٥) عروس الأفراح ٥٢/٢
(٦) عروس الأفراح ٥٤/٢

# الفصـل الثالث

ويشمل :

١ -النعت وقيمته البلاغية .

٢- التوكيد وقيمته البلاغية .

٣-البدل وقيمته البلاغية.

٤- العطف وقيمته البلاغية.

## النعت وقيمته البلاغية

النعت يأتى لأغراض بلاغية منها :

١ - المدح والثناء : مثل قولهم : جاء محمد الأمين ، ومعه أخوه الصادق ، وذهب عمر العادل ، وأتى على الفصيح ، إلى غير ذلك من الصفات التى تدل على مدح الموصوف ، ومن ذلك صفات الله تعالى كقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فالوصف هنا لم يذكر لتوضيح الموصوف ، وتمييزه عن غيره ، فالله جل شأنه ، لا مثل له ، حتى يكون الوصف لتمييزه عن سواه ، وإنما جاءت الصفات لمجرد الثناء لله سبحانه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ فوصف الأنبياء بالإسلام لم يكن للتعريف والتوضيح ، فليس ثمة أنبياء غير مسلمين ، لأن الإسلام هو الاستسلام الكامل ، والطاعة التامة ، التى تحقق معنى الانقياد والعبودية لله تعالى ، فالأنبياء بهذا المعنى جميعهم مسلمون ، فوصْفهم بأنهم مسلمون أتى إذاً للمدح ليس غير .

ومثل ذلك قوله تعالى : « هو الخالق البارىء المصور ».

ومن الأوصاف التى جاءت للمدح قول الشاعر :

لا يبعدن قومى الذين همُ      سُم العُداةِ وآفةُ الجُزُرِ

فوصف الشاعر قومه بالشجاعة مع الأعداء ، وإلقاء الرعب فى قلوبهم ، حتى غدوا بمثابة السم لهم ، كما وصفهم بالكرم والجود ، ونحر الجزور ، وتقديمها للضيفان ، حتى صاروا كأنهم آفات تحيق بالإبل . وما أراد الشاعر بهذه الأوصاف إلا أن يمدح قومه ، ويكيل لهم الثناء .

٢ - ومن الأغراض البلاغية التى يساق لها الوصف : الذم .

مثل قولك :

تحــــدث زيد الفـــاسق وأيده عــــمــــرو المنافق

وأفـــحم ســعــيـــد الخليع وأرغم فـــريد الرقـــيع

ومنه قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فجميع هذه الأوصاف إنما أتت لذم الموصوف وتحقيره ، وإبرازه فى صورة الساقط الذى لا يحق احترامه ، إذ هو غير جدير بالاحترام ، ولو أنك لم تذكر هذه الصفات المذمومة : صفات الفسق ، والنفاق ، والخلاعة والرقاعة ، لما وصلت إلى الغرض المقصود من تقبيح الموصوف .

ومن ذلك قول المتنبى يهجو كافور :

من علمَ الأسود المخصىّ مكرمةً أقومُه البيض أم آباؤه الصيد؟

ونحب أن ننبه إلى أن هذه الأوصاف لا تكون للمدح والثناء ، أو الذم والقدح ، إلا إذا كان الموصوف معلوما للمخاطب متعينا ، وقد فهم المراد منه قبل ذكر الوصف حتى يصير للمدح أو الذم ، ولا يكون للتوضيح أو التخصيص .

٣ - وقد يكون الغرض البلاغى من الوصف هو الكشف عن معنى الموصوف ، وإيضاحه ، وزيادة بيانه لدرجة قد تصل إلى تحديد الموصوف تحديدا تاما .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ فالوصف هنا لم يأت للذم ولا للمدح ، وإنما أتى للكشف عن حال النبى بأنه لا يقرأ ولا يكتب ، حتى تصح دعوته بأن القرآن ليس من عنده ، وإنما هو من عند الله .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فصفتا الجزع والمنع توضيح وكشف وتفسير لمعنى الهلع ، فإن الهلع سرعة الجزع عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير ، فصار الوصف مبينا للموصوف ، وكاشفا عن حقيقته ومعناه .

ومن ذلك قول أوس بن حجر يرثى فضالة بن كلدة :

| | |
|---|---|
| أيتـهـا النفس اجـملى جـزعـا | إن الذي تحـذرين قـد وقـعـا |
| إن جـمع الشـجـاعـة والنجـ | ـدة والبـر والتـقى جـمـعـا |
| الالمـعـى الذى يظن بك الظـ | ـن كـأن قـد رأى وقـد سـمـعـا |

فإن الألمعى معناه الذكى المتوقد الذكاء ، والوصف بعده مما يكشف معناه ويوضحه فالألمعى موصوف ، وما بعده صفة ، جاءت موضحة وكاشفة عن معنى الألمعى ، بل فيها تحديد وتعريف لكلمة الألمعى . ومما يدل على ذلك ، أن الأصمعى سئل عن معنى الألمعى ، فأنشد البيت ولم يزد عليه (1)، وكأنه اكتفى بالوصف عن التعريف ، بل اعتبر الوصف هو التعريف بنفسه .

ومما يدخل فى هذا الغرض قولهم : الجسم الطويل العريض العميق يحتاج إلى فراغ يشغله . فكلمات الطول والعرض والعمق جاءت كلها لتصف الجسم وتكشف عن حالته ، وتحدد أبعاده .

ومن ثم تتبين قيمة الوصف فى بعض أغراضه التى يساق من أجلها ، وأنه لم يأت عبثا ، أو نافلة ، وإنما جاء لغرض بلاغى معين يفوق مجرد إيصال المعنى إلى ذهن المخاطب .

٤ – فالغرض الذى تأتى من أجله الصفة هو الكشف والتوضيح ، وذلك إذا كان الموصوف معرفة . أما إذا كان الموصوف نكرة ، فإن الصفة لا تأتى للكشف والتوضيح ، لأن النكرة عامة ويشترك فيها الكثير ، فالوصف هنا يأتى لتقليل الاشتراك الحاصل فى النكرات ، ويخصص الموصوف بعد أن كان فيه معنى العموم، فأنت عندما تقول جاءنى رجل ، كانت كلمة رجل باعتبارها نكرة تحتمل بحسب وضعها كل فرد من أفراد الرجال . فإذا جئت بالصفة وقلت (جاءنى رجل عالم) فقد أزلت العموم ، وقلّلت الاشتراك ، ولم يكن الحديث عن أى شخص تطلق عليه كلمة رجل ، سواء كان عالما أو جاهلا ، بل عن رجل موصوف بأنه عالم ، وبذلك تكون قد

(١) المطول للتفتازاتى ٩١

أبعدت بهذا الوصف كل رجل آخر لم يوصف بصفة العلم ، ولاشك أن هذا يزيل العموم ، ويقلل الاشتراك ، لأنك خصصت المجىء بفرد من الأفراد المتصفة بالعلم.

ويفرق النحاة بين الوصف الذى يأتى لغرض التوضيح ، والوصف الذى يأتى لغرض التخصيص .

فالتوضيح : هو رفع الاشتراك إذا كان الموصوف معرفة.

والتخصيص : هو رفع الاشتراك إذا كان الموصوف نكرة .

٥ - وقد يكون الغرض البلاغى من مجىء الوصف هو التأكيد :

وذلك إذا كان الوصف متضمنا لمعنى الموصوف ، فكأن فيه تكرارا له ، والتكرار يعطى مزية التقرير والتأكيد .

فقوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ».

فالدابة لا تدبّ إلا على الأرض ، والطائر لا يطير إلا بالجناح ، وكان من الممكن الاكتفاء بذكر الموصوف دون الصفة مع استقامة المعنى ، فيقول « وما من دابة ولا طائر » دون أن يذكر : فى الأرض ، أو يطير بجناحيه ، ولكنه ذكر الوصف في كل منهما قصدا إلى تأكيد معنى جنس الدواب والطير ، فإذا لم يذكر الوصف ، ربما يتوهم أنه قصد إثبات الأفراد ، ونفى التثنية أو الجمع ، وليس هذا مراد الله سبحانه وتعالى ، فالقصد إلى الجنس معناه زيادة العموم والإحاطة بحيث يشمل الجنس كله بجميع أفراده ، وليس فردا واحدا فقط . والعموم لم يأت من وقوع النكرة فى سياق النفى وحده ، وإنما أتى أيضا من الوصف ، إذ أن الوصف ينفى احتمال أن يكون المراد دوابّ أرض واحدة ، وطيور جوّ واحد .

وهنا فائدة أخرى أتى بها الوصف ، وهى إرادة حقيقة المعنى ، ورفع توهم المجاز ، فقد أراد حقيقة الطيران ، وليس معناه المجازى ، إذ ربما يتوهم السامع أن المراد بالطيران هو الخفة وسرعة العدو ، كقول أنيف بن قريط العنبرى :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزعٌ    طاروا إليه زُرافات وَوُحدانا

فقوله يطير بجناحيه : رافع لاحتمال هذا المعنى المجازى ، ومؤكد للمعنى الحقيقى للطيران .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ .

فأكد الإلهين باثنين ، وإلهٌ بواحد ، ولو أنه قال : لا تتخذوا إلهين دون أن يؤكده باثنين ، لجاز أن يكون الكلام نهيا عن اتخاذ جنسين من الآلهة ، مع إباحة اتخاذ آلهة متعددة ما دامت من جنس واحد ، فلما قال اثنين تأكد لنا أن المراد هو النهى عن اعتقاد التعدد ، وتنزيه الله عن العددية ، وكذلك لو قال : إنما هو إله ، ولم يؤكده بواحد ، أشكل عليك الأمر ، وظننت أنه يريد إثبات الألوهية وليست الوحدانية ، فالاتيان بالوصف هنا ، يزيل هذا الاحتمال ، ويثبت الوحدانية لله سبحانه ، إذ هى مدار الجدل والنزاع .

ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ .

ويستشهد النحاة فى مجىء الوصف لغرض التأكيد بقولهم « أمس الدابرُ لا يعود » فالوصف هنا متضمن لمعنى الموصوف ، فالأمس قد ادبر وولى ، فالصفة والموصوف كلاهما يحمل معنى الآخر .

ومما يأتى لقصد التوكيد ، وإزالة الشك قولهم :

قلت بفمى ، وسمعت بأذنى ، وكتبت بيدى ، وأكلت فى بطنى .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ .

وإن لم يكن ذلك نعتا بالمعنى الاصطلاحى المعروف .

٦ - وقد يكون الغرض الترحم .

كقولك : « أرسل الزكاة إلى محمد البائس الفقير ».

« وتصدق على الرجل العاجز الضعيف ».

وكقول الشاعر :

**إلهى عبدك العاصى أتاكا مقرا بالذنوب وقد دعاكا**

فوصف محمد أولا بأنه بائس فقير ، والرجل ثانيا بأنه عاجز ضعيف ، ووصف الشاعر نفسه بأنه العاصى ، كلها جاءت لغرض واحد ، أن يستدر العطف والرحمة على الموصوف ، فينال الخير والفضل .

وهناك ملاحظات نحب أن ننبه عليها قبل أن نختم الكلام عن الصفة وقيمتها البلاغية.

الأولى : إذا تعددت الصفات . وكان بعضها عاما والآخر خاصا ، ذكرت الصفة العامة أولا ثم عقبت بالصفة الخاصة بعد ذلك فتقول هذا رجل متكلم فصيح ، ولا يجوز هذا رجل فصيح متكلم ، لأنك إذا ذكرت الصفة الخاصة أولا لم يعد للصفة العامة معنى ، وكان الاتيان بها عبثا لا طائل تحته إذ أن الفصيح لابد أن يكون متكلماً ، بخلاف المتكلم فليس ينبغى أن يكون فصيحا ، فإذا ذكرت صفة الفصاحة بعد صفة الكلام أضفت معنى جديدا لم يتضمنه الوصف الأول.

وكذلك لا يصح أن تقول هذا رجل بليغ فصيح ، لأنه مادام بليغا فلابد أن يكون فصيحا ، ويجوز أن تقول هذا رجل فصيح بليغ ، لأن الفصاحة لا تتضمن البلاغة ، فكان الاتيان بها مفيدا ، ويضيف إلى المعنى جديدا .

الثانية : أن تكون الصفة فى بعض الأحيان ملازمة للموصوف لا تنفك عنه ، بمعنى أن الموصوف يتضمن هذه الصفة ، فالمجىء بها لا يفيد معنى جديدا ، وإنما يأتى فقط لمجرد التوكيد ، فمن ذلك قوله تعالى : « ويقتلون النبيين بغير الحق»

فليس ثمة نوعان فى قتل الأنبياء ، نوع بحق ، ونوع بغير حق ، ولكن قتل الأنبياء فى جميع صوره يكون بالباطل وبغير الحق ، فالوصف هنا بغير الحق لا يعطى معنى جديدا لأن الموصوف يتضمنه ، ولكن التصريح به أبلغ فى إفادة معنى الذم على فعلهم القبيح ، لأنه بمثابة تكرار الوصف .

ومثله قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فليس ثمة سفه بعلم وآخر بغير علم ، فالسفه لا يكون إلا عن جهل ، والجهالة صفة لازمة للسفاهة ، ولكنه ذكرها وصرح بها ليسجل عليهم الجهل ويؤكد صدوره عنهم .

الثالثة : إذا تكررت الأوصاف لموصوف واحد ، أتيت بها دون الفصل بحرف العطف إذا التحمت معانيها أو اتفقت أو اقتربت ، كقوله تعالى : ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ . فهذه الأوصاف جاءت لتؤدى غرضا واحدا حيث قصد بها الذم .

وقوله تعالى : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ فهذه الأوصاف كلها إذا استثنينا الصفة الأخيرة جاءت دون الفصل بحرف العطف لاتفاق معانيها والتحام بعضها ببعض .

أما إذا اختلفت معاني الصفات فصلت بينها بحرف العطف دلالة على استقلال كل منها عن الآخر ولذلك عطف فى نهاية الآية السابقة فقال ثيبات وأبكارا، لأن معنى أحدهما مخالف لمعنى الآخر بل مضاد له ، ولذلك فصل بينهما بحرف العطف .

ومنه قوله تعالى : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ ، فالعطف هنا لازم لتباعد الصفات. ودخول حرف العطف يؤذن باستقلال الصفة عن التى قبلها.

الرابعة : إذا تكررت الأوصاف لموصوف واحد واختلف من حيث الإفراد ، والتركيب ، قدمت المفرد ، وشفعته بشبه الجملة - ظرفا أو مجرورا - ثم انتهيت بالجملة ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ فلدينا فى هذه الآية ثلاثة أوصاف :

مـفـرد وجـاء به أولا ، وجـار ومـجـرور ، وأتـى به ثانيـا ، وجـملة وخـتم بهـا الأوصاف الثلاثة.

وفى قوله تعالى : «قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما» فوصف أولا بشبه الجملة ، ثم بالجملة ، ولعل سبب هذا الترتيب ، أن المفرد بسيط ، والجملة مركب ، وشبه الجملة بين هذا وذاك ، فحسن الترتيب بهذه الكيفية ليتفق فى تدرجه من البساطة إلى التركيب .

وهذا الترتيب حسن ، وليس حتميا فقد جاء فى القرآن ما يخالف هذا الترتيب . فقوله تعالى :

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ فالوصف الأول جملة والثانى مفرد .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فالوصف الأول جملة ، والوصف الثانى مفرد .

# التوكيد وقيمته البلاغية

ليس المراد من أسلوب التأكيد ، هو ذلك النوع الذى يعتبر فرعًا من التوابع ، وإنما أردنا ما هو أعم وأبعد من ذلك ، سواء كان من التوابع أم لم يكن ، ما دمنا نلحظ فيه معنى التوكيد .

ومادام البحث عن قيمة التوكيد البلاغية ، فلا معنى لأن نقيد أنفسنا داخل نطاق التوابع ، ونلتزم بها ، وإنما نلتمس هذه القيمة التى نجدها ، فذلك أجدر بالدراسة ، واشمل للفائدة .

فمن فوائد التوكيد البلاغية :

١ - أنه يجىء لتقرير الكلام : أى جعله مستقرًا ثابتًا لا يحتمل الظن أو يداخله الريب ، فإذا قلت مثلا ، جاءنى محمد ، دون تأكيد ، فربما يغفل السماع عن سماع لفظ محمد (المسند إليه) فتكرره له حتى تزيل هذه الغفلة عنه ، وترده إلى اليقظة ، فإذا قلت مؤكدا : جاءنى محمد محمد ، أزلت عن السامع كل غفلة ، ورددته إلى تمام اليقظة.

٢ - إنه يجىء لابراز الكلام فى صورة الحقيقة التى لا تحتمل التأويل : فإذا قلت : قطع اللصَّ الأميرُ ، احتمل الكلام أن يكون حقيقة ، وأن يكون مجازا ، فإذا أكدت الكلام وقلت : قطع اللص الأميرُ الأمير ، لم يكن ثمة وجه للمجاز ، « لأن أفعال المجاز لا تؤكد بالتكرار[1] » ولم يحتمل الكلام سوى الحقيقة ، وأن الأمير بشخصه هو الذى أقام عليه الحد بقطع يده .

وتقول ضرب الحاكم المذنب ، ولا يكون باشر الضرب بنفسه ، بل أمر به ،

---

(١) تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة ٨٢.

فإذا قلت (ضربا) علم أنه باشر الفعل بنفسه ، ولم يأمر به « لأن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر ، فلا تقول أراد الحائط أن يسقط إرادة شديدة ، فارادة الحائط فعل مجازى ، وليس فعلا حقيقيا ، ولذلك لا يجوز تأكيده ، فإن أكدته كنت متناقضا فى قولك ، والله يقول ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ فوكد بالمصدر معنى الكلام ، ونفى عنه المجاز » (1).

٣ - إثبات الشمول : فإذا قلت جاءنى القوم ، ربما تبادر إلى الذهن أن الذى جاء هو بعض القوم ، وليس جميعهم ، ولكنك إذا أتيت بالتوكيد فقلت جاءنى القوم كلهم ، فلن يتوهم أحد أن بعض القوم قدجاء ، وبعضهم الآخر لم يجىء ، إذ أن لفظ التوكيد قد دل على الاحاطة والشمول وأن أحدا لم يتخلف عن المجىء .

ففى قوله تعالى حكاية عن يوسف ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، لم يرد مجرد اجتماع الأهل عنده ، وإنما أراد أن يأتوه جميعا بحيث لا يتخلف منهم أحد .

فإذا زدت فى ألفاظ التوكيد لفظا ، فقد سعيت إلى مزيد من الفائدة ، حتى تكون الزيادة فى اللفظ معادلة للزيادة فى المعنى ، ولا تأتى عبثا ، فقوله تعالى : ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فيه لفظان من ألفاظ التوكيد : كلهم وأجمعون ، فلفظ كلهم أفاد الاحاطة والشمول ، أى : أن الملائكة قد سجدوا جميعا فردا فردا دون أن يتخلف منهم أحد ، ولفظ «أجمعون» قد أضاف جديدا إلى المعنى ، وأفاد قدرا زائدا لم يفده اللفظ الأول : وهو أنهم قد سجدوا فى وقت واحد مجتمعين لا متفرقين. فيصبح جملة المعنى : فسجد الملائكة كلهم عن آخرهم فى آن واحد دون أن يتخلف منهم أحد ، ولا يتأتى هذا المعنى الدقيق إذا استغنينا بأحد اللفظين عن الآخر .

ومن ثم أنكر بعض القوم وجود التوكيد فى القرآن ، لأنه لا يأتى إلا إذا كان الكلام قاصرا عن أداء المعنى بغير توكيد .

وهذا زعم لا دليل عليه ، فالتوكيد أسلوب من أساليب العرب ، وشعبة من شعب الفصاحة والبلاغة عندهم ، وقد ورد كثيرا على ألسنتهم ، والقرآن نزل

---

(1) المصدر السابق والصفحة

بأسلوب العرب وطريقتهم فى الكلام ، ومن ينكر وجود التوكيد فى القرآن فكأنما ينكر وجوده فى اللغة ، وهى مكابرة لا تستحق منا عناء الوقوف لحظة.

نعود فنقول : إن فوائد التوكيد البلاغية أجملها الزمخشرى فى كتابه المفصل إذ يقول ؛ « وجدوى التأكيد أنك إذا كررت فقد قررت المؤكد ، وما علق به فى نفس السامع ومكنته فى قلبه ، وأمطته شبهة ربما خالجته ، أو توهمت غفلة أو ذهابا عما أنت بصدده فأزلته ، وكذلك إذا جئت بالنفس والعين ، فإن لظان أن يظن حين قلت: فعل زيد أن إسناد الفعل إليه تجوز ، أو سهو ، أو نسيان ، وكل واجمعون يفيدان الشمول والاحاطة»(١).

**صور التوكيد :**

وقد يكون التوكيد فى الاسم ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾.

وقد يكون التوكيد فى الفعل نحو عجل عجل ، ونحو أتاك أتاك اللاحقون احبس احبس).

وقد يكون فى الحرف نحو قوله تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾.

وقد يكون فى الضمير نحو قوله تعالى : ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾.

وقد يكون فى اسم الفعل نحو ﴿ هيهات هيهات لما تدعون ﴾.

وقد يكون فى الجملة نحو ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾.

وقد يكون الفعل بالمصدر نحو ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ ونحو ﴿ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾ ، ومثله قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ ، فالتأكيد هنا لرفع المجاز ، ومعنى تمور : تدور بما فيها ، فربما خيل

(١) المفصل للزمخشرى ١١١ ، ١١٢ ط التقدم ١٣٢٣ هـ

للناظر انها تمور ، وهى لا تمور ، وربما ظن ان المور لأهل السماء لشدة الأمر وليس فيها حقيقة، فذكر المصدر هنا بمثابة التكرار ، وكأنه قال : تمور السماء تمور السماء ، وتسير الجبال تسير الجبال ، فالتأكيد هنا يرفع توهم المجاز ، ويقرر الفعل الذى نصبه .

وقد يؤكد الفعل بما يرادف المصدر مثل قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾، فالدعاء مصدر دعوتهم ، وجهارا أحد نوعى الدعاء ، فكان بمنزلة المرادف للدعاء .

وقوله تعالى : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ فليّ اللسان نوع من تحريف الكلام ، فكان بمثابة المرادف به ، ومثله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ، فتعالى مصدره تعاليا ، وعلوا مرادف به. وقد يأتى اللفظ ثم يذكر معه ما يرادفه ، كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ، فالغربيب : الشديد السواد والمعنى سود غرابيب .. فاللفظ يحمل معنى الترادف ، إذ أن السبيل يحمل معنى الفج ، والغربيب يعطى معنى السواد .

والتوكيد بالمصدر أخف من التوكيد بالفعل ، لأن المصدر اسم ، والاسم أخف من الفعل (1) ، ولأن الفعل يتحمل الضمير فيزداد ثقلا به .

**وقد يؤكد الفعل بالحال : إذا كان الفعل يشير إلى معناها ، مثل قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ، فالبعث فيه معنى الإحياء ، وقوله : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ ، وقوله : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ، نلحظ فى الفعل إشارة إلى الحال.**

وكل صورة من صور التوكيد على اختلاف نوعها ، ترفع احتمال المجاز ، وتقرر المعنى فى الذهن ، وتصيره واقعا لا مجال للشك فيه .

---

(1) الكتاب لسيبويه ٦/١

**أدوات التوكيـــد :**

الجملة قسمان : اسمية وفعلية ، ولكل منهما أدوات تؤكده .

فمن مؤكدات الجملة الاسمية :

إن ، وأن ، وكـأن ، ولكن ، ولام الابتـداء ، وضـميـر الفـصل ، وضـميـر الشـأن والقصة ، وألا الاستفتاحية ، وتصدير الجملة بالضمير .

**إنْ** بكسر الهمزة : تكون جوابا عن سؤال ، وأنت تجيب السائل على خلاف ما يظن ، كـمن يسـألك كيف الطالب؟ وهو يظن إنه بليد ، فـتـقـول مـخلفـا ظنه ، إنه مجتهد ، وعندئذ يتحقق فيها الأمران :

الأول : إنها إجابة عن سؤال سائل .

والثانى : إنك أجبته بغير ما كان يظن .

**فإن لم يكن ثمة سؤال فى الحقيقة ، قدرت السؤال أولا حتى تكون مصيبًا فى التأكيد بإن ، ولابد عندئذ أن يكون الكلام ما يلوح بالسؤال ، أنظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ أكد بإن المكسورة ، لأن ما تقدم يبوح بالسؤال ، فكأن المخاطب سأل ، وكيف لا ينزه نفسه مع كونها مطمئنة زكية؟ فكان الجواب قاطعا لهذا التساؤل المحير : إن النفس لأمارة بالسوء.**

**وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾، فأكد الكلام بإن المكسورة ، إذ تقدم عليها ما يشير إلى سؤال فحواه : ولماذا لا أخاطبه فى شأنهم ، وأطلب الشفاعة لهم ؟ فكان الجواب دافعا لهذا التساؤل النفسى ، مؤكدا عدم الاستجابة للشفاعة فى شأنهم .**

**أنّ : بفتح الهمزة : وهى للتأكيد أيضا ، مثل علمت أن أباك قادم ، وهى تؤول مع ما بعدها بمصدر يقع موقع المفرد ، فتقدير هذا المثال : علمت قدوم أبيك . ومثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾.**

**والفرق بينها وبين إن المكسورة أنها تؤكد المسند ، والمكسورة تؤكد الإسناد .**

**كأنّ :** تدل على التشبيه والتوكيد ، فهى مركبة من الكاف وإن ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ .

**لكنّ :** لتأكيد الجمل ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴾ ، فهى تؤكد ما تدخل عليه من جمل ، وقد أكدت هنا عدم الاعتراف بالشكر من معظم الناس ، وإنكارهم لفضل الله عليهم .

**لام الابتداء :** تفيد تأكيد مضمون الجملة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وإذا جاءت مع إن ، أخرت حتى لا يتوالى مؤكدان ، وكان الكلام بمنزلة تكرار الجملة ثلاث مرات ، لأن إن أفادت التكرير مرتين ، وأضافت اللام تأكيدا آخر ، فصار التأكيد ثلاث مرات .

**ضمير الفصل :** كقوله تعالى :

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ، ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا ﴾ .

﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ .

وقد نص سيبويه على أن ضمير الفصل يفيد التوكيد[1] وكذلك المبرد فقال «فمما جاء من توكيدها فى القرآن قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾[2] .

وضمير الفصل يدل على الحصر أيضا ، فقوله تعالى :

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ .

(١) الكتاب ١/٣٩٥

(٢) المقتضب ٤/١٠٤

يفيد كل منهما القصر ، فليس هناك من شانئ إلاّ الأبتر ، ولا ولى سوى الله .

وضمير الفصل ، يفيد أيضا أن ما بعده خبر لا صفة ، هذه الفوائد الثلاث لضمير الفصل : التوكيد ، والحصر ، وأن ما بعده خبر لا صفة ، ذكرها الزمخشرى فى قوله تعالى :

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(1) .

**ضمير الشأن والقصة :**

ومن أدوات التوكيد ضمير الشأن للمذكر ، وضمير القصة للمؤنث ، ويقدمونه على الجملة ليوحى بتعظيم الأمر فى نفسه ، والاطناب فيه ، ويفضلون ذلك فى مواضع التفخيم ، والغرض منه أن يتطلع السامع إلى معنى هذا الضمير ، وينتظر تفسيرًا له ، فإذا جاءت الجملة بعده جاءت مفسرة ، وذلك أبلغ وأوقع فى النفس لتطلعها إليه ، واستشرافها له .

مثال ضمير الشأن ، قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

ومثال ضمير القصة ، قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ ﴾ .

**تصدير الجملة بالضمير :**

مثل قوله تعالى : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ ، فالضمير المتقدم فى الآيتين مبتدأ ، وهو يفيد التوكيد والحصر ، أى لا يوقن بالآخرة إلا هم ، ولا ينشر إلا هم .

**ألا الاستفتاحية :**

« وهى مركبة من همزة الاستفهام ، ولا النافية ، لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها ، والاستفهام إذا دخل على النفى أفاد تحقيقا ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ ﴾ ؟ ولكونها فى هذا المنصب من التحقيق (أى التأكيد) جاءت الجملة بعدها مصدرة بنحو ما تتصدر به جملة القسم من التوكيد »(2)، مثل قوله

(1) الكشاف ٣٦/١ ، وعروس الأفراح ٢٨٧/١

(2) الكشاف ٤٨/١

تعالى : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

**اتصـال الخبر بالبـاء :**

مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾(١) ، فالباء هنا لتوكيد النفى أى أنه يؤكد نفى خروجهم من النار ، وقولهم ما زيد بمسافر ، نؤكد نفى سفر زيد .

هذه هى بعض أدوات التوكيد التى تتصل بالجملة الاسمية ، وهناك أدوات أخرى لم نذكرها ، وإنما اكتفينا بذكر بعضها ، مثل إما المكسورة ، وأما المفتوحة ، وهاء التنبيه ، وغير ذلك مما يضيق به المقام .

ومن البدهى أن تجتمع أكثر من أداة واحدة فى الجملة الواحدة ، فقوله تعالى: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ، فيها من أدوات التوكيد : ألا الاستفتاحية ، وإن ، وضمير الفضل ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ ، فيها من أدوات التوكيد إن واللام ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ ، فيها من أدوات التوكيد : إن وضمير الشأن.

**مؤكدات الجملة الفعلية :**

١ - قد : تفيد التحقيق والتأكيد ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، أى فقد حصل له الهدى لا محالة ، كما تقول : إذا جئت فلانا فقد أفلحت ، كان الهدى قد حصل ، فهو يخبر عنه حاصلا ، ومعنى التوقع فى (قد) ظاهر ، لأن المعتصم بالله متوقع للهدى ، كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده (٢).

والفرق بين الجملة التى دخلت عليها قد مثل قد قدم محمد ، والجملة التى لم تدخل عليها قد مثل قدم محمد ، أن الأولى لا تقال إلا لمن يتشوق إلى سماع

---

(١) البقرة ١٦٧

(٢) الكشاف ٣٠٢/١

قدوم محمد ويترقبه ، أما الثانية فإنها تقال لمن ليس عنده هذا الشوق ، والترقب لقدومه .

٢ - **السين وسوف :** قال تعالى : ﴿فسيكفيكهم الله﴾ فالسين هنا قد أعطت ضمانا للمعنى ، وأن الله سوف يناصر رسوله ، ويظهره على عدوه ، وأن الله منجز وعده لا شك فى إنجازه ، « فمعنى السين أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين»(١) .

ومثله قوله : ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾، السين تؤكد وجود الرحمة ، وإنها متحققة لا تحتمل التخلف ، فهى واقعة لا مراء وإن تأخرت قليلا أو كثيرا ، يقول الزمخشرى فى هذه الآية : السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة ، فهى تؤكد الرعد، كما تؤكد الوعيد فى ذلك : سأنتقم منك يوما ، تعنى أنك لا تفوتنى وإن تباطأ ذلك ، ونحوه ﴿سيجعل لهم الرحمن ودا﴾، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ ، ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾(٢).

## ٣ - نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة :

قالوا : نون التوكيد الثقيلة بمنزلة ذكر الفعل ثلاث مرات .

ونون التوكيد الخفيفة بمنزلة ذكر الفعل مرتين .

ونون التوكيد بالنسبة للفعل وتأكيدها له مثل إن واللام بالنسبة للاسم وتأكيدها له .

وقد اجتمع النونان فى قوله تعالى : ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ فالمشددة ثقيلة ، والساكنة خفيفة .

ونون التوكيد بشقيها لا تلحق إلا فعل الأمر ، والمضارع الذى يدل على الاستقبال فقط ، أما الماضى والحاضر فلا تلحقهما ، إذ لا يجوز تأكيدهما ، لئلا يلزم تحصيل الحاصل ، وإنما يؤكد المستقبل سواء أكان أمرا أو مضارعا .

---

(١) الكشاف ١٤٦/١

(٢) ٢٢٦/٢

يقول الدكتور عضيمة فى كتابه « دراسات لأسلوب القرآن الكريم » الفعل الماضى لا يؤكد بالنون ، لأن معناه للمضى ، ومن شأنه نون التوكيد أى تخلص الفعل المضارع للاستقبال .

وفعل الأمر يجوز توكيده مطلقًا .

والفعل المضارع حملا على توكيد فعل الأمر .

ثم يقول : « وأفعال الأمر كثيرة جدا فى القرآن أحصيت مواضعها فكانت ١٨٤٨ موضعًا »(١).

**٤ - لن :** تؤكد نفى الفعل ، كما أن السين تؤكد إثبات الفعل ، فإذا قلت مؤكدا فى الاثبات : سيقرأ الأستاذ البحث ، قلت مؤكدا فى النفى لن يقرأ الأستاذ البحث ، وإذا قلت مخبرا بدون تأكيد لا يقرأ الأستاذ البحث ، ومن ثم فلا يصح أن نضع (لن) فى موضع (لا) لأن الأولى تفيد التوكيد ، بخلاف الثانية .

قال سيبويه(٢) : لن : جواب لمن قال سيفعل . يعنى ، والسين للتأكيد ، فجوابها كذلك .

ولعل سبب التأكيد فى لن دون ما ، أن الأولى مركبة من (لا وإن) وهما أداتان للنفى، لا أداة واحدة ، ولا شك أن النفى بأداة مركبة آكد وأقوى من النفى بأداة بسيطة.

**٥ - ما :** تفيد التوكيد ، فتنفى الفعل المؤكد بخلاف (لم) فإنها تنفى الفعل إذا قصد به مجرد الاخبار « فإذا قلت : فعل فتنفيه لم يفعل ، وإذا قلت : لقد فعل فتنفيه ما فعل ، لأنه كأنه قال : والله لقد فعل ، فقال والله ما فعل »(٣) .

هذا كلام سيبويه ويفهم منه أن النفىّ بما ، آكد من النفى بلم ، وإن كان الدكتور أنيس يرى عكس ذلك(٤).

---

(١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٦٢/٣ د. عضيمة ط السعادة

(٢) الكتاب ٤٠٨/١

(٣) الكتاب ٤٠٨/١

(٤) من أسرار اللغة ١٧٠

وهكذا لكل أداة موضعها الدقيق الذى توضع فيه ، ولا يحلّ لأداة أخرى أن تحل محلها ، فلا يصح لأداة تفيد التوكيد أن توضع فى كلام لا يستوجب التأكيد ، كما لا يجوز أن تضع أداة لا تفيد معنى التوكيد فى حديث يستلزم التوكيد ، فاللغة العربية دقيقة ، وفنونها البلاغية متشعبة ، وأسرارها لا تجتلى إلا بالوقوف على مثل هذه الدقائق فى التعبير .

# البدل وقيمته البلاغية

**البـــدل أنواع :**

١ - بدل كل من كل أوالمطابق : وهو الذى تكون ذاته ذات المبدل منه ، مثل قوله تعالى : ﴿صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللهِ﴾ ، فلفظ الجلالة بدل ، والعزيز مبدل منه ، وذات الله هو ذات العزيز ، ومثله قوله تعالى : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » فآزر بدل ، والأب مبدل منه ، والبدل هو عين المبدل منه وليس غيره .

٢ - بدل بعض من كل : وهو أن يكون البدل جزءا من المبدل منه ، مثل قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ ، فالمستطيع بعض الناس وليس كل الناس .

ومثله قوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ ، فمن آمن بعض المستضعفين وليس كلهم . وهذا بدل بعض من كل .

٣ - بدل اشتمال : وهو الذى لا تكون ذاته ذات المبدل منه ، ولا بعضه ، بل يكون المبدل منه مشتملا عليه مقتضيا له بوجه من الوجوه ، بحيث تكون النفس مشتاقة إليه ، نزاعة إلى ذكره فإذا جاء البدل جاء مبينا لما هو مبهم ، ملخصا لما هو مجمل . فمن ذلك قوله تعالى :

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ فالنار بدل اشتمال من الأخدود ، لأن الأخدود يشتمل على النار وعلى غيرها .

ومثله قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ فطلعها بدل اشتمال من النخل ، والنخل يشتمل على الطلع وعلى غيره .

هذه هى أنواع البدل الثلاثة المعترف بها فى مسائل البلاغة ، دون غيرها من بدل الغلط ، وبدل النسيان . « فلا يجىء بدل الغلط ، ولا بدل النسيان فى كلام الفصحاء ، وما يصدر عن روية وفطانة ، لا يكون فى شعر أصلا »(١) .

ويقول الزمخشرى فى المفصل : « وهذا لا يكون إلا فى بدية الكلام ، وما لا يصدر عن روية وفطانة ».

وقيمة البدل البلاغية تتلخص فى الايضاح بعد الابهام ، والتوكيد بعد الاخبار فإذا قلت أكرمت محمدا أخاك . بينت أنك تريد بمحمد الأخ ، وصار واضحا لك مَن المراد بمحمد بعد أن كان مبهما . وأما التوكيد ، فلأن البدل يكون على نية تكرار العامل من جهة ، ولدلالة المبدل منه على البدل ، أى دلالة محمد على الأخ ، فجرى البدل من المبدل منه مجرى التوكيد لتكراره .

وإذا قلت بدل البعض : ضربت عليا رأسه ، فقد وضحت أولا الجزء المضروب بعد أن كان مبهما ، وأكدته ثانيا ، لأنك ذكرت الرأس مرتين ، مرة ضمن على ، وأخرى بلفظها .

وإذا قلت فى بدل الاشتمال : أعجبنى بكر علمه ، فالبدل هنا فائدته البيان بعد الاجمال ، والتفسير بعد الابهام ، أما التأكيد فإنك قد تقول أعجبنى بكر إذا أعجبك علمه ، فذكر العلم بعد ذلك يكون بمثابة التكرار فيحصل التوكيد ، لأن ما يذكر أولا يكون موطئا لما يذكر ثانيا ، وهذا ما قصد إليه سيبويه حين أشار بأن «البدل يأتى للتوكيد والتبيين »(٢) والخليل يرى أنه يأتى للتفسير (٣).

ويمكن أن نلحظ هذه الفائدة فى كل مثال للبدل .

فقوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ .

---

(١) شرح الكافية ٧٥/١

(٢) الكتاب ٧٥/١

(٣) الكتاب ٤٤٦/١

فصراط المنعم عليهم . هو الصراط المستقيم وبيان له ، فإنه أدل ليكون شهادة الصراط بالاستقامة على أبلغ وجه ، لأنه إذا طرق السمع مبهما ، ثم أعقب بالتفسير ، تمكن عنده .

وقوله تعالى : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ .

فرب موسى وهارون هو رب العالمين ، وبيان له .

وقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ .

فقتال بدل اشتمال من الشهر ، والشهر يتضمن القتال ، فهم يعلمون الشهر الحرام ولا يسألون عنه ، وإنما يسألون عن القتال فيه ، فجاء تأكيدا لما قبله ، وبيانا له .

فالبدل فيه معنى التوكيد ومعنى الصفة ، ويجمع بين فائدة التوكيد وفائدة الصفة . إذاً كيف يمكن أن نفرق بين البدل والتوكيد ؟

وكيف نفرق بين البدل والصفة ؟

أما الفرق بين البدل والتوكيد ، فمعلوم أن الغرض من البدل هو أن يكون مقصودًا بالحكم .

أما التقرير والتوكيد فيحصلان تبعا وضمنا ، وزيادة على الغرض الأصلى من البدل . بخلاف التوكيد فإن الغرض هو نفس التقرير والتوكيد.

والفرق بين البدل والصفة . أن البدل يدل على الايضاح فى جميع صوره ، وربما اشتمل بالاضافة إلى ذلك على معنى آخر كالمدح مثلا . كما فى قوله تعالى : ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام﴾ .

بخلاف الصفة ، فإنها تدل على معنى فى المتبوع ، وقد تدل على الايضاح فى بعض صورها ، ولكنها لا تدل على الايضاح فى جميع الصور .

والبدل على نية تكرار العامل ، فهو فى تقدير جملتين .

والصفة ليس فيها نية التكرار ، بل هى تابعة لما تشمله الجملة الواحدة .

وأمثلة البدل المطابق تصلح لأن تكون عطف بيان ، فكلاهما وضع ليبين ويوضح متبوعه .

ولكن ثمة فرق بين البدل وعطف البيان.

الفرق أن البدل هو المقصود بالحكم ، والمتبوع ليس مقصودا على الاطلاق.

بخلاف عطف البيان ، فإنه جاء لمجرد البيان لما قبله ، فالمتبوع إذا هو المقصود ، أما التابع فليس مقصودا .

ونحب أن ننبه إلى أن البدل ، وإن كان هو المقصود بالحكم ، إلا أن المبدل منه ليس عاريا عن الفائدة أيضا ، وفى ذلك صونا لكلام العرب عن اللغو ، وكلام الله ونبيه عن العبث . فالمبدل منه يشتمل على الفائدة حتى فى البدل المطابق .

قالوا إنّ الفائدة فى ذكر البدل والمبدل منه معا « أحد ثلاثة أشياء »:

إما كون الأول أشهر والثاني متصفا بصفة نحو مررت بزيد رجل صالح .

أو كون أولهما متصفا بصفة ، والثانى أشهر نحو مررت بالعالم زيد .

وبرجل صالحٍ زيد.

وقد يكون الثانى لمجرد التفسير بعد الابهام ، مع أنه ليست فى الأول فائدة ليست فى الثانى ، وذلك لأن للابهام أولا ، ثم التفسير ثانيا ، وقعا وتأثيرا ليس للاتيان بالمفسر أولا ، وذلك نحو : مررت برجل زيد.

فإن الفائدة الحاصلة من رجل تحصل من زيد مع زيادة التعريف ، لكن الغرض ما ذكرنا ، ولا يجوز العكس نحو مررت بزيْد رجل ، إذ لا فائدة فى الابهام بعد التفسير [1].

أما عطف النسق فسوف نرجئ الحديث عنه إلى حين ، فمكانه ليس هنا ، وإنما محله الفصل والوصل .

---

(١) شرح الكافية ٣٣٧/١، ٣٣٨

# العطـف

## الفصل والوصل

**الفصل والوصل :**

فى مواضع من الكتاب يتحدث سيبويه عن الفصل والوصل كما نعرفه بصفة عامة، أو شبه كمال الاتصال كما نعرفه بصفة خاصة. وطبيعى أن سيبويه لم يذكر هذا المصطلح البلاغي في عمومه أو خصوصه ، فذلك شيء لم يعهد فى زمنه ، وإنما عرف فيما بعد على يد الفراء ، ولكن الذي ذكره سيبويه هو ما يفيد شبه كمال الاتصال ، وإن لم يصرح باسمه ، يقول :

" أما بدل المعرفة من النكرة فقولك مررت برجل عبدالله كأنه قيل له بمن مررت ؟ ، أو يظن أنه يقال له ذلك فأبدل مكانه من هو أعرف منه ".

وقد يكون مررت بعبد الله أخوك ، كأنه قيل له من هو أو من عبدالله؟ فقال أخوك ، وتقول مررت برجل الأسد شدة ، كأنك قلت مررت برجل كامل ؛ لأنك أردت أن ترفع شأنه ، وإن شئت استأنفت كأنه قيل له ما هو (1) ويتحدث عن هذا الأسلوب أيضاً فى تقدير السؤال والإجابة عنه يقول : « وأما قولهم نعم الرجل عبدالله، كأنه قال نعم الرجل فقيل له من هو؟ فقال عبدالله ، وإذا قال عبدالله فكأنه قيل له ما شأنه فقال نعم الرجل »(2) ونلاحظ هنا أن سيبويه ضمن الجملة الأولى سؤالاً ، واعتبر الجملة الثانية جواباً لهذا السؤال المقدر ؛ بل نلاحظ أنه نص أيضاً على أن الجملة الثانية استئناف ، والذى نعرفه من كتب المتأخرين أن هذا من

(1) الكتاب ١/٢٢٥ ، ٢٢٦

(2) الكتاب ١/٣٠٠

مواضع الفصل ؛ لأن الجملة الثانية فصلت عن الأولى كما يفصل الجواب عن السؤال ، ويسمون هذا النوع شبه كمال اتصال ، أو يسمونه استئنافاً .

وقد تناول سيبويه مسألة على جانب من الأهمية ، ولا ندرى لماذا لم تستقر في كتب البلاغيين المتأخرين ، وتأخذ حظها من الشيوع والانتشار كغيرها من الألوان البلاغية التى ذكرها سيبويه ونقلها عنه العلماء وضمنوها أبحاثهم حتى صارت مادة فى كتب البلاغة ، وأعني بذلك ما يعبر عنها البلاغيون بكمال الانقطاع بين الجملتين إذا اختلفتا خبراً وإنشاءً لما بين الخبر والإنشاء من التباين . و» ولكن أبا حيان ينقل عن سيبويه جواز عطف الجملتين المختلفتين بالاستفهام والخبر مثل هذا زيد ومن عمرو؟، وقد تكلموا على ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾(١) ، وحاصله أن أهل هذا الفن متفقون على منعه ، وظاهر كلام النحاة جوازه ، ويعقب السبكي على ذلك بقوله ، ولا خلاف بين الفريقين ؛ لأنه عند من جوزه يجوز لغة ولا يجوز بلاغة(٢) ، ولا ندري لماذا لم يأخذ البلاغيون بجواز عطف الإنشاء على الخبر أو العكس ، وإن وجدوا شيئاً من ذلك أولوه وقدروا عطف خبر على خبر أو إنشاء على إنشاء(٣) ، ولماذا لم يكن شأن البلاغيين شأن النحاة في قبول هذا الرأى ، ولو كان البلاغيون رفضوا هذا النوع لأنهم لم يجدوا إلا أمثلة من صنع النحاة لالتمسنا لهم العذر فى هذا الرفض ، ولكن القرآن شاهد بهذه الآية على وجود هذه الصورة ولا نقتنع بقول السبكي إن هذا يجوز لغة ، ولا يجوز بلاغة . أفلا نعتقد بأن القرآن قد بلغ الكمال فى الفصاحة والبلاغة ، وأن العرب رغم فصاحتهم قد عجزوا عن مجاراته، فكيف إذن ينفى السبكي عنها البلاغة لمجرد أنها خالفت القاعدة المشهورة عند البلاغيين بعدم صحة الوصل بين الإنشائية والخبرية؟ والبلاغيون قد استمدوا قواعدهم البلاغية فى الدرجة الأولى من اعتمادهم على القرآن الكريم.

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٢١

(٢) عروس الأفراح ٢/٢٧

(٣) انظر السيالكوتي على المطول ٢٠ ، ٢١

وأود أن ألفت النظر إلى أن الفصل والوصل ليس مقصوراً على الجمل ، بل يكون بين المفردات أيضاً وأشير أولاً إلى ذلك بأن عبد القاهر حين عرض للفصل والوصل في الجمل جعل الحديث عن المفردات وفائدة العطف بينها مدخلاً للحديث عن الجمل ثم ركز على الجمل وحدها لأن الإشكال يقع فيها دون المفردات ، بل إن الإشكال لا يعم عطف الجملة على الجملة في كل المواضع، فقط في الجملة التى لا محل لها من الإعراب ، أما العطف على الجملة التى لها محل من الإعراب ، فإن حكمها حكم المفرد والأمر فيها يسهل كما يسهل في المفردات ، ولم يفهم من كلام عبد القاهر تصريحاً أو تلويحاً ما يدل على نفي الفصل أو الوصل بين المفردات(١) ثم نجد السكاكي يصرح بأن الفصل والوصل بين الجمل هو الأصل في هذا الفن(٢)، فهو لم يحصره في الجمل ، بل اعتبره الأصل فى الجمل مما يدل على عدم حصرها في الجمل أيضاً . ومن ثم فإننا نعد تعريف الخطيب القزويني للفصل والوصل بأن « الوصل عطف الجمل على بعض والفصل تركه »(٣) فيه شيء من القصور وعدم النفاذ إلى مراد السكاكي ، على أننا لا نأخذ بالاستنتاج وحده فذلك لا يكفى في هذا المجال، لأننا نجد نصاً صريحاً لا يرقى إليه الشك بأن الفصل والوصل في المفردات شأنه في الجمل لا يعرى من البلاغة وليس بمعزل عنها حين نقرأ تعقيب العصام صاحب الأطول على عبارة التفتازاني صاحب المطول وشارح التلخيص.

حيث قال : "تمييز موضع العطف عن غيره موضعه في الجمل هو الأصل فى هذا الفن .. واحفظها في المفردات أيضاً لئلا يكون بمعزل عن البلاغة" .

وقد وافقني في ذلك السيد السند حيث تكلم في وجه الفصل والوصل بين المفردات في خطبة شرح المطالع(٤)، وما لنا نذهب إلى الأطول ونكلف أنفسنا عناء البحث والأخذ بقول العصام ، وبين أيدينا شروح التلخيص فنجد في حاشية

---

(١) انظر الدلائل ١٧١

(٢) المفتاح ١٢٠

(٣) شروح التلخيص ٣/٣

(٤) الأطول ٢/٢ المطبعة السلطانية : العصام.

الدسوقي أن العطف يكون بين الجملتين كما يكون بين المفردين ، ولكي يكون هذا وذاك مقبولاً في باب البلاغة لابد فيه من وجود الجامع ويذكر مثالين في عطف المفردات أحدهما بليغ يتفق مع قواعد البلاغة، والآخر فاسد لأنه خارج عن قواعد البلاغة فيجيز العطف في المثال الأول ويمنعه في المثال الثاني(1).

فتعريف الخطيب – إذن – للفصل والوصل ، وحصره بين الجمل ليس دقيقاً ، ويفتقر إلى شيء من التعديد حتى يضم في رحابه المفردات أيضاً .

بل ينبغي أن يكون تعريف الوصل : عطف بعض الكلام على بعض والفصل تركه.

ويمكن القول بعد البحث الدقيق إننا استطعنا أن نعثر في معاني القرآن للفراء على شواهد وتعقيبات تؤكد أن الفراء قد تناول الفصل والوصل ونص على ذلك في أكثر من موضع بل إن بعض الآيات القرآنية التى لاحظ أنها تأتي مرة على سبيل الإتصال ، وأخرى على سبيل الانفصال نلحظ أنها قد دارت على ألسنة البلاغيين وفي كتبهم مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ (2)وفى سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾(3) فكلمة يذبحون جاءت مرة بالواو ومتصلة بما قبلها ، وأخرى بدون الواو ومنفصلة عما قبلها . ويفسر لنا الفراء الفرق بين الأسلوبين ، أسلوب الفصل وأسلوب الوصل فى حديث صريح واضح لا لبس فيه ولا خفاء حين يقول : « فمعنى الواو أنه يمسهم العذاب غير التذبيح كأنه قال : يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح . ومعنى طرح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب، وإذا كان الخبر من العذاب أوالثواب مجملاً في كلمة ثم فسرته فاجعله بغير الواو ، وإذا كان أوله غير آخره فبالواو.

---

(1) شروح التلخيص ٨/٢

(2) سورة إبراهيم الآية : ٦

(3) سورة البقرة الآية : ٤٩

ويقول فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ فالأثام فيه نية العذاب قليله وكثيره ، ثم فسره بغير الواو فقال : ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (١) .

ومعنى هذا كما يقول الفراء نفسه أن الواو تطرح إذا كانت الجملة الثانية بياناً للأولى ، أو ما نسميه كمال الاتصال ؛ فالذبح توضيح للعذاب وتفسير له ولا يقع حرف العطف بين التفسير والمفسر. أما إذا كان المراد بالكلام الثانى غير الأول فيثبت الوصل ، وتذكر الواو باعتبار أن الذبح شيء غير سوم العذاب ، ومن هذا التفسير البارع لحديث الفراء عن الفصل والوصل استقى المتأخرون حديثهم وأداروا هذه الآية كشاهد فى هذا الباب ولا يكاد يخلو منها كتاب من كتب المتأخرين .

وربما يقال إنه فى تفسيره للآية على هذين الوجهين لم ينص صراحة على ذكر الفصل والوصل ، وإنما كانت ملاحظة عابرة لم يطبق عليها الفراء هذا المصطلح البلاغي ، ولكنا نقول إن هذا ليس هو الموضوع الوحيد الذي تناول فيه الفراء الفصل أو الوصل ، بل في موضع آخر من كتابه نص على هذا المصطلح .

وفى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(٢) يقول عندما لاحظ إسقاط الفاء من (قال أعوذ بالله) وهذا فى القرآن كثير بغير الفاء ، وذلك لأنه جواب يستغنى أوله عن آخره بالوقفة عليه ، فيقال ماذا قال لك؟ فيقول القائل : قال كذا وكذا فكأن حسن السكون يجوز به طرح الفاء . وأنت تراه فى رؤوس الآيات - لأنها فصول : يعنى فواصل -حسناً ،ومن ذلك ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾(٣) وقوله حكاية عن فرعون ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾(٤) وغير ذلك فيما لا أحصيه(٥)، فالفراء فى هذه

(١) معانى القرآن ٢/٦٨ ، ٦٩ من سورة الفرقان
(٢) سورة البقرة الآية : ٦٧
(٣) سورة الذاريات الآيتان : ٣١ - ٣٢
(٤) سورة الشعراء الآيتان : ٢٥ - ٢٦
(٥) معانى القرآن ٤٤/١

الآيات ينص على التسمية بأن رؤوس الآيات إذا جاءت منفصلة عما قبلها فهي فواصل ، كما إذا كانت واقعة فى جواب لسؤال مقدر تنفصل الآية عما قبلها كما يفصل الجواب عن السؤال وهذا ما يسميه المتأخرون بشبه كمال الاتصال ، وفى آخر تفسيره لهذه الآية يضع قاعدة للفصل نلاحظها إذا أردنا أن نلجأ إلى هذا الأسلوب عندما يقول : «فاعرف بما جرى تفسير ما بقى ، فإنه لا يأتى على الذي أنبأتك به من الفصول ، أو الكلام المكتفي يأتى له بجواب :» .

ويتناول المبرد الفصل والوصل فيقول : فإذا قلت : مررت بزيد عمرو فى الدار، فهو محال إلا على قطع خبر واستئناف آخر. فإن جعلته كلاماً واحداً قلت : مررت بزيد وعمرو فى الدار[1] . وواضح من كلام المبرد أنه يتحدث عن كمال الانقطاع ، وعن التوسط بين الكمالين ، كما سمى عند المتأخرين من البلاغيين ، فقوله : «مررت بزيد عمرو في الدار» فإذا كان بين المرور بزيد وبين وجود عمرو في الدار صلة ما، فلابد من ذكر الواو ، للربط بين الجملتين حتى يبدو الكلام متصلاً بعضه ببعض ، وبغير ذكر الواو يبدو الكلام مستحيلاً ، ولا معنى له ، وذكر الواو فى مثل هذا المقام هو ما سمي بالتوسط بين الكمالين عند البلاغيين . أما إذا لم يكن ثمة صلة على الإطلاق بين مرور زيد، وبين وجود عمرو في الدار ، وإنما قال القائل مررت بزيد ، ثم قطع الكلام، واستأنف كلاماً جديداً فلابد من حذف الواو ، لعدم الصلة بين الجملتين وهذا ما يسمى فى عرف البلاغيين بكمال الانقطاع.

ويبدو أن ذكر الواو وحذفها كان من الدقة بحيث يستعصى على أفهام الكبار من العلماء مثل أبى إسحق الزجاج والمبرد. فالحريرى فى درة الغواص يقول : «ومما ينتظم في اقتحام الواو ما حكاه أبو إسحق الزجاج رحمه الله قال « سألت المبرد عن العلة في ظهور الواو فى قولنا « سبحانك اللهم وبحمدك» فقال لى لقد سألت أبا عثمان المازني عما سألتني عنه فقال : المعنى سبحانك اللهم وبحمدك

(١) المقتضب ١٢٥/٤

سبحتك»[1] فالزجاج يسأل المبرد عن العلة فى ظهور الواو لأنه - على فضل علمه- لا يجد لهذه الواو معنى فى الكلام ، والمبرد يستعصى عليه الفهم فيبادر إلى الاستفهام عن ذلك مستعيناً بأستاذه المازني ، والمازني يجيب بما يعتبره الحريرى إقحاماً للواو ، وأن الكلام ليس فى حاجة إليها ، وأنها لو حذفت لبقى الكلام على معناه دون تغيير ، ونستنبط من ذلك أن الوصل أحياناً لا يتأتى لعلة بلاغية ، وإن كانت هذه العلة البلاغية تتوافر في كثير من الأحيان[2] ، كما نستنبط جواز عطف الخبر على الإنشاء .

وعبد القاهر يسوق لنا فصولاً جمة فى كتابه الدلائل تعتمد كلها على النحو ، بل نرى بعض الفصول يعتمد كلية لا على النحو بمعناه الشامل الثرى ، بل بمعنى الإعراب أيضاً :

فالفصل والوصل يرتكز على أساس كون الجملة الأولى لها محل من الإعراب أو ليس لها محل من الإعراب[3] وجميع صور الفصل والوصل من كمال انقطاع وشبهه وكمال اتصال وشبهه ، وتوسط بين الكمالين ، تدخل فى هذا النطاق النحوي، وقد عقد عبد القاهر فصلاً كاملاً لتأكيد هذه العلاقة النحوية في الفصل والوصل يستهله بقوله : [4] «وإذ قد عرفت هذه الأصول والقوانين في شأن فصل الجمل ووصلها فاعلم أنا حصلنا من ذلك على أن الجمل على ثلاثة أضرب :

جملة حالها مع التى قبلها حالة الصفة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكد ، فلا يكون فيها العطف البتة ، لشبه العطف فيها لو عطفت ، بعطفه الشيء على نفسه.

وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله إلا أنه يشاركه

---

(١) درة الغواص في أوهام الخواص ٢٤ ، ٢٥ الحريري
(٢) انظر ص٩٧ من أثر النحاة فى البحث البلاغي للمؤلف
(٣) الدلائل ١٧١
(٤) الدلائل ١٨٧

في حكم ويدخل معه في معنى ، مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلاً، أو مفعولاً ، أو مضافاً إليه ، فيكون حقها العطف .

وجملة ليست في شيء من الحالين ، بل سبيلها مع التى قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه فى شيء ، فلا يكون إياه ، ولا مشاركاً له فى معنى بل هو شيء إن ذكر لم يذكر إلا بأمر ينفرد به، ويكون ذكر الذي قبله وترك الذكر سواء في حاله لعدم التعلق بينه وبينه رأساً ، وحق هذا ترك العطف البتة.

فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية ، أو الانفصال إلى الغاية .

والعطف لما هو واسطة بين الأمرين ، وكان له حال بين حالين» ا. هـ .

ولاشك أن هذا الباب كله من أوله إلى آخره يؤكد العلاقة بين النحو والنظم ، ولذلك يجب مراعاة الفصل والوصل في الكلام ، فإذا وضع أحدهما موضع الآخر ، فسد النظم ، وانحرف المعنى .

يقول صاحب الطراز : .

الفصل والوصل دقيق المجرى ، لطيف المغزى ، جليل المقدار ، كثير الفوائد، غزير الأسرار ، وقاعدته العظمى حروف العطف ، ولسنا نريد بتلك الأسرار واللطائف ما يتعلق بالإعراب والنحو ، بل نريد أمراً أخص من ذلك، وأغوص على تحصيل الأسرار الغريبة واللطائف العجيبة فى كتاب الله تعالى[1].

والعطف نوعان :

**عطف مفرد على مفرد .**

**وعطف جملة على جملة .**

**أما عطف المفرد على المفرد** : فلا يجوز أن تعطف الصفة على موصوف فلا يصح مثلاً أن تقول في قولك (مررت بمحمد الكريم) مررت بمحمد والكريم؛ لأن

---

(١) الطراز ٢/٣٢

الصفة تجري مجرى الموصوف فمحمد هو الكريم ، والكريم هو محمد؛ ولا يصح عطف الشيء على نفسه .

أما الصفات إذا تكررت فيجوز أن تعطف بعضها على بعض ، والعطف ليس واجباً وليس ممتنعاً ، ولكن يجوز أن تعطف ، ويجوز ألا تعطف .

ويمكن أن تقول (مررت بمحمد الكريم والعاقل والفاضل) بعطف صفة على أخرى كأنك قلت مررت بشخص اجتمع فيه الكرم والعقل والفضل ، وعندئذ تكون قد لاحظت معانى اجتمعت في الموصوف وهو محمد .

ويمكن أن تقول (مررت بمحمد الكريم العاقل الفاضل) بدون عطف وعندئذ تكون قد لاحظت أن هذه الصفات هي ذات الموصوف بعينه وتدل عليه. ولا يصح عطف الشيء على نفسه .

والقرآن الكريم جاءت فيه المفردات مرة بدون عطف وأخرى مع العطف .

فقوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾(١).

هذه تسعة أوصاف جاء بعضها إثر بعض دون أن يكون بينها حرف العطف ؛ لأن كل صفة لا تتنافى مع الصفة التى قبلها ، بل تجتمع معها وتشد أزرها حتى تعطى فى النهاية صورة قبيحة مذمومة للموصوف وهو الوليد بن المغيرة على أرجح الأقوال ، فترابط هذه الصفات بعضها مع بعض لتكوين هذه الصورة المنفرة واعتبار أن هذه الصفات هي ذات الموصوف هو الذي سوغ طرح الواو بينها.

أما قوله تعالى : ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾(٢) . فهذه الأوصاف هى لموصوف واحد وهم المؤمنون ، وعطفت بالواو ولم تتبع دون عطف ، كل صفة بعد صفة ، وادعاء أنها ليست فى معنى واحد ، فكان

---

(١) سورة القلم الآيات : ١٠ - ١٣

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٧

تغاير الصفات وتباينها بمنزلة تغاير الأشخاص ، ومن ثم حسن العطف حتى تشترك هذه الصفات فى إبراز حقيقة الموصوفين .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(١) ، أى آتيناه ثلاثة أشياء : الفرقان والضياء والذكر ، فالواو هنا عاطفة جمعت بين ثلاثة أشياء كل مها مختلف عن الآخر فحسن العطف ، وإن كانت تفيد مشاركة الثانى للأول في الإعراب ليتصل الكلام بعضه ببعض .

ومن عطف المفردات قوله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ (٢).

قدم بعض هذه الأشياء على بعض تنبيهاً على أن ما تقدم منها يكون أحق من غيره وأشمل في الجمال والمنفعة . وجاء بحرف العطف لأن كل واحد منها يستقل عن الآخر ويتمايز عنه .

فإذا كانت الصفات متفقة غير متباينة اجتمعت دون عطف .

وإذا كانت الصفات مختلفة متباينة ، جاءت بحرف العطف .

ونضرب بعض الأمثلة الأخرى من القرآن الكريم ليكون الأمر أكثر وضوحاً .

قال تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾(٣).

فالصفات هنا تكررت للمدح وليس بينها تباين أو تغاير، فجاءت بدون عطف، ولكن الأمر بالمعروف ضد النهي عن المنكر ، إذ الأمر طلب فعل ، والنهى طلب ترك الفعل . فحسن العطف فى قوله :

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٤٨

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٤

(٣) سورة التوبة الآية : ١١٢

﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .

ومن ذلك أيضاً قوله : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾(١) فهذه الصفات لا تتناقض ، بل يكمل بعضها بعضاً فذكرت بغير الواو. وأما الثيوبة والبكارة فلا يجتمعان : فلذلك عطف أحدهما على الآخر ، ولو لم يأت بالواو لاختل المعنى، وأصبحت الثيوبة والبكارة بمعنى واحد، وهما مختلفان ، بل متضادان.

**الفصل والوصل فى الجمل :**

**الوصل : عطف جملة على جملة بالواو.**

**والفصل : ترك هذا العطف.**

يقول : عبد القاهر الجرجانى(٢): معرفة ما ينبغى أن يصنع في الجمل من الفصل والوصل من أسرار البلاغة ، ومما لا يأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص ، وهم قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فناً من المعرفة فى ذوق الكلام تفردوا بها ، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : «معرفة الفصل عن الوصل» ذاك لغموضه ، ودقة مسلكه، ومن أحرز الفضيلة فيه فقد أحرزها فى سائر معانى البلاغة».

**والجمل على ثلاثة أضرب:**

**الضرب الأول** : أن تكون الجملة الثانية ممتزجة شديدة الاتصال بالجملة التي قبلها : كأنهما أفرغا فى قالب واحد: بأن تقع صفة لها أو بياناً أو توكيداً أو بدلاً ، فلا يصح عندئذ العطف (الوصل) وذلك لتنزيلها مع ما قبلها منزلة الشىء الواحد ، والشيء لا يجوز عطفه على نفسه. وهذا ما يسمى بكمال الاتصال .

**الضرب الثانى** : أن تكون الجملة الثانية شديدة الانقطاع منفصلة عن التى

---

(١) سورة التحريم الآية : ٥

(٢) الدلائل ١٧٠

قبلها وليست بينهما مشاركة، فيتعين حينئذ الفصل بين الجملتين ؛ إذ لا رابطة تربط بينهما . وذلك كالجملة الخبرية مع الإنشائية أو العكس ، أو تأتى بجملة ثانية لا ترتبط في معناها بالجملة الأولى ، وهذا ما يسمى بكمال الانقطاع .

**الضرب الثالث :** أن تكون الجملة الثانية مشاركة للجملة الأولى وتجمع بينهما رابطة ، فالجملة الثانية ليست شديدة الاتصال ، ولا شديدة الانقطاع بالجملة الأولى وإنما هي تقع بين الاتصال والانفصال ، وهذا ما يسمى بالتوسط بين الكمالين ولابد فيه من العطف الذي يفيد المشاركة.

فمثال ما جاء من الضرب الأول وكانت الجملة الثانية فيه شديدة الاتصال والامتزاج بالجملة الأولى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(١).

جاءت جملة ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ بدون حرف العطف ؛ لأنها موضحة للجملة التى قبلها ، فكل ما كان من القرآن فهو صادق لا ريب فيه ولا شك.

وجاءت جملة ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ بدون حرف العطف أيضاً ؛ لأنها موضحة للجملة التى قبلها ، فكل ما لا يرتاب فى حاله، ولا يتردد في شأنه يشتمل على الهداية والصلاح لأهل التقوى ، فكانت ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ موضحة للجملة قبلها.

وقوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾(٢).

فأتى بقوله ﴿ قَالَ يَا آدَمُ ﴾ بدون الواو لأن هذا القول يوضح الوسوسة ويكشف فحواها ويشرح تفاصيلها. ولو أنه ذكر الواو ، لتغير المعنى تماماً وكان القول شيئاً ، والوسوسة شيئاً آخر.

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢

(٢) سورة طه الآية : ١٢٠

(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٣٢ - ١٣٤

فـالجـملة الثـانيـة بدل من الأولى ، فـالذى أمـدهـم به من أنعـام وبنيـن وجنات وعيون هو ما أمدهم به الله سبحانه وتعالى، ففصل بين الجملتين ولم يربط بينهما بحرف العطف ، إيذانًا بشدة الاتصال وعدم التباين بينهما :

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(١).

فالاتباع الثاني موضح ومبين للاتباع الأول.

وهكذا القول في كل جملة أتت عقب أخرى على البيان والإبدال منها ، فإنها تأتى من غير واو لما ذكرنا .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

فمن كانت حاله إذا أنذر تستوي بحاله إذا لم ينذر كان فى غاية الجهل والعمى مختوماً على قلبه وسمعه ، مغشى على بصره، فلما جاءت جملة ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ توكيداً للجملة السابقة عنها وتقريراً ، كانت شديدة الاتصال بها ، فلا تحتاج لحرف العطف ليربط بينهما .

والله يقول فى شأن المنافقين : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(٣).

فهم يظهرون الإيمان إذا التقوا بالمؤمنين ، وإذا انفردوا بقادتهم ورؤسائهم من اليهود قالوا إنما نستهزىء بالمؤمنين ونسخر منهم ، والله يمهلهم ويملى لهم فى ضلالهم وكفرهم ، ولكنه سيجازيهم بالتحقير والعذاب على استهزائهم بالمؤمنين.

---

(١) سورة يسٓ الآيتان : ٢٠ - ٢١
(٢) سورة البقرة الآيتان : ٦ - ٧
(٣) سورة البقرة الآيتان : ١٤ - ١٥

فجملة ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ فصلت عن جملة ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ ولم يربط بينهما حرف عطف ؛ لأن الجملتين بمعنى واحد والثانية مؤكدة للأولى : إنا معكم لن نترك دين اليهودية ولن نعتنق دين محمد، وإنما نحن نسخر منه ومن أنصاره ، فلما قالوا ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ كأنهم كرروا باللفظ ما أرادوه من معنى فى الجملة السابقة، وعبروا بألسنتهم ما أخفوه فى قلوبهم.

وقوله تعالى : ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(١) كونه ملكاً ينفي كونه بشراً ، فكانت الجملة الثانية واردة مورد التوكيد من الجملة الأولى فجاءت من غير عطف.

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٢).

كان النضر بن الحارث يصد الناس عن الإسلام ويعميهم عن الحق ويحثهم على ترك سماع القرآن ، ويرغمهم على الاستماع لأحاديثه عن الأكاسرة والأعاجم ، فإذا استمع إلى القرآن لم يتغير حاله ولم يتبدل شأنه فكانت حاله بعد السماع كحاله قبل السماع ، فإذا قال الله ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ كانت هذه الجملة مؤكدة لمعنى الجملة السابقة، ومن لم يسمع كان بمثابة من فى أذنيه صمم يمنعه من السماع ، فإذا قال له عز وجل : ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ كانت تأكيداً للجملة قبلها. ومن ثم جاءت الجملتان بدون عاطف يربط بينهما لشدة الاتصال والامتزاج بين الجملة وما قبلها.

ومما يأتى مجرداً عن حرف العطف ما يكون إجابة عن سؤال تضمنته الجملة الأولى ، ويسمى شبه كمال اتصال كقوله تعالى :

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة يوسف الآية : ٣١

(٢) سورة لقمان الآية : ٧

(٣) سورة الذاريات الآية : ٣٧

كأن قائلاً قال : فما قال لهم لما قربه؟ قال : ألا تأكلون.

وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ ﴾(١).

كأن قائلا قال : فما قالوه حين رأوا لونه قد تغير وداخله الخوف؟ قالوا لا تخف.

وما جاء من ذلك فى غاية الوضوح قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾(٢).

فلا يخفى على عاقل أنه جاء على معنى الجواب ، وأن ينزل السامعون كأنهم قالوا : فما قال له الملائكة؟ فقيل : ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا ﴾(٣).

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾(٤).

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾(٥).

﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا ﴾(٦).

ومما جاء على تقدير السؤال والجواب فى القرآن الكريم قصة إبليس والحوار الذي دار بينه وبين الله وانتهى بطرده من الجنة فى سورة الأعراف.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ

---

(١) سورة الذاريات الآية : ٢٨
(٢) سورة الذاريات الآيتان : ٣١ - ٣٢
(٣) سورة يوسف الآيتان : ١٦ - ١٧
(٤) سورة النحل الآية : ٢٤
(٥) سورة النحل الآية : ٣٠
(٦) سورة الأنبياء الآيتان : ٥٢ - ٥٣

يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(١).

جاء ذلك كله على تقدير السؤال والجواب كالذى جرت به العادة فيما بين المخلوقات، فلما امتنع إبليس عن السجود قيل له ما منعك ألا تسجد، فكان الجواب: أنا خير منه وبعد ذلك كأن سائلاً سأل فماذا قال الله؟ قال فاهبط منها ، وهكذا حتى نهاية هذه الآيات ، وعلى هذا يكون التقدير والتفسير أبدا فى كل ما جاء فيه لفظ (قال) هذا المجىء.

وكل واحد من هذه الأقوال مستأنف ظاهر ، وإن كان الذهن يلائم بينها .

**الضرب الثانى:**

أن تكون الجملة الثانية مستقلة عن الجملة الأولى منفصلة عنها ، ليس بينها وبين ما قبلها رابط، كأن يكون مضمون الجملتين متبايناً ، أو تكون إحداهما خبرية والأخرى إنشائية . وهذا الضرب يسميه البلاغيون كمال الانقطاع .

فقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾(٢).

فقد ذكر أولاً الكافرين وما اعتراهم من الخزى والهوان، وما يصلونه من النار والعذاب ، وذكر ثانياً المؤمنين وما آنسوه من الرقعة والتنعم ، وما غرقوا فيه من الجنة والامتاع . فبين المعنى الأول والمعنى الثانى تباين ومن ثم قال ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ دون أن يعطف على ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ لبيان التباين الكامل والانفصال التام بين مضمون الجملتين .

(١) سورة الأعراف الآيات : ١١ - ١٨

(٢) سورة الغاشية الآيات : ٢-١٠

ولما قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

فصل بين قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وبين قوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لكمال الانقطاع بين الجملتين ؛ إذ الأولى إنشائية ، والثانية خبرية فلا تناسب بينهما.

﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٢).

﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

* * *

قالوا إذا عطفت جملة خبرية على إنشائية ، أو إنشائية على خبرية ، تعين الفصل بينهما ، فلا تعطف إحداهما على الأخرى نظراً لاختلافهما ، وعدم التلاؤم بينهما . وليس الأمر كما قالوا ، بل نجد في القرآن الكريم ما يخالف ما ذهب إليه علماء البلاغة فقوله تعالى :

﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾(٤).

فعطف جملة خبرية ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ على جملة طلبية ﴿لا تَأْكُلُوا﴾ ولا يبالى بتخالفهما ، وهو مذهب سيبويه .

وقوله تعالى : ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾(٥).

فعطف جملة خبرية ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ على جملة إنشائية ﴿لا تَحْسَبَنَّ﴾ .

---

(١) سورة الحجرات الآية : ١
(٢) سورة الحجرات الآية : ٩
(٣) سوة الحجرات الآية : ١٢
(٤) سورة الأنعام الآية : ١٢١
(٥) سورة النور الآية : ٥٧

وأما قوله تعالى :

﴿لا يحلُّ لَكُمْ أن ترِثُوا النِّساءَ كرْهًا ولا تعْضُلُوهُنَّ﴾(١).

فقد عطف جملة طلبية ﴿ولا تعْضُلُوهُنَّ﴾ على جملة خبرية ﴿لا يحلُّ لكُمْ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ لئن لَّمْ تَنته لأَرْجُمنَّكَ واهْجُرْني مليًّا ﴾(٢).

عطف الجملة الإنشائية على الخبرية .

وقوله تعالى: ﴿ يا مُوسَىٰ إنَّهُ أنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وأَلْقِ عَصَاكَ ﴾(٣).

عطف ﴿وأَلْقِ عـصَاكَ﴾ وهى جـملة إنشـائيـة على ﴿إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ وهى جملة خبرية .

وقوله تعالى : ﴿ وقَدْ أضَلُّوا كثيرًا ولا تزِدِ الظَّالمينَ إلاَّ ضلالاً ﴾(٤).

فعطف جملة إنشائية ﴿ولا تزِد﴾ على جملة خبرية ﴿وقَدْ أضَلُّوا ﴾.

والأولى أن نأخذ بما ذهب إليه القرآن الكريم فى أساليبه البلاغية الراقية ، ولا نستجيب لتأويلات المشتغلين بعلوم البلاغة فنتبعهم خبط عشواء فى الأخذ بقواعدهم دون أن نضع أمام أبصارنا ما اشتملت عليه بعض الآيات القرآنية من عطف الإنشاء على الخبر والعكس .

**الضرب الثالث** ، أن تكون الجملة الثانية مشاركة للجملة الأولى ، وتربط بينهما رابطة . فتعطف الثانية على الأولى نظراً للتلاؤم بينهما ، وهذا ما يسميه البلاغيون التوسط بين الكمالين .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ ربِّي وأنصحُ لَكُمْ﴾(٥).

---

(١) سورة النساء الآية : ١٩

(٢) سورة مريم الآية : ٤٦

(٣) سورة النمل الآيتان : ٩ - ١٠

(٤) سورة نوح الآية : ٢٤

(٥) سورة الأعراف الآية : ٦٢

فعطف جملة خبرية على جملة خبرية، وكلاهما فعل مضارع.

﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾(١).

عطف جملة خبرية على جملة خبرية ، وكلاهما ماض.

﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾(٢).

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾(٣).

فاتصال الجملة الثانية بالجملة الأولى اتصالاً معنوياً ، وهم أنهم عجبوا من مجيء المنذر ، وقالوا هذا المنذر ساحر كذاب.

ويجوز عطف الجملة الاسمية على الفعلية كما فى قوله تعالى .

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾(٤).

ويجوز أيضاً عطف الجملة الفعلية على الاسم كقوله تعالى :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾(٥).

أي اللاتي يصففن ويقبضن ، فالاسم هنا فيه معنى الفعل.

ومنه : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾(٦).

ومما سلك هذا السبيل قوله تعالى : ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ ﴾(٧).

عطف هنا الفعل على الاسم لما كان المعنى : فاللاتى أغرن صبحاً فأثرن ، ومثل هذا العطف فصيح .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٩٣

(٢) سورة التوبة الآية : ٨٤

(٣) سورة ص الآية : ٤

(٤) سورة الأنعام الآية : ٩٥

(٥) سورة الملك الآية : ١٩

(٦) سورة الحديد الآية : ١٨

(٧) سورة العاديات الآيتان : ٣-٤

وإن كـانت هذه الآية لا تدخل مـعنا فى أسلوب الوصل ؛ لأنه قـاصـر على العطف بالواو ولا تدخل فيه الفاء.

ويجوز عطف المضارع على الماضى حين لا يلحظ اتحاد الزمان كقوله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾(١).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾(٢).

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾(٣).

كما يجوز عطف الماضي على المضارع يقول تعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾(٤).

﴿ وَقُضِيَ ﴾ معطوف على قوله ﴿ يَأْتِيَهُمُ ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾(٥).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَـارِ وَيُولِجُ النَّهَـارَ فِي اللَّيْلِ وَسَـخَّـرَ الشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾(٦).

عطف الفعل الماضي ﴿ وَسَخَّرَ ﴾ على الفعل المضارع ﴿ يُولِجُ ﴾ ولم ينظر إلى اختلاف الزمان.

فـالقـول إذن بأن الحـسن في العطف لا يكون إلا بين جـملتـين مـتـمـاثلتـين فى الإسميـة أو الفعلية ، وفى نوع الاسم أو نوع الفعل لا دليل عليـه. والآيات التى سقناها تشهد بذلك.

زعم صاحب أنوار الربيع: «ومم يزيد الأصل حسناً توافقهما اسمية ، أو فعلية،

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٢

(٢) سورة الحج الآية : ٢٥

(٣) سورة الرعد الآية : ٣٨

(٤) سورة البقرة الآية : ٢١٠

(٥) سورة الأعراف الآية : ١٧٠

(٦) سورة لقمان الآية : ٢٩

ماضوية أو مضارعية ، فلا يخالف إلا لنكتة كالتجدد والثبات في نحو : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾(١).

أي استوى إحداثكم الدعوة لهم ، واستمرار صمتكم عنها "وإذا قبلنا منهم هذا التكلّف في التأويل فيما يتعلق بعطف الاسمية على الفعلية وعكسها ، فإننا ننتظر منهم جواباً شافياً فى صحة عطف الماضوية على المضارعية وعكسها ، وكيف ننفي الحسن عنها وقد وردت بغزارة في القرآن الكريم ولا حاجة بنا إلى هذا التكلف والتعسف في التأويل .

ومن عطف الجملة الإنشائية قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾(٢).

فعطف ﴿ وَكُلا مِنْهَا ﴾ على قوله ﴿ اسْكُنْ ﴾ وكلاهما أمر ، والأمر من أساليب الإنشاء : أى أجمعا بين الإقامة وفيها الأكل منها .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾(٣).

فعطف جملة إنشائية على مثلها بالواو ؛ لأن المراد اجمعوا بين السكنى والأكل.

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾(٤).

فعطف جملة ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ على جملة ﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﴾ وكلاهما إنشاء .

ومن ثم يتبين لنا .

أن الجملة إذا كانت شديدة الاتصال أو شديدة الانقطاع فصلت عن الجملة التي قبلها ، ولم يربط بينهما حرف العطف.

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٩٣

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٥

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٦١

(٤) سورة الحجرات الآية : ١

وأن الجملة إذا كانت مرتبطة بما قبلها مشاركة لها ، وصلت بالجملة التي قبلها بالواو.

وقد جاء في القرآن الكريم كثير من الآيات مفصولة عمّا قبلها حيناً ، موصولة بما قبلها حيناً آخر ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾(١)

﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ بدون واو ، بدون واو ، بياناً يسومونكم ، فكأن الذبح هو السوم لا غيره ، وفي ذلك نكتة : وهي أن هذا الخطاب من قبل الله عزّ وجلّ ، فلم يرد أن يعدّد المحن عليهم رأفة بهم .

وأما قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾(٢).

فقد عطف ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ بالواو على يسومونكم خلافاً لآية البقرة ؛ لأن الذبح هنا كان أوفى من العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة فكأنه شيء آخر غير العذاب ؛ ولأنه أيضاً من كلام موسى عليه السلام فعدّد المحن عليهم ؛ لأنه كان مأموراً بذلك تخويفاً لهم بقوله تعالى :

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾(٣).

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة الآية : ٤٩

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٦

(٣) سورة إبراهيم الآية : ٥

(٤) سورة النور الآيتان " ٣٤ - ٣٥

وقال أيضا : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١).

فى الآية الأولى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾.

وفى الآية الثانية : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾.

فذكر حرف العطف فى الآية الأولى ، دلالة على مشاركة هذه الآية لما قبلها فى الحكم ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾.

وأما الثانية فاستئناف كلام فخص بالحذف .

وقوله تعالى فى قصة شعيب .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾(٢).

وفى قصة صالح : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾(٣).

فى قصة شعيب ذكرت الواو عطفاً على ما قبلها ، وحذفت الواو من قصة صالح : لأنها بدل مما قبلها ، وخصّت هذه بالبدل ؛ لأن صالحاً قلّل في الخطاب فقللوا فى الجواب ، وأكثر شعيب في الخطاب فأكثروا في الجواب ، فحسن ذكر الواو هنا وحذفها من هناك. ويتضح ذلك من سياق الآيات السابقة في هاتين القصتين ، ذكرت في قصة شعيب بإطناب ، وذكرت في قصة صالح بإيجاز .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾(٤).

---

(١) سورة النور الآيتان : ٤٥ - ٤٦

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ١٨٥ - ١٨٦

(٣) سورة الشعراء الآيتان : ١٥٣ - ١٥٤

(٤) سورة ق الآيتان : ٢٢ - ٢٣

وقال أيضاً :

﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾(١).

ذكر فى الآية الأولى حرف العطف؛ لأن الكلام متصل بما قبله ومرتبط به.

ولم يذكر حرف العطف فى الآية الثانية ؛ لأن الكلام مستأنف وغير متصل بما قبله .

وقال تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ * وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾(٢).

وفى الآية التى بعدها : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾(٣).

ذكر الواو فى الأولى عطفاً على ما قبلها.

وحذف من الثانية ؛ لأنه استئناف غير متعلق بما قبله.

وأمثال هذا فى القرآن كثير . والله أعلم .

---

(١) سورة ق الآيتان : ٢٦ - ٢٧

(٢) سورة الحشر الآيتان : ٥- ٦

(٣) سورة الحشر الآية : ٧

# المراجع


١ - الاتقان فى علوم القرآن - السيوطى - ط٢ ١٣٥٤هـ.

٢ - أثر القرآن فى تطور البلاغة - د. كامل الخولى - دار الأنوار .

٣ - أثر النحاه فى البحث البلاغى - د. عبد القادر حسين - دار غريب

٤ - أدب الكاتب - ابن قتيبة - التجارية .

٥ - أساليب الاستفهام فى القرآن - عبد العليم فوده - المجلس الأعلى للفنون والآداب .

٦ - الأسس الجمالية فى النقد العربى - د. عز الدين إسماعيل - دار الفكر العربى.

٧ - أسس النقد الأدبى عند العرب - أحمد بدوى - نهضة مصر ط٢.

٨ - الأسلوب - الشايب - السعادة ط٥ .

٩ - الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز - عز الدين ابن عبد السلام - المكتبة العلمية المدينة المنورة .

١٠ - الأشباه والنظائر - السيوطى - حيدر أباد .

١١ - اصلاح المنطق - ابن السكيت - دار المعارف .

١٢ - أصول النقد الأدبى - الشايب - الاعتماد ط٣ .

١٣ - اعراب القرآن - الزجاج - المؤسسة المصرية ١٩٦٣.

١٤ - الأغانى - الأصفهانى - دار الكتب .

١٥ - ألوان - د. طه حسين - دار المعارف .

١٦ - الايضاح - القزوينى - ط محيى الدين .

١٧ - البرهان فى علوم القرآن الزركشى - عيسى الحلبى .

١٨ - البلاغة تطور وتاريخ - د. شوقى ضيف - دار المعارف .

١٩ - البلاغة العالية - عبد المتعال الصعيدى - السلفية .

٢٠ - البلاغة الواضحة - الجارم - دار المعارف ط١٥ .

٢١ - البيان العربى - د. طبانه - الانجلو ١٩٥٦ .

٢٢ - البيان والتبيين - الجاحظ - دار المعارف .
٢٣ - تاريخ النقد الأدبى عند العرب - طه إبراهيم - بيروت .
٢٤ - تاريخ النقد العربى - د. زغلول سلام - دار المعارف .
٢٥ - تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة - عيسى الحلبى .
٢٦ - التبيان فى علم البيان - ابن الزملكان - بغداد .
٢٧ - تحت شمس الحكيم - النموذجية .
٢٨ - التحرير والتحبير - ابن أبى الأصبع المصرى - المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
٢٩ - التسهيل - ابن مالك - وزارة الثقافة .
٣٠ - التعادلية - الحكيم - النموذجية .
٣١ - توفيق الحكيم الفنان - الحكيم - دار الكتاب الجديد .
٣٢ - الجامع الكبير - ابن الأثير - المجمع العلمى العراقى .
٣٣ - جمهرة أشعار العرب - القرشى - نهضة مصر .
٣٤ - جواهر البلاغة - الهاشمى - بيروت ط١٢ .
٣٥ - الحيوان - الجاحظ - مصطفى الحلبى ١٩٤٧ .
٣٦ - خزانة الأدب - البغدادى - دار الكتاب العربى .
٣٧ - الخصائص - ابن جنى - دار الكتب .
٣٨ - دراسات لأسلوب القرآن الكريم - عضيمة - السعادة .
٣٩ - دراسات فى نقد الأدب العربى - د. طبانه - الأنجلو ط٤ .
٤٠ - دلائل الاعجاز - عبد القاهر الجرجانى - المنار ط٥ .
٤١ - دفاع عن البلاغة - الزيات - عالم الكتب ط٢ .
٤٢ - سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجى - صبيح ١٩٥٣ .
٤٣ - شرح التلخيص - القزوينى (شرح محمد هاشم دويدرى) - ط دمشق .
٤٤ - شرح الكافية - الرضى - استانبول .
٤٥ - شرح المختصر - التفتازانى - التجارية .

٤٦ – شروح التلخيص – القزوينى وغيره – عيسى الحلبى .
٤٧ – الشعر والشعراء – ابن قتيبة – دار المعارف .
٤٨ – الصاحبى – ابن فارس – المؤيد ١٩١٠ .
٤٩ – الصناعتين – العسكرى – عيسى الحلبى .
٥٠ – الصور البيانية – د. حفنى شرف – نهضة مصر .
٥١ – صور من تطور البيان العربى – د. كامل الخولى – دار الأنوار .
٥٢ – الطراز – العلوى – المقتطف ١٩٣٤ .
٥٣ – عروس الأفراح – السبكى – عيسى الحلبى .
٥٤ – علم المعانى – د. درويش الجندى – نهضة مصر ط٢ .
٥٥ – عقود الجمان – السيوطى – مصطفى الحلبى .
٥٦ – العمدة – ابن رشيق – السعادة ط٣.
٥٧ – عيار الشعر – ابن طبا طبا – التجارية ١٩٥٦ .
٥٨ – الفاضل – المبرد – دار الكتب .
٥٩ – فى النقد الأدبى – د. شوقى ضيف – ط٢ دار المعارف .
٦٠ – القزوينى وشروح التلخيص – د. مطلوب – بغداد .
٦١ – قشور ولباب – د. زكى نجيب محمود – ط الأنجلو .
٦٢ – المقتضب – المبرد – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٦٣ – الكامل – المبرد – التجارية .
٦٤ – الكتاب – سيبويه – الأميرية .
٦٥ – كتاب الأضداد – ابن الأنبارى الكويت .
٦٦ – كتاب البلاغة – عبد القدوس أبو صالح – السعودية .
٦٧ – الكشاف – الزمخشرى الاستقامة ط٢ .
٦٨ – اللغة الشاعرة – العقاد – الاستقلال .
٦٩ – المثال السائر – ابن الأثير – نهضة مصر ٥٩ .
٧٠ – مجاز القرآن – أبو عبيده – الخانجى ١٩٥٤ .

٧١ – مجالس ثعلب – ثعلب – دار المعارف .

٧٢ – المحتسب – ابن جنى – المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

٧٣ – مشكلة السرقات فى النقد العربى – د. هدارة – ط ١٩٥٨.

٧٤ – المطول – التفتازانى – ط ١٣٣٠ هـ.

٧٥ – معانى القرآن – الفراء – دار الكتب .

٧٦ – المغنى – ابن هشام – الأزهرية ١٣١٧هـ.

٧٧ – المفتاح – السكاكى – مصطفى الحلبى .

٧٨ – المفصل – الزمخشرى – ط ١٣٢٣ هـ .

٧٩ – مقدمة ابن خلدون – ابن خلدون – الأزهزية ١٩٣٠ .

٨٠ – من أسرار اللغة – د. إبراهيم أنيس – الأنجلو ط٣ .

٨١ – من حديث الشعر والنثر – د. طه حسين – دار المعارف .

٨٢ – منهاج البلغاء وسراج الأدباء – حازم القرطاجنى – تونس ١٩٦٦ .

٨٣ – الموازنة – الآمدى – دار المعارف .

٨٤ – مواهب الفتاح – المغربى – عيسى الحلبى .

٨٥ – النثر الفنى فى القرن الرابع – د. زكى مبارك – دار الكتب .

٨٦ – نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى – د. حسين نصار – النهضة المصرية .

٨٧ – النظم القرآنى فى كشاف الزمخشرى – د. درويش الجندى – نهضة مصر .

٨٨ – النقد الأدبى – أحمد أمين – لجنة التأليف والترجمة ط٣ .

٨٩ – النقد الأدبى – د. غنيمى هلال – دار النهضة العربية .

٩٠ – نقد الشعر – قدامه – المليجية .

٩١ – النقد المنهجى – د. مندور – نهضة مصر .

٩٢ – النكت فى إعجاز القرآن – الرمانى – دار المعارف .

٩٣ – الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده – محمد خلف الله ط٢ .

٩٤ – الوساطة بين المتنبى وخصومه – القاضى الجرجانى – عيسى الحلبى .

# الفهرس

الموضوع الصفحة



## الفصل الثاني

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|



## الفصل الثالث




